الثقافة الجديدة

فكر علمي ثقافة تقدمية



311
2004

* النفط وخيارات المستقبل (ملف)

* تمهيد جديد لكتاب الاستشراق

أدوار سعيد

* ثقافة الخضوع وثقافة الحوار

د. عامر حسن فياض

* الثقافة العراقية والمتغيرات الاجتماعية (ندوة)

أدب وفن

مهدي محمد علي	وفاء عبد الرزاق
فيصل لعيبي	حسن البياتي
رشيد خيون	عبد الحسين العامر
فهد الاسدي	خميس صالح الجميلي
عبد الخالق محمود	كريم عباس زامل
يحيى السماوي	فاضل السوداني
حسن الفرطوسي	ابراهيم الحريري

الثقافة الجديدة



فكر علمي.. ثقافة تقدمية

تأسست عام ١٩٥٣

المواد المنشورة تعبر عن آراء اصحابها

311

أغلق العدد اوائل كانون الثاني ٢٠٠٤

الاشتراك السنوي: ٥٠ دولار او مايعادلها -١٠٠ دولار للمؤسسات
يحول المبلغ مقدما الى حساب رقم ٤٦٧١٢٧-٤٢
ANY HAMED AYOUB
BANQUE LIBANO-FRANCAISE
Bar Elias,LEBANON
او الى حساب رقم: ٣٠٧٠٢٠-٢٧
COMMERCIAL BANK OF SYRIA
Branch 16 Damascus,Mr. FARES FARES

المرسلة باسم رئيس التحرير، فاكس رقم: ٦٤٢٦٢٥٦٢-٠٠٣٣١
E-MAIL: thakafajadida@hotmail.com
HYPERLINK "http://www.althakafaaljadeda.com
ترسل مواد (ادب وفن) باسم: مهدي محمد علي
يرجى المراسلة بشأن توزيع المجلة وماليتها على العنوان:
سورية، دمشق، ص.ب: ٧١٢٢ او ٢٦٢٢
تليفاكس: ٤٤٤٩٧٢٤

ترجو هيئة التحرير الاخوة المساهمين في المجلة مراعاة ما يلي في ما يرسلون للنشر

*أن تكون المقالة مستوفية لشروط النشر من حيث وضوح التعبير وسلامة اللغة.

*يفضل ان تكون المادة مطبوعة على الكومبيوتر ومرسلة عبر البريد الالكتروني. اما المكتوبة باليد فنرجو ارسال نسختها الاصلية.

*ألا يتجاوز حجم المادة ٤٠٠٠ كلمة.

*لاتعاد المادة غير المرشحة للنشر، وتتولى المجلة اعلام صاحبها بذلك.

*بالنسبة للمادة المرسلة عبر البريد الالكتروني، تلتزم المجلة باعلام كاتبها عن صلاحيتها للنشر وذلك خلال شهر واحد من تاريخ وصولها.

*للمجلة حق اعداد أو اختصار التعقيبات التي تردها.

محتويـــــات العــــــدد

أدب وفـــــن

*** صورة الغلاف الأول : شارع المتنبي (بعدسة سعد عمار)**

*** لوحة الغلاف الأخير للفنان سلام الشيخ**



نحو عقد اجتماعي جديد يؤسس لعراق حر متآخ موحد



كانت ٢٠٠٣ سنة العراق بـامتياز، فأحـداثه عرّضت النظام الحقوقـي وعمارة العلاقـات الدولية للاهتزاز وأخضعت العديد من مرتكزاتها للمراجعة وفق منطق القوة لا العدل.

لقد شاءت مصادفات وتوافقـات السياسـة والجغرافيا والتاريخ أن يكون العراق الساحة الأمامية والمعبـر الرئيس للإستراتيجية العالمية للقـوة الأعظم نحـو إعادة صياغة وتركيب منظومة العلاقات والقواعد الدولية التي أنجبتها موازين القوى بعد الحـرب العالمية الثانية. فكانت الحـرب على العراق في آذار الماضي، وما مهّد لها ورافقـها ونتج عنها من تطورات عاصفة لا نزال في دوّامتها. كانت صدمة هائلة هزّت النظام الدولي، ممثلاً بـالأمم المتحدة، وهو لا يزال يبحث عن نقطة قرار جديد يستعيد عندها تماسـكه. وفي سياقـها تداعى نظام بغداد. (وهو الاستثنائي في طغيانه)، والنمطي (مماثلٌ)، في مكوناته البنيوية المتماثلة في العديد من انظمة مابعد الاستقلال السياسي التي تماهت فيها الدولة في شـخص الحـاكم الفرد، واستمدت شرعيتها من أيديولوجيا انتقـائية شعبـوية. تلك الأنظمة اعتمدت الاستبـداد منهجا والعصبية الطائفية والعشائرية مرتكزا والدولة المضخّمة وسيلة.

بات واضحاً للقاصي والداني أن ما يجري في العراق خرج عن المرسوم. فالعراقـي يعيش حكمة عميقة في بساطتها: التاريخ لا يُصنع بمعزل عن الشعوب وبالرغم منها.

والعراقي الذي يعيش ظرفاً فريداً في تاريخ بلاده المعاصر يواجه تحديات محمّلة بالبشائر والنُذُر، في أوضاع تزدحم بتناقضات عصية على القراءة النـزيهة، مطواعة لسواها.

لقد حال نهج النظام والعامل الخارجي دون انضاج بديل وطني يحقق الإجماع. فأدى الانهيار المفاجيء والشامل للسلطة إلى خلخلة ثم تصدّع الدولة العراقية "الحديثة" القائمة منذ تأسيسـها على توازنات قلقـة وغير عادلة. فتعالت مطالب المتضررين، كلٌّ يريد زوال الحـيف دونما ابطاء أو نقصان. في غياب أطر مؤسسية وحقوقـية وإجرائية فاعلة وموثوقـة ومقبـولة من الجميع تتولى تنظيم التعامل مع هذه المطالبات، وتؤمّن اتساقـها وتنظيم توافقـات ضرورية لتحقيق أعظم قدر منها على أساس المشتركات التي تؤسّس للهوية الوطنية الجامعة يشتد الميل لتغليب العصبيات الأولية والجزئية، القومية والدينية والمذهبـية والعشـائرية، واتخاذها غاية ووسيلة سياسية لانتزاع الحقوق بالقوة، وتحويل التنوّع العراقي الفسيفسائي الثري الجميل إلى حقل ألغام وفضاء متوتر، فتشـتد المخاوف وتتزاحـم الهواجس ويضطرب المزاج الجمعي وتخبو مشاعر التفاؤل بالقادم الأفضل.

العراقيون ومن يمثلهم من مراجع وتنظيمات وشخصيات ورموز يقفون أمام اختبار تاريخي. فإمّا الاهتداء إلى حلول وتوافقات ترسي عقداً اجتماعياً جديداً يؤسـس لعراق متحـرر من الاحـتلال، عراق موحّدٍ على أسـاس وفاق طوعي بـين مكوناته، يحـترم الهويات الخاصة للجماعات والأفراد، ويصوغ تناغمها مع الهوية الوطنية المسـتندة إلى العدل والمسـاواة والحرية، أو الدخول في دوامة احداث وتداعيات لا تحمل سوى المزيد من الآلام لشعبنا المثخن بها.

رغم اللوحة الشائكة فإن في مجتمعنا قوى مجرّبـة تتصدى للشـأن العام بمسـؤولية ووعي للضرورات وللموروث الاجتماعي والثقافي والإنساني، وتحـتكم لذاكرة جمعية تختزن قـيم وتقاليد ووشائج العيش المشترك التي يمكن أن تحصّن الشعب من الانزلاق في مسـالك مهلكة، وترشده إلى دروب الأمان. والمثقفون قادرون على الإتيان بإسهام فعّال في هذا الجهد البنّاء.

دور النفط العراقي في الأسواق العالمية للنفط

علي رجب

قبل الحديث عن أهمية النفط العراقي في سوق النفط العالمي سنحاول إلقاء الضوء على دور النفط في ميزان الطاقة العالمي كمصدر للطاقة وموقف العرض والطلب على هذه المادة، حالياً ومستقبلاً، ودور منظمة الأوبك في إدارة سوق النفط، كونها جهة تؤثر في مستويات الإنتاج العالمي للنفط ومستوى أسعاره والفوائد التي يمكن أن يحصل عليها العراق من صادراته النفطية.

النفط في ميزان الطاقة العالمي

أن حوالي ٩٠% من النفط في العالم يستخدم كوقود لتوليد الطاقة وأن حوالي ١٠% منه يستخدم لأغراض أخرى، مثلاً كمادة أولية لصناعة البتروكيمياويات. وهناك إجماع في التوقعات العلمية بأن النفط سيبقى يحتل المركز الرئيس بين مصادر الطاقة لفترة طويلة ومن المتوقع ان تنخفض نسبته قليلاً في المستقبل من حوالي ٤٠,١ بالمائة خلال عام ٢٠٠٠ إلى ٣٩,١ بالمائة خلال ٢٠١٠، والى حوالي ٣٨,٤ بالمائة خلال عام ٢٠٢٠ وذلك لمصلحة مصادر الطاقة الأخرى بالأخص الغاز الطبيعي الذي يتوقع أن تزداد نسبة مساهمته مستقبلاً كونه مصدر طاقة "نظيف" ضمن الاعتبارات البيئية.

الطلب العالمي على النفط

يتأثر موقف الطلب على النفط بعدة عوامل أهمها معدل النمو الاقتصادي العالمي وسياسات الدول المستهلكة التي تؤثر سلباً على الطلب بالأخص الضرائب العالمية على استهلاك المنتجات النفطية والدعم الذي تقدمه تلك الدول لتطوير مصادر الطاقة البديلة كي تحل محل النفط. إن الاتفاقيات والمفاوضات العالمية، بالأخص فيما يخص البيئة (كيوتو) قد تؤثر أيضا على استهلاك النفط. كما يؤثر أيضا التقدم التكنولوجي الذي يهدف إلى تقليل كمية النفط اللازمة لإنتاج الوحدة الواحدة من الناتج القومي الإجمالي (زيادة كفاءة استخدام النفط).

تتوقع مصادر منظمة الأوبك ضمن سيناريوهاتها الأرجح بأن معدل النمو للطلب العالمي على النفط سيكون حوالي ١،٧ بالمائة سنوياً للفترة ٢٠٠٠ – ٢٠٢٠، وبذلك يتوقع أن يزداد الطلب على هذه المادة من حوالي(٧٧) مليون برميل (معدل العام ٢٠٠٢) ليصبح حوالي (٨٠) مليون برميل/يوم، خلال عام ٢٠٠٥ وحوالي (٩٠) مليون برميل /يوم في عام ٢٠١٠ وحوالي (١٠٧) مليون برميل /يوم في عام ٢٠٢٠. علماً بأن هناك مصادر أخرى أكثر تفاؤلاً تتوقع ان يصل الطلب إلى (١٢٠)مليون برميل/يوم في عام ٢٠٢٠. ويتوقع أن تكون الدول النامية مصدر لأكثر من ٥٠% من تلك الزيادات وبالأخص الصين والهند والدول الآسيوية الأخرى.

العرض العالمي للنفط

هناك عوامل متعددة ومتشابكة تؤثر على موقف العرض العالمي للنفط، منها مستوى الأسعار للنفط والأسعار لمصادر الطاقة الأخرى البديلة. كما تؤثر أيضا سياسات الدول المستهلكة، وبالأخص في مجال دعم عمليات الاستكشاف والتطوير في بلدانها ، بالاضافة إلى مستوى الاحتمالات الخاصة بالاكتشافات الجديدة للحقول النفطية. كما يؤثر أيضا مستوى التقدم التكنلوجي الذي ساعد في استغلال بعض المناطق الصعبة مثل المياه العميقة في غرب أفريقيا وفي خليج المكسيك والبرازيل وأدى كذلك إلى نسبة استخلاص أعلى من الحقل الواحد والى تخفيض كلف الاستكشاف والتطوير بصورة عامة.

ان مصدر العرض العالمي للنفط هو دول منظمة الأوبك (حاليا ١١ دولة) والدول الأخرى المنتجة والمصدرة خارج الأوبك. كما يمكن أن يؤثر في العرض ايضا طبيعة حركة الخزين أي السحب أو بناء الخزين. ومما يذكر فان دول خارج الأوبك تضم حوالي ٢٠% من الاحتياطي النفطي المؤكد في العالم بينما تنتج حوالي ٤٠% في الإنتاج النفطي العالمي.

وان هذه الدول تنتج بكامل طاقاتها الإنتاجية بالرغم من ظروف السوق المختلفة تاركة العبء على دول الأوبك لموازنة العرض والطلب العالمي على النفط.

هناك توقعات تشير إلى أن إنتاج دول خارج الأوبك قد يصل إلى حدوده القصوى أو انه قد يتراجع، قبل أو في نهاية العقد الحالي.

وبالرغم من أن بعض دول خارج الأوبك مثل بريطانيا، النرويج ،عُمان وغيرها، بدأت فعلاً تعاني من انخفاض إنتاجها، فقد نشرت توقعات سابقة ولعدة مرات حول قرب بدء انخفاض إنتاج دول خارج الأوبك إلا إن ذلك لم يتحقق.

الطلب على نفط الأوبك

يعتمد الطلب على المنتج من قبل دول منظمة الأوبك (نفط الأوبك) بالدرجة الأولى على مستوى الطلب العالمي على النفط بصورة عامة والإنتاج النفطي من دول خارج الأوبك التي تنتج كامل طاقتها كما أسلفنا، كما يتأثر الطلب على نفط الأوبك أيضا بحركة الخزين العالمي للنفط.

خلال السنوات القليلة الماضية بلغ معدل نمو الطلب على النفط العالمي حوالي (٠،٦) مليون برميل/يوم بينما كان معدل إنتاج دول خارج الأوبك يزداد بحوالي (١،٠) مليون برميل/يوم والذي يعني انخفاضاً في الطلب على نفط الأوبك. وبالنتيجة فإن الطلب على نفط الأوبك أنخفض بواقع حوالي(٣،٠) مليون برميل/يوم خلال الفترة ١٩٩٩ ـ ٢٠٠٣ .

تعتقد منظمة الأوبك بأن السنة القادمة لن تكون سهلة بالنسبة للمنظمة حيث يتوقع أن يزداد الطلب العالمي على النفط بواقع حوالي (١،١) مليون برميل/يوم، بينما يزداد إنتاج دول خارج

الأوبك بحوالي (١،٣) مليون برميل/يوم. كما يتوقع زيادة إنتاج سوائل دول الأوبك (التي هي خارج نظام الحصص) بحوالي (٠،٣) مليون برميل/يوم. وبذلك فإن الطلب على نفط الأوبك خلال عام ٢٠٠٤ يتوقع أن ينخفض بواقع حوالي نصف مليون برميل.

أما بالنسبة للفترة ٢٠٠٣ – ٢٠٠٨، فتتوقع مصادر المنظمة أنه يزداد الطلب العالمي على النفط بواقع حوالي (٧،٢) مليون برميل بينما يزداد إنتاج دول خارج الأوبك (بضمنها تصفية سوائل الأوبك) بحوالي ٥،٦ مليون برميل وبالتالي تتوقع المنظمة أن يزداد الطلب على نفط الأوبك خلال الفترة أعلاه بحوالي (١،٦) مليون برميل/يوم.

من جهة أخرى فإن هنالك مشاريع جديدة في منظمة دول الأوبك لزيادة طاقاتها الإنتاجية تبلغ حوالي (٦،٠) مليون برميل/يوم إضافية خلال الفترة ٢٠٠٣ – ٢٠٠٨.

ويشير نفس المصدر بأن الطلب على نفط الأوبك يتوقع أن يكون حوالي (٣٦،٠) مليون برميل/يوم خلال عام ٢٠١٠ ويصل إلى حوالي (٥٢،٠) مليون برميل/يوم خلال عام ٢٠٢٠ مقارنة بمستوى الطلب الحالي البالغ حوالي (٢٧،٠) مليون برميل/يوم.

ادارة الأوبك لسوق النفط

بعد انهيار الأسعار في عام ١٩٩٨ اتخذت الأوبك إجراء بتخفيض إنتاجها بالإضافة إلى بعض الإجراءات الأخرى التي مثلت بمجملها تحولاً نوعيا في سلوكية الأوبك في إدارتها للسوق.

لاشك إن منظمة الأوبك مؤهلة أكثر من غيرها للقيام بإدارة السوق النفطية العالمية رغم إن إنتاجها يقل عن مجموع إنتاج دول خارج الأوبك. ولكي تتمكن المنظمة من أداء دورها على أتم وجه يجب توفر شرطين أساسيين، هما : وجود نظام التزام صارم للحصص الإنتاجية للأقطار الأعضاء فيها وتوفر طاقة إنتاجية فائضة لديها وبصورة مستمرة. وهذا يحتم عليها إجراء توسعات مستمرة في طاقاتها الإنتاجية تحسباً لحدوث طلب إضافي على نفوطها مستقبلاً.

بالإضافة إلى التخفيضات في إنتاجها ،كما أشرنا أعلاه ، أدخلت المنظمة آلية النطاق السعري التي تهدف إلى استقرار الأسعار وبقاء سعر سلة نفوط الأوبك ضمن المدى السعري المتفق عليه (أي ٢٢–٢٨ دولار للبرميل الواحد). وفي حالة زيادة معدل سعر السلة عن الحد الأعلى (٢٨،٠٠) لأكثر من (٢٠) يوم عمل متعاقبة تقوم المنظمة وبصورة أوتوماتيكية بزيادة إنتاجها بواقع (٥٠٠) ألف برميل /يوم. أما إذا انخفض سعر السلة عن الحد الأدنى (٢٢،٠٠) لأكثر من (١٠) أيام متتالية تقوم المنظمة بخفض إنتاجها بواقع (٥٠٠) ألف برميل /يوم.

ان استخدام الآلية تم لمرة واحدة في شهر تشرين الأول ٢٠٠٠ عندما زادت المنظمة إنتاجها بواقع (٥٠٠) ألف برميل/يوم .إلا أن الحاجة لتطبيق الآلية أخذت تقل لأن المنظمة سلكت طريقة الاجتماعات المتعددة خلال السنة الواحدة لمراقبة السوق بصورة أدق واتخاذ الإجراءات السريعة اللازمة، فمثلاً خلال عام ٢٠٠٣ أجرت المنظمة أربعة تغييرات في سقف إنتاجها.

كما قامت المنظمة أيضا بالتنسيق مع بعض الدول المصدرة خارج الأوبك وبالأخص النرويج

والمكسيك ، إضافة إلى التنسيق مع الدول المستهلكة من خلال منتدى الطاقة العالمي الذي اتخذ الرياض مركزا له.

إن الجهود التي قامت بها منظمة الأوبك أدت إلى استقرار نسبي للاسعار منذ عام ٢٠٠٠ ولحد الآن ،حيث استطاعت المنظمة المحافظة على المعدل السعري السنوي لسلة الأوبك ليكون ضمن النطاق السعري المتفق عليه (٢٢-٢٨ دولار/برميل) خلال الفترة المذكورة ،وهذا دليل واضح على نجاح الأوبك في إدارتها للسوق.

أهمية النفط العراقي

بالرغم من ظروف الحصار والحروب التي مر بها البلد وما أعقبها من أحداث أصابت الصناعة النفطية بالدمار والخراب ، من دون مغالاة أصبح، متميزاً بين معظم دول المنتجة والمصدرة للنفط وذلك لاجتماع عدة مميزات فيه ،فلما نجدها مجتمعة في دول أخرى منها:

ـ ضخامة الاحتياطي النفطي (حوالي١١٣ مليار برميل مؤكد و ٢١٤ مليار برميل ممكن ومحتمل) وتنوع طبيعة النفط من الثقيل جداً إلى الخفيف جداً.

ـ احتواء العراق على عدد كبير من الحقول النفطية العملاقة بالأخص المكتشفة وغير المطورة وتعدد المكائن في الحقل الواحد وقربها من السطح ،إضافة إلى ذلك فأن أكثر من ثلث العراق لازال غير مسكتشف.

ـ كلف الاستكشاف والتطوير منخفضة مع غزارة الحقول النفطية . ـ كلف الإنتاج (العمليات التشغيلية التي تتراوح بين دولار إلى دولارين للبرميل الواحد والتي تعتبر من الاوطأ في العالم.(

ـ الموقع الجغرافي الستراتيجي للعراق.

تعدد المنافذ التصديرية وتوفر شبكة معقدة من الأنابيب والموانئ تطل على جميع البحار الغربية من العراق والتي تجعل بالإمكان تسويق النفط العراقي في جميع الأسواق العالمية الرئيسية وبكلف معقولة علماً بان طاقات تلك الموانئ والأنابيب تزيد كثيراً عن طاقتنا الإنتاجية الحالية .

طاقة العراق الإنتاجية

تاريخياً وصلت طاقة العراق الإنتاجية إلى حوالي(٣،٥ – ٣،٨) مليون برميل / يوم في عام ١٩٧٩ ثم انخفضت بعد ذلك إلى (٠،٧) مليون برميل/يوم في عام ١٩٨٣ بعد غلق الأنبوب السوري وتوقف التصدير عن طريق الخليج العربي أثناء الحرب العراقية الإيرانية . أما خلال مذكرة التفاهم فقد وصلت طاقتنا الإنتاجية إلى حوالي(٣،٠) مليون برميل/ يوم وصلت صادراتنا إلى حوالي (٢،٢) مليون برميل /يوم في بعض اشهر مذكرة التفاهم . وفي الوقت

الحاضر وصل إنتاجنا إلى حوالي(١،٨) مليون برميل/ يوم خلال شهر أيلول/ ٢٠٠٣ ووصلت صادراتنا إلى حوالي (١،٠٠) مليون برميل / يوم من المنفذ الجنوبي فقط بسبب الظروف الأمنية وتوقف التصدير مؤقتاً عن طريق الأنبوب العراقي التركي.

هذا ويتوقع وصول طاقتنا الإنتاجية إلى حوالي (٢،٨) مليون برميل /يوم خلال النصف الأول من العام القادم والى حوالي (٣،٠٠) مليون برميل/ يوم في نهايتـــه.

وبسبب الظروف المالية الصعبة حاليا فان تطوير طاقاتنا الإنتاجية الى الطاقات التي تتناســب والمستوى العالمي لاحتياطاتنا النفطية (٦،٠٠ مليون بـــرميل / يوم على الأقـــل) يتحـــتم علينا الاســـتعانة بالاســـتثمارات الخارجية وبـــالأخص من الشـــركات النفطية العالمية التي تتميز بتكنولوجيتها العالية في هذا المجال على غرار بعض دول الأوبك الأخرى مثل الجزائر و إيران ونيجيريا وفنزويلا .

الخـــاتمـــة

يتوقع استمرار النفط كمصدر رئيسي للطاقة في العالم لفترة طويلة وقيام منظمة الأوبك بتلبية الجزء الأعظم من الزيادات المستقبـــلية على الطلب العالمي على النفط ، بـــالأخص بـــعد عام ٢٠١٠ بعد يؤمّل استقرار إنتاج دول خارج الأوبك أو بدء انخفاضه. إن العراق هو أحد الدول القليلة من بين دول الأوبك القادرة على المساهمة برفد السوق النفطية العالمية بالكميات اللازمة لموازنة العرض والطلب العالمي على النفط مستقبلاً بسبـــب الاحـــتياطيات الهائلة لمصادرنا النفطية. إضافة إلى ذلك يتصف العراق من الناحـــية النفطية بـــالعديد من الصفات التي تجعله متميزاً بين معظم دول العالم لاحتوائه على عدد كبير من الحقول النفطية العملاقة المستكشـــفة وغير المطورة وانخفاض تكاليف إنتاجها ... الخ .إن ذلك يجعل العراق مرشحاً لان يلعب دوراً أكبر مستقبلاً ضمن نطاق منظمة الأوبك، وكذلك ضمن النطاق السياسي الدبلوماســـي العالمي أيضا. أن العراق كأحد الدول المنتجة والمصدرة للنفط الكبيرة في العالم وأحد الدول المؤسســـة لمنظمة الأوبك ينظر باهتمام كبير إلى ضرورة استمرار إستقرار ســـوق النفط العالمي وتجنب الهزات التي تربك السوق وبالتالي فان من مصلحة العراق ومن مصلحة الأوبك ايضاً أن يبـــدأ العراق بتطوير طاقاته الإنتاجية وبالسرعة الممكنة لتتناسب مع المستويات الهائلة لاحـــتياطاته النفطية. إلا انه يفضل أن يكون ذلك بصورة منظمة بحيث يكون دخول طاقات العراق الإنتاجية الإضافية (بعد بلوغ طاقاته الإنتاجية السابقة) بتوقيتات معينة ومدروســـة تســـهل من إمكانية استيعاب السوق النفطية العالمية لتلك الزيادات ومن دون إرباكات كبيرة بالسوق.

عائدات النفط وتمويل التنمية

د. آمال شلاش
بيت الحكمة



ظلت عوائد النفط العراقي المصدر الاساسي بل والوحيد لتمويل برامج التنمية والإنفاق الإستثماري الحكومي عموماً طوال العقود الخمسة اللاحقة لمنتصف القرن الماضي. وبالرغم من ارتفاع معدلات نمو تلك العوائد وارتفاع معدلات الإستثمار ومعدلات النمو الإقتصادي التي شهدها الإقتصاد العراقي في سنوات لعب فيها النفط دور ماكنة النمو. إلا أن الإقتصاد العراقي لم يصل إلى مرحلة الإنطلاق أو إلى مرحلة النمو الذاتي. فقد عجزت سياسات التنمية الصناعية والزراعية عن تنويع الإقتصاد العراقي وتحريره من هيكل أحادي الجانب يربط فرص النمو في الإقتصاد برمته بما يتحقق من عائدات نفطية تحكمها اشتراطات الإقتصاد الدولي ومقتضيات السياسة الدولية التي لم تكن مؤاتية دائماً. وظل الإقتصاد يعج بمشاكل تتفاقم على أرضية التخلف الإقتصادي والإجتماعي، ويرزح تحت أعباء متزايدة نشأت عن القروض أولاً ثم عن الديون والأعباء المترتبة عنها والتعويضات المفروضة منذ عام ١٩٩١.

وفي الوقت الذي تشكل فيه أولويات معالجة أعباء الديون الخارجية والدين العام وتمويل عمليات إعادة الإعمار، الإهتمام العاجل للسياسة الإقتصادية لعراق ما بعد الحرب... فإن التطلعات لاستئناف التنمية وتعويض سنوات التعطيل والتأجيل لبناء مقومات التطور المادي والإنساني تطرح نفسها هي الأخرى كأولوية لا تقل إلحاحاً ليس على صعيد المواطن فحسب، بل لتعزيز قدرة الإقتصاد الوطني على النمو وتجعل الأعباء المتراكمة والجديدة على المدى الطويل.

ويرد هنا التساؤل الأهم: هل ستمول عائدات النفط إحتياجات التنمية من جديد؟ هل سيعود الإقتصاد العراقي للإعتماد من جديد على إيرادات النفط والتعامل معه كمصدر للدخل الريعي الذي يمول جميع الإحتياجات، أم نتطلع إلى استخدامها كثروة تنمي التراكم وتنوع الإقتصاد وتضعه على مسار الإنطلاق والنمو الذاتي..؟ وما هي مستلزمات وتكاليف ذلك؟ وهل بوسع الإقتصاد المحلي توفير وتحمل ذلك؟

1 – واقع وآفاق الإنتاج النفطي

تكاد تتفق العديد من دراسات خبراء النفط المحليين ودراسات وكالة الطاقة الدولية وخبراء النفط في العالم(*) على المرونة الكبيرة التي تتيحها إحتياطيات النفط العراقي الهائلة (١١٤ مثبتة و ٢١٤ محتملة) وظروف استخراجه ذات الكلفة الواطئة إلى إمكانية زيادة الطاقة الإنتاجية التي وصلت إلى ٢,٣ م ب/ى منذ عام ١٩٩٨ وإلى ٣ م ب/ى خلال(٦ أشهر) إلى سنة ثم إلى ٣,٥ م ب/ى خلال سنة من بدء الإستثمارات الجديدة ثم إلى ٦ م ب/ ى خلال خمس سنوات. ومن المعلوم أن القدرة على تحويل الإنتاج إلى إيرادات تتوقف على الطاقة التصديرية والمقدرة كحد أقصى بـ٣,٥ م ب/ ى وبضمنها ١ م ب/ى للخط العراقي عبر السعودية المتوقف منذ سنوات وإمكانية توسيعها بالتزامن مع التوسع في الانتاج.

(*) أنظر على سبيل المثال: "الإستثمارات الأجنبية في العراق المسوغات والمخاطر" مناظرة فكرية د. همام الشماع- د. عبدالاله مصلح، بيت الحكمة سلسلة ٢٦، ١٩٩٩.

ومن المتوقع حسب تلك التقديرات أن تصل قيمة الإستثمارات المطلوبة في قطاع إنتاج النفط والغاز وتصديرها إلى حوالي (٣٠) مليار بضمنها كلف الإستثمار الآنية والكلف المطلوبة للوصول إلى طاقة ٦ مليون برميل يومياً ونفقات النشاط الإستكشافي للمحافظة على مستوى الإحتياطي وتحسين طاقة التصدير والتصفية. ومن المتفق عليه أيضاً أن احتياجات الإستثمار خلال السنوات الخمس الأولى لا تقل عن ثلثي المبلغ المشار إليه.

هل سيتمكن القطاع النفطي من تحقيق ذلك دون اللجوء إلى الإستثمار الأجنبي؟

لاشك أن تحقيق ذلك الإستثمار يفترض وجود مدخرات محلية لدى القطاع النفطي، كذلك المقدرة على استقدام استثمارات أجنبية للعمل في القطاع النفطي، والنجاح ربما في عقد ترتيبات مالية لعقود مالية تسدد من النفط الخام المنتج، ويعتمد هذا التصور على الفرضيات التالية:

* إن الشركات العالمية لديها الرغبة في الإستثمار في العراق(*).

* بقاء التدفقات المتفائلة بشأن السوق العالمية: عرض النفط وحصة دول أوبك فيه، ونمو الطلب في الأسواق الرئيسة ومستويات أسعار مقبولة.

* بقاء نظام الحصص داخل أوبك قائماً على أساس الإتفاق وإمكانية زيادة حصة العراق في سقف إنتاج أوبك.

* إن هناك قبولاً عاماً وإن لم يكن بدرجة الإجماع على صيغ الإستثمار في الإستكشاف والإنتاج التي تسود حالياً في الإقتصاد العالمي ومنها ما يشابه عقود الإمتيازات القديمة وغيرها من نوع الشركات المشتركة أو المشاركة في الإنتاج أو عقود الخدمة أو صيغة إعادة شراء الحصص المؤممة سابقاً.(**) ويتوقف هذا القبول على مدى فهم التحولات التي أحدثتها العولمة وتحرير الإقتصادات أمام رأس المال والتجارة بشكل عام وتحول السوق النفطية ذاتها من سوق البائع إلى سوق المشتري، الأمر الذي أفقدها ميزة التحكم بالسعر والتصرف في السوق إلى حد كبير.

ومع تحقق صحة تلك الفرضيات تبقى طاقة العراق الإنتاجية هي المحدد الوحيد للحصول على عائدات نفطية من تصدير ٤ مليون برميل يومياً عام ٢٠٠٥ و ٦ مليون برميل يومياً عام عام ٢٠١٠. فهل ستفي تلك العائدات باحتياجات التنمية؟ وما هي تلك الإحتياجات؟ تتوقف عملية التنمية في اقتصاد يعيش اوضاعاً طبيعية على المقدرة في تدبير الموارد الحقيقية لتنفيذ برامج الاستثمار. وتعتمد المصادر تقليدياً الى المدخرات الوطنية وهي مجموع مدخرات قطاع الاعمال + مدخرات الحكومة+ مدخرات القطاع العائلي، والموارد الخارجية (الاجنبية) على اختلاف أشكالها. وظلت أدبيات التنمية المدرسية تؤكد على مسلمات نظرية تفترض وجود علاقة عكسية أو وثيقة بين مستوى الادخار المحلي ومستوى التمويل الخارجي وتقرر بنتيجة

(*) وهذا أمر لم يعد ممكنا التعامل معه كحقيقة مطلقة في ظل العولمة حيث لا تضطر الشركات لمجاباة الدول... بل العكس هو الصحيح فالسياسة أصبحت في خدمة الإقتصاد وليس الإقتصاد في خدمة السياسة.

(**) لجأت إيران إلى اعتماد هذه الصيغة مؤخرا كذلك عملت دول معروفة بالتشدد في سياستها النفطية كفنزويلا والجزائر على فتح قطاعها النفطي أمام الإستثمار الأجنبي والقطاع الخاص في مجالات الإنتاج والتصفية والتوزيع والتسويق.

هى " إن الاستعانة برأس المال الاجنبي إنما تتم لغرض سد النقص أو سد الفجوة الموجودة في الموارد المحلية المخصصة للاستثمار" وسوف يترتب على ذلك أعباء مالية يلتزم الاقتصاد المدين أو المضيف للوفاء بها، وإن مدى تأثير تلك الاعباء على ميزان المدفوعات تتوقف بالدرجة الاساس على كيفية استخدام الموارد الاجنبية والسياسات الاقتصادية الحاكمة لها أكثر من اختلاف شكل تلك الموارد، قروضاً كانت أم إستثمارات، أجنبية مباشرة وغير مباشرة. وغالباً مايتم الاستشهاد هنا بنموذج البلدان الاسيوية والصين.

اما الفرضية المهمة الاخرى فهى إن هناك حدوداً ضيقة جداً للاحلال بين الموارد الاجنبية والموارد المحلية. فالعجز الذي يحدث في الموارد الاجنبي- عند مستوى معين للنمو- لايمكن التعويض عنه بزيادة الصادرات من السلع والخدمات المحلية فهي حصيلة غير قابلة للزيادة. ستمكن تدفقات الإستثمار الأجنبي المباشر - تحت شروط معينة- أن يسهم في سد النقص الموجود في الموارد المحلية لتمويل الإستثمارات المطلوبة لبرامج التنمية. وزيادة قدرة الإقتصاد على خدمة أعباء التمويل الخارجي وهي ثمن أو كلفة لأصحاب رأس المال وتمثل جزءاً من الناتج القومي الإجمالي. وترتبط قدرة الإقتصاد بدورها بالمتغيرات الأساسية للنظام الإقتصادي والتى تحكم إتجاهات نموه في المستقبل. فالتغيرات التي ستطرأ على معدل الإدخار ومعدل الإستثمار ومعامل إنتاجية الإستثمار وحجم الصادرات والواردات ومعدل نمو الدخل القومي خلال عملية التنمية هي التي ستحدد قدرة الإقتصاد الوطني على خدمة إلتزاماته الخارجية. على المدى القصير، تعتمد تلك القدرة على حجم السيولة والعوامل المؤثرة فيها. أما على المدى الطويل، فترتبط بمرحلة النمو الإقتصادي وبطبيعة مسار وسرعة عملية التنمية الإقتصادية.

في ظل فرضيات نظرية النمو النيو كلاسيكية، يمكننا أن نوضح الآلية التي تعمل فيها الإيرادات النفطية لإحداث التعادل بين فجوة الموارد المحلية (الإستثمار- الإدخار المحلي) وفجوة التجارة الخارجية (الواردات- الصادرات) حيث كانت الصادرات تغطي دائماً الفجوة الأكبر وهي فجوة الموارد المحلية. لقد بلغت نسبة الناتج المحلي الإجمالي في عام ١٩٩٣ بالمقارنة مع مثيله لعام ١٩٨٩ (٢١%) فقط، ويبين ذلك مدى اعتماد الناتج المحلي الإجمالي على النفط.

وعلى الرغم من التحسن النسبي في نمو الناتج الزراعي بعد عام ١٩٩٠ (إرتفعت مساهمته من ١٨,٩% عام ١٩٩٠ إلى ٣٥,٥% عام ١٩٩٣) في غياب مساهمة النفط، إلا أن قيمة الناتج المحلي الإجمالي إستمرت بالإنخفاض (إنخفض من ٧٥ مليار دينار عام ١٩٩٠ إلى (١٨) مليار فقط عام ١٩٩٦ بسبب توقف تدفق الصادرات النفطية). إن ضيق القاعدة الإنتاجية (الزراعية والصناعية) تجعل نمو القطاعات الأخرى محكوماً بالعائدات النفطية سواءً من حيث التوسع في الإستثمار أو تشغيل الطاقات القائمة ويفسر ذلك أمران:

* إرتفاع مساهمة المستلزمات المستوردة اذ بلغت نسبتها إلى قيمة الإنتاج الصناعي ٢٩,٤% في عام ١٩٩٠.

* الإنكشاف العالي على الخارج في توفير التكنولوجيا، إذ بلغت نسبة استيراد السلع الرأسمالية ٢٦% من مجموع استيرادات العراق (باعتبارها مؤشرات على القدرة على تمويل

الإستيرادات) عام ١٩٨٨ و٣١,٥% عام ١٩٩٠.(*) ولعل ذلك يفسر تراجع مساهمة الصناعة في الناتج المحلي الإجمالي من ١٢,٣% عام ١٩٨٩ إلى ٤,٨% عام ١٩٩٣.

وفي ضوء الإحتياجات الملحة لاستئناف التنمية لابد من مواجهة حقيقتين أساسيتين هما اشتراطات عملية إعادة الإعمار وإعادة جدولة الدين الخارجي. لابد لنا ابتداءً أن نقر باحتياجات تعويض التوقف في عمليات الاستثمار (المادي والبشري) طوال سنوات الحصار ومنها تعويض قيمة الإندثارات ورأس المال الثابت حيث انخفضت نسبة تكوين رأس المال الثابت إلى الناتج (بأسعار ١٩٨٠) من ٢٩,١% عام ١٩٩٠ إلى ١٢,٦% عام ١٩٩٣(**). أما بالنسبة لتعويض قيمة الإندثارات في البنية التحتية الأساسية، فبحسب تقدير الأمم المتحدة والبنك الدولي Iraq: watching Brief تشير التوقعات إلى فترة لا تقل عن اربع سنوات لإنجاز عمليات إعادة الإعمار والإعمار الضروري للنهوض بالإقتصاد العراقي. وحدد التقدير مبلغ ٣٦ مليار دولار يتم استثمارها في بيئة آمنة ومحفزة يخصص معظمها للإستثمارات في البنية الأساسية وتشمل ١٤ قطاعاً، مضافاً إليها ٢٠ مليار لتغطية احتياجات الإستثمار في القطاعات العامة التي لم تتناولها تقديرات التقرير. وتقوم تلك التقديرات على فرضيات معينة أهمها:

* إن الإستثمارات ستقود عملية إنتقالية إقتصادية واجتماعية تؤمن الحماية الإجتماعية كما تطلق إمكانات النمو الإقتصادي وتعزز مؤسسات الحكومة التي تتمتع بالسيادة والشفافية.

* إن القطاع الخاص سيكون على المدى المتوسط وسيلة حاسمة لتحقيق نمو اقتصادي قوي وخلق للوظائف.

* أن بامكان عائدات النفط أن تسد فجوة الأموال المطلوبة بمرور الوقت.

* وعلى هذا الأساس توقعت ميزانية عام ٢٠٠٤ توفر عائدات نفطية بمقدار ١٢ مليار، والعمل على إيجاد مناخ استثماري ملائم خارج قطاع النفط يتم التمهيد له عبر سلسلة من الإجراءات المتعلقة بتحرير التجارة واجتذاب الإستثمارات الأجنبية المباشرة التي يعول عليها في سد الفجوتين.

فمع فك ارتباط نمو الناتج المحلي الإجمالي مع الصادرات النفطية، والأخذ بالإعتبار أعباء الديون الخارجية يصبح اجتذاب الإستثمار الأجنبي المباشر "الملاذ الأخير" لإعادة الإعمار واستئناف التنمية. ويفترض ذلك حصول زيادة معدل في النمو الإقتصادي وتحقيق فائض في الميزان التجاري يكون له تأثير على ميزان المدفوعات وتقليص حجم البطالة ونقل التكنولوجيا وبنية السوق المحلية والآثار السياسية والإجتماعية.

معايير اختيار القطاعات التي يوجّه نحوها الإستثمار الأجنبي المباشر

لابد أن يتم اختيار القطاعات وفق أسس تراعي الميزة النسبية والمعايير الإجتماعية أحياناً كإنتاج السلع والخدمات الأساسية، ومعايير تحقيق أهداف التنمية والتطور التكنولوجي. وسنناقش آثار الإستثمار الأجنبي المباشر على النمو الإقتصادي والفائض بقدر تعلقها بأهداف التنمية وفق المعايير التالية:

(*) أنظر: "الإقتصاد العراقي في ظل الحصار وآفاق المستقبل" مجموعة باحثين- بيت الحكمة ١٩٩٨ ص٤٩.

(**) المصدر نفسه- ص٤٦.

أولاً: أثر الإستثمار الأجنبي المباشر على النمو الإقتصادي

1- يشجع الإستثمار الأجنبي المباشر الإستثمار المحلي من خلال خلق فرص استثمارية جديدة للشركات المحلية في الصناعات القائدة، ويخفف النقص الحاصل في العملات الأجنبية والبنية التحتية. كما أنه من الممكن للاستثمار الأجنبي المباشر.

2- الإستثمار الأجنبي المباشر يحفز الإستثمار المحلي من خلال آثار الإرتباطات الصناعية - شراء المدخلات المحلية وتجهيز الشركات المحلية بالمدخولات الوسطية. إلا أن الروابط محدودة حيث لم يتطور قطاع الأعمال بشكل كفوء لخدمة متطلبات الإستثمار الأجنبي المباشر.

3- زيادة صادرات البلد

4- الإستثمار الأجنبي المباشر يوفر المعدات والتكنولوجيا التي لا يمكن صناعتها محلياً.

5- المؤشر الأساسي لقياس أهمية الإستثمار الأجنبي المباشر في الإقتصاد المحلي هو :

ـــ نسبة الإستثمار الأجنبي المباشر إلى إجمالي تكوين رأس المال الثابت.

ـــ مساهمة الإستثمار في زيادة تكوين رأس المال الثابت الذي يؤدي إلى زيادة حجم الناتج المحلي الاجمالي.

ـــ ان إعادة الإعمار لا توسع الطاقات.

ـــ كذلك إن الاستثمار في طاقات عاطلة يتم تشغيلها لايوسع الطاقات.

لكي يصبح الاستثمار حقيقيا يجب أن يترتب عليه خلق طاقات إنتاجية، أما إذا إقتصر على مساهمات في ملكية الأصول الإنتاجية الوطنية (مشتريات الأجانب لأصول قائمة) فلن تكون له آثار تنموية لاحقة(*).

6- وبتوسيع الإستثمار الأجنبي المباشر لفرص النمو سيتم خلق وظائف جديدة وزيادة فرص العمل (في حالة تناسب تكنولوجيا الإنتاج مع طبيعة سوق العمل المحلية كماً ونوعا) وإلا فمن الممكن أن يقع عبء اجتماعي كبير نتيجة البطالة الناشئة عن لجوء الشركات إلى مشاريع ذات رساميل كثيفة ومنافسة المشاريع المحلية.

ثانياً: أثر الإستثمار الأجنبي المباشر في تحقيق الفائض

يمكن النظر إلى دور الإستثمار الأجنبي المباشر من خلال مساهمته في تحقيق فائض في الميزان التجاري، ويتوقف ذلك على مدى مساهمة تلك الإستثمارات في حدوث زيادة أو توسيع في الطاقات الإنتاجية تسهم في زيادة الصادرات أو تقليل الواردات. وعند مقارنة الآثار التي يحدثها الإستثمار الأجنبي المباشر بحسب القطاع الذي يسهم فيه نلاحظ الأولوية التي يتصدرها قطاع النفط (الفقرة (٢) في الجدول أدناه) في اجتذاب الإستثمارات وفي التأثير على النمو وخلق الفائض.

(*) تقاس المساهمة الصافية في تكوين الأصول الثابتة المنتجة= الواردات الرأسمالية (وتشمل العوائد المعاد استثمارها)+ إستهلاك رأس المال - مدفوعات دخل الإستثمار.

المساهمة في خلق الفائض

1- الإستثمارات في البنى التحتية	لا تولد طاقات إنتاجية	لا توفر موارد ذاتية لخدمة أعبائها	وفورات خارجية ترفع الإنتاجية	غير مباشرة
2- الإستثمار في القطاعات المنتجة للسلع والخدمات من أجل التصدير	زيادة الطاقات الإنتاجية	لا تتطلب مستلزمات مستوردة	سوق دولية مؤاتية	مباشرة
3- الإستثمار في القطاعات المنتجة للسلع والخدمات من أجل التصدير	زيادة الطاقات الإنتاجية	لا تتطلب مستلزمات مستوردة	سوق دولية مؤاتية+ قيمة الصادرات أكبر من قيمة المستلزمات المستوردة	مباشرة
4-الإستثمار في القطاعات المنتجة للسلع والخدمات من بدائل الإستيراد	زيادة الطاقات الإنتاجية	تتطلب مستلزمات مستوردة	نسبة من الواردات في هيكل الصادرات	مباشرة
5- الإستثمار في القطاعات المنتجة للسلع والخدمات من بدائل الإستيراد	زيادة الطاقات الإنتاجية	تتطلب مستلزمات مستوردة	الوفر في العملة الأجنبية	مباشرة
6- قطاعات إنتاج سلع وخدمات جديدة للإستهلاك المحلي	خلق طاقات إنتاجية	لا تتطلب		لا تأثير
7- قطاعات إنتاج سلع وخدمات جديدة للاستهلاك المحلي	خلق طاقات انتاجية	تتطلب مستلزمات مستوردة		تأثير سلبي

خاتمة

وبناء عليه فأن الإستثمار الأجنبي المباشر .. ليس أحد الخيارات المطروحة للتعامل مع متطلبات النهوض بالإقتصاد العراقي الذي كبلته الديون ودمرته الحروب بل أصبح الخيار الوحيد.

فكيف نتعامل معه.. وكيف نحقق أقصى المنافع وأقل الأضرار؟

الشروط التي تحقق المزايا المثلى من الإستثمار الأجنبي المباشر

* هناك علاقة موجبة بين تحرير التجارة والإستثمار الأجنبي لابد من تحققها. ولذا يقترن صدور الأمر الخاص بالإستثمار الأجنبي بإجراء تغييرات أساسية على النظام الإقتصادي العراقي.

* هناك ضرورة لأن يرتبط الإستثمار الأجنبي بالتجارة في إطار التنمية، أي أنه ينبغي التعامل معه في إطار نظرية التنمية وليس التجارة الدولية.

شروط المزايا

1-الإنتقائية في اختيار المشاريع: هدف تنموي وليس هدف تصحيح: مشاريع ذات آثار تكنولوجية.

2-الإنتقائية في حجم وتوقيت التدفقات

ـــ حرية الحكومة في تحديد مكونات وحجم الإستثمار.

ـــ قدرة الحكومة على وضع سياسات للتدخل في إدارة التدفقات الواردة.

ـــ منع التعرض للصدمات.

3- مراقبة رصيد الإستثمار الأجنبي المباشر وإجمالي تدفقاته

4-منع إساءة استعمال القوة الإحتكارية للشركات المستثمرة

5-إقامة قواعد للسلوك تحكم تصرفات المستثمرين الأجانب، وذلك لمنع الرشوة والفساد والتهرب الضريبي.

6- تشكيل هيئة عليا للإستثمار الأجنبي تضم وزارة المالية ووزارة التجارة ووزازة التخطيط ووزارة الصناعة، البنك المركزي تتولى تنفيذ القانون بالتنسيق فيما بينها.

7-وضع خطة تنفيذ أمر الإستثمار الأجنبي المباشر في إطار عملية إعادة الاعمار والتنمية تحدد فيها نسبة الإستثمار إلى الناتج المحلي الإجمالي ومعدلات النمو المتوقعة والمرغوب فيها.

8-التعامل مع موضوع الإستثمار بشفافية تامة تتيح متابعة ورصد التقدم المتحقق والثغرات في القانون أو التنفيذ.

9-ضرورة تعبئة الوعي العام لرصد الممارسات والآثار الضارة والتصدي لها، ويعول على المنظمات غير الحكومية والجمعيات الأهلية والأحزاب الوطنية القيام بأدوار فاعلة تمارسها نظيراتها في بلدان العالم الأخرى بنجاح.

مستقبل صناعة النفط في العراق

عدنان الجنابي



الاحتياطي:

التحدث عن مستقبل صناعة النفط في اي مكان لابد أن يبدأ بفهم احتياطي ذلك البلد. لأن السياسة النفطية للمستقبل لابد ان ترتكز على امكانيات الانتاج، واحتياجاته الاستثمارية ومن ثم فهم دوره في الاسواق العالمية. وتنطلق السياسة النفطية في دورة استثمارية تتراوح بين ثلاث وخمس سنوات، وهي الفترة الزمنية بين استكشاف الاحتياطي، والاستثمار فيه ودخوله الاسواق.

أ- الاحتياطي: الثابت الذي تم استكشافه ويمكن انتاجه بالسبل الفنية المعروفة حالياً وبالكلف والاسعار السائدة، من المكامن الهايدروكاربونية في الطبقات الحاملة للهايدروكوروبونات السائلة وكما هو معلن رسمياً - (١١٢) بليون برميل. وعلى معدل الانتاج السائد قبل العمليات العسكرية والبالغ (٣) مليون برميل يومياً، يكفي لإنتاج مائة عام.

ب- يؤدي التقدم التكنولوجي والمعرفة المتكاملة للمكامن المكتشفة الى توسع في النفط الذي يمكن انتاجه من نفس الاحتياطي. فنسبة الاستخراج من النفط المكتشف في المكمن (Oil in Place) تتزايد بتحسن طرق الاستخراج، كما ان المعرفة العمودية والافقية للطبقات الحاملة للنفط تؤدي كلها الى زيادة الاحتياطي الثابت والتوسع في الاحتياطي (Reserve expansion). ويتوقع الخبراء الى ان يبلغ هذا التوسع في الاحتياطي الثابت في العراق حوالي(١٠٠٩) بليون برميل اضافية من المكامن النفطية المكتشفة حالياً.

ت- يعتبر الاحتياطي المحتمل (Probable Reserve) في العراق من أوسع الاحتياطيات النفطية في العالم. فبالرغم من ارتفاع احتمالات العثور على النفط في العراق الى اعلى نسب في العالم، فأنه من أقل الاقاليم النفطية تغطية بالنسبة للنشاط الاستكشافي بسبب الظروف السياسية والحروب والحصار. ويقدر الاحتياطي المحتمل في العراق بحوالي (١٥٠) بليون برميل.

وهذه الاحتياطيات تجعل كميات النفط التي يمكن استخراجها في المستقبل (Ultimate Recovery) تقدر بأكثر من (٣٦٠) بليون برميل. وهذا يكفي للأستمرار بمعدل الانتاج بالطاقة المتاحة حالياً لمدة ثلاث قرون ونصف!..

منذ عام ١٩٥٨ بدات شركات الامتياز النفطي العاملة في العراق آنذاك بإتباع سياسة معاقبة العراق بالحد من انتاجه، والتقليل من حصته في الاسواق العالمية. وزادت هذه السياسة وضوحاً بعد سن قانون رقم ٨٠ لعام ١٩٦١ والمعروف بقانون الاستثمار المباشر.

ولم يتعافى انتاج العراق حتى عام ١٩٧٥. واستمر انتاج العراق بالتزايد حتى بلغ اقصاه في نهاية عام ١٩٧٩ إذ بلغ أكثر من (٣,٥) مليون برميل يومياً ثم عادت طاقة العراق على الانتاج والتصدير بالتدهور طوال فترات الحروب والحصار بين عام ١٩٨٠ حتى هذا العام.

ويتوقع لانتاج العراق النفطي لان يبلغ (٢) مليون برميل نهاية هذا العام، وقد يصل الى (٣,٥) مليون برميل يومياً في نهاية عام ٢٠٠٤.

أطر السياسة الداخلية:

لكي يأخذ العراق دوره في الاسواق العالمية، ولكي تتوفر للصناعة الوطنية أطر مناسبة للقيام بهذا الدور، لابد من إعادة هيكلة صناعة النفط الوطنية داخليا بما يحقق الاهداف التي تحددها حكومة وطنية ذات سيادة ومنتخبة من قبل الشعب.

1- واول مايجب عمله في هذا المضمار هو عودة تشكيل شركة نفطية وطنية تعنى بالاستكشاف والاستخراج والتصدير. ولا فرق أكانت هذه التشكيلة على شكل شركة قابضة تضم الشركات العامة للاستكشاف والحفر ونفط الشمال والجنوب وانتاج الغاز - أو كانت شركة نفطية عضوية التكوين كما كانت شركة النفط الوطنية العراقية (I.N.O.C.).

2- تشريع قانون مناسب لضريبة الدخل على الانتاج النفطي والغازي يخضع له كافة المنتجين للهايدروكاربونات السائلة والغازية سواء كانوا شركات عامة (حكومية) أو خاصة (محلية أو أجنبية). ومثل هذا القانون يسهل عمل جميع المنتجين ويضمن حصة المجتمع ووزارة المالية في هذه الصناعة الاستخراجية. ولابد ان تكون نسبة الضريبة المقبولة في العراق عالية بسبب انخفاض كلف الانتاج وارتفاع معدلات الاستخراج للبئر الواحدة.

3- وضع إطار يسمح لمشاركة القطاع الخاص المحلي والاجنبي في صناعة النفط التحويلية والتوزيعية (عدا الاستخراج). وينبغي ان يشترط هذا التشريع وضع حد أدنى للجانب العراقي، بما لايقل عن ٥١% وخاصة في النقل والتوزيع.

4- عدم السماح بأي نوع من المشاركة أو الالتزامات الدائمة في القطاع الاستخراجي للنفط والغاز، وترك البت في هذا الموضوع لبرلمان مُنتخب بصورة شرعية. وهذا لايعني بطبيعة الحال عدم الاستفادة من التكنولوجيا المتاحة عالميا، وخاصة لدى الشركات الامريكية والبريطانية والفرنسية والالمانية والايطالية عن طريق عقود المقاولة وحتى محاصصة الانتاج ذات الامد المحدود والتي تنتهي بسداد الكلفة وهذه المرونة ضرورية لتمويل الاستثمارات الكبيرة المطلوبة لاعادة التأهيل والتطوير في المراحل الاولى.

5- تفعيل قانون صيانة الثروة النفطية وتطويره للحد من الممارسات غير السليمة فنياً وبيئياً، وان يكون تطبيقه شاملاً على جميع الوحدات العاملة في صناعة النفط والغاز، وان يطبق من قبل هيئة مستقلة.

6- اعتماد ستراتيجية للتعجيل في نقل نمط استهلاك الطاقة محلياً من النفط الى الغاز لتعظيم فائدته الاقتصادية والبيئية والتسريع في بناء قاعدة صناعية معتمدة على الميزة الاقتصادية للغاز المحلي في مجالات لها ميزة نسبية واضحة مثل الاسمنت، والكهرباء، والزجاج...الخ..كما يجب التسريع في إيصال الغاز العراقي الى السوق الاوروبية عن طريق تركيا والبحر الابيض المتوسط.

الاستراتيجيات:

ينطلق العراق من قاعدة واضحة تؤهله للتوسع السريع في الاستثمار في الطاقة الانتاجية. فهو الاوطأ كلفة في العالم بين المنتجين المهمين. ففي الوقت الذي تُقدر الاستثمارات اللازمة لانتاج برميل واحد يومياً بـأكثر من (١٠,٠٠٠) دولار خارج منطقة الخليج، ونصف هذا المبلغ في منطقة الخليج، فأن المبالغ اللازمة في العراق لأنتاج برميل واحد يومياً لاتتجاوز

(٣,٢) الاف دولار. أي ان اضافة مليون برميل يوميا قد لاتتجاوز ثلاثة مليارات دولار.
كما ان منافذ التصدير الحالية عن طريق الميناءين البحريين والانبوب المار بالسعودية والانبوب السوري والانابيب المارة بتركيا قادرة على تصدير نحو ستة ملايين برميل يومياً. ولن يكون ذلك بطبيعة الحال دون الحاجة الى استثمارات في الصيانة والتوسيع وطاقات الخزن المناسبة.

ولابد للعراق الجديد ان يأخذ مكانه المناسب في الاسواق العالمية والذي حرمته منه شركات النفط الاجنبية وانظمة الحكم الدكتاتورية. ويؤهل العراق لهذا الدور انخفاض الكلف الاستثمارية والاستخراجية وغزارة احتياطياته التي يتفق جميع الخبراء على انها الاقدر في العالم على توفير الاحتياطيات الجديدة للرصيد العالمي من الكاربوهيدرات السائلة والغازية. وتدل المؤشرات على ان الغاز الطبيعي العراقي قد يكون الاكبر في العالم بعد روسيا وايران.

والبلد الذي يملك الاحتياطي الكبير وبكلفة استثمارية وتشغيلية واطئة مثل العراق يجب ان يسعى الى سياسة نفطية توسعية مبنية على:

أ. اتباع سياسات تؤدي الى اسواق عالمية مطردة الاتساع، والاقتصاد عالمي عالي النمو.
ب- اتباع سياسة سعرية معتدلة ومستقرة.
ج- بناء علاقات طويلة الامد وتكاملية مع الاسواق المهملة في العالم وخاصة المتسعة منها.

ولابد لاي ستراتيجية عقلانية لبلد له صفات العراق ان تكون مبنية على مؤشرات أهمها:

1- توفير أعلى عوائد في الامد القصير لدعم اعادة اعمار وتوفير زخم تنموي لايقبل التأخير.

2- وضع منظور تاريخي لحجم الاحتياطي العراقي يجعله على الاقل في مصاف احتياطيات الدول المجاورة والتي لاتتجاوز نسبة الاحتياطي الى الانتاج فيها (١٠٠) سنة. وهذا يعني بلوغ طاقة الانتاج المستهدفة في الامد المنظور (٩) مليون برميل يومياً.

3- توفير طاقة انتاجية تتجاوز الحاجة المباشرة للأسواق المتاحة آنياً، وذلك لاستباق دورة الاستثمار التي تبلغ (٣-٥) سنوات، وتوفير اداة فاعلة بيد العراق للتاثير في الاسواق العالمية وقيادتها نحو التوسع والاستقرار.

4- التقييم العاجل، وباحدث التقنيات للمكامن المنتجة والتي تعرضت الى سوء استغلال، واتخاذ موقف حازم وفوري في اي ممارسة تظر بمستقبل الاستخراج من هذه المكامن.

5- فتح حوار مباشر مع شركات النفط العالمية (I.O.C) حول المساعدة في ادخال التقنيات الحديثة الى صناعة النفط العراقية، ومستقبل واشكال التعاون الممكنة في المراحل اللاحقة، دون الدخول بتعاقدات دائمة حول الانتاج لحين قيام حكومة منتخبة وشرعية في العراق.

6- تكوين صندوق لتمويل الاستكشاف في البادية الغربية وبقية انحاء العراق غير المستكشفة، وتأجيل أي التزام استثماري بصددها، لكي يكون العراق في وضع تفاوضي افضل في المستقبل، وليتعامل المفاوض العراقي على معلومات ثابتة، لا على مخاطر مجهولة. والعبء الاستثماري لهذا الصندوق سيكون ضئيلاً بالمقارنة بمردوده المضمون لارتفاع احتمالات العثور على احتياطيات جديدة.

خيارات ادارة الملكية في صناعة النفط العراقية

د.كاظم جواد لفته*

مدخل:



ان حديثاً جدياً متسماً بالمهنية وروح المسؤولية العالية عن قرار سياسي عراقي محض بشأن تحرير النفط من سلطة الدولة وخصخصته في الوقت الحاضر مازال بعيداً عن الواقعية ويكتنفه الغموض والتسرع. هذا الحديث من المحتمل أن يثير القلق والتشويش في الفكر السياسي العراقي الراهن، الذي يواجه مخاض عسير لولادة خيارات بناء هياكل دولة جديدة يكون فيها الانسان العراقي نقطة البدء والهدف والعقيدة معاً. ان العقل السياسي العراقي، بعد اجتيازه إمتحان مواجهة النظام البائد، بحاجة ملحة للتهدأة وجمع الشتات والعقلانية ووضوح الهدف وآلية العمل حول القضايا الكبرى التي تواجه حاضر العراق ومستقبله مثل قضايا الحكم والادارة العامة والسلام الاجتماعي وادارة مستلزمات التطوير الاقتصادي والتقني وغيرها. وللسياسات والاستراتيجيات الخاصة بالقطاع النفطي في كل ذلك مكانة ووظيفة تتصفان بالاهمية القصوى والخطورة والتعقيد والتأثير في المسار الذي ستؤول اليها محاولات اعادة بناء شاملة للمجتمع والاقتصاد والانسان في آن واحد. من هنا سيكون للنقاش المفتوح حول اتجاهات وكيفيات ادارة صناعة النفط دوراً مهماً في تقرير شكل ومحتوى واتجاه مايراد ان يصبح عليه العراق حاضراً ومستقبلاً.

ماطرحه الدكتور فاضل الجلبي في محاضرته "حاضر ومستقبل صناعة النفط في العراق" (جريدة المؤتمر، الصادرة في لندن، عدد ٣٥٢ في ٢٠٠٣/٦/٣) من طروحات يشير الى عمق التفهم لمعضلات صناعة النفط، وكذلك يؤطر الحوار عنها ويقرر منهجية دراستها ورسم سياسات ملائمة لها من منطلق الدراية والخبرة والرغبة الوجدانية في أن ينعم الشعب كله بثرواته الوطنية، وان لاتصبح هذه الثروات سبباً لعبوديته واذلاله، وان لايؤدي التصرف بها الى اعادة شروط انتاج آليات إقصائه عن المشاركة الفاعلة في تقرير وتحقيق عمليات الجهد الوطني العام لتطبيع الحياة في البلاد.

وفي هذا الصدد يتبنى الدكتور الجلبي الطروحات التالية:

* "ان فكرة الدولة الراعية والمالكة للنفط والمتصرفة بعوائده خطأ يحول الدولة من نظام ادارة الى قوة قمعية. وان الدولة حوّلت النفط من سلعة الى عقيدة..وفيما جعل منه الحاكم ملكاً شخصياً"..

* بناء على ذلك، يقترح "تحرير النفط من سلطة الدولة وخصخصته والتخلي عن فكرة ان النفط هو ريع للدولة..وان الخصخصة تشمل الاحتياطيات النفطية".

* ولتحقيق هذه الاقتراحات يرى ضرورة "طرح صناعة النفط على شكل أسهم عامة في سوق مالية واعتماد مبادئ (الضرائب المستقطعة من الشركات كعائدات للدولة) و (نظام المدفوعات) ..واشراك كافة المواطنين في آليات هذه الصناعة وعوائدها..

* بروفيسور إدارة أعمال

* ونتيجة لذلك، يؤشر د.الجلبي الاطر الاساسية التي ينبغي اعتمادها لتجاوز صعوبات الاقتصاد العراقي، بمعنى آخر الاهداف التي تبتغيها عملية خصخصة صناعة النفط وهي "خدمة الديون الخارجية، تأمين حاجات الاستيراد، إعادة اعمار البلاد".

وفي ضوء الاهداف العامة للسياسات الاقتصادية والاجتماعية التي يُراد تحقيقها في عراق المستقبل ومنها هدف الاستفادة والعقلانية القصوى من الثروات النفطية من خلال تبني وتنفيذ ستراتيجية شاملة لما ستكون عليه الصناعة النفطية حاضراً ومستقبلاً أرى ضرورة تثبيت عدد من المقدمات الأساسية:

* اقتصاد السوق أكثر قدرة وكفاءة في ادارة الموارد الطبيعة والبشرية مقارنة بالتخطيط المركزي للدولة. ان آليات عمل قوانين السوق تؤفر فاعلية اقتصادية أكبر لادارة الصناعة النفطية مقارنة بالقرارات البيروقراطية للجهاز الاداري الحكومي. وان عملية الخصخصة من خلال آليات قوى السوق ستحقق اهدافها الأجمالية بنجاح أكبر مقارنة بآليات الجهاز البيروقراطي للدولة.

* ضرورة الأقرار بحالة التفاضل النوعي والكمي للمؤسسات والقطاعات والنشاطات الاقتصادية والانتاجية المختلفة والتوزيع والاستهلاك والاستثمار والادارة عند البحث في تغيير شكل ملكيتها.

* ضرورة الاقرار بالاهمية السياسية لاستراتيجية خصخصة مؤسسات القطاع العام والاقرار بأهمية البعد التاريخي لتطور المؤسسات والقطاعات الانتاجية والاخذ بالاعتبار ما أسماه الاقتصاد الامريكي (H.Saimon) "ذاكرة المؤسسة" في اجرائيات نقل الملكية.

* الأقرار بأهمية الربط العضوي بين مبدأ حرية السوق وبين ضرورة الانسجام الاجتماعي عبر اختيار أحد نماذج الادارة والرقابة قبل الشروع الفعلي بالخصخصة أو خلال فترة تحقيقها.

* في اقتصاد السوق تؤدي الدولة وظائفها عبر سبيلين: الاول، كمؤسسة سياسية تنظم وتضبط النشاط الاقتصادي والاجتماعي العام في البلاد من خلال التشريع القانوني وتطبيقه، الثاني، كمؤسسة اقتصادية من خلال امتلاك قطاعات ومؤسسات وانشطة انتاجية وخدمية معينة تخضع لفعل قوانين السوق شأنها في ذلك شأن المؤسسات الخاصة.

عند النظر بشيء من التروي الى طروحات خصخصة الصناعة النفطية العراقية من زاوية مقدماتها وتبعات تبنيها في الواقع العراقي تتضح لي جملة معضلات أوجز الحديث عنها كما يلي:

أولاً: الدولة

لغاية اللحظة الراهنة لاتوجد مقدمات سياسية أو دستورية يمكن بموجبها الأفتراض بأن شكل ادارة الدولة المقبلة، المزمع تكوين مؤسساتها وجهازها الحكومي على ضوء تبني قيم جديدة، سيكون مماثلاً لشكل الإدارة الشمولية للدولة العراقية منذ عام ١٩٥٨، وخصوصاً الادارة البعثية المقبورة بعد عام ١٩٦٨. ان الاختلاف النوعي بين ماهية الدولة "المستقبلية" والدولة "السابقة" يكمن في نموذج الادارة ووظائفها وليس في ماهية مؤسسة الدولة ذاتها.

فإذا ما قُدرَ لفلسفة بناء الدولة الجديدة الانتصار على فلسفة ادارة الدولة البائدة (وهو ما نأمله) فليس بمستطاع الجهاز الحكومي الجديد امتلاك امكانيات وآليات تحويل سلعة النفط الى عقيدة والتالي الى قوة قمعية. ومن الانصاف القول بأن بقاء قطاع النفط في يد الدولة الفتية سيكون بمثابة اغراء كبير لها لتحويله الى اداة مؤثرة في تخطيط وتنفيذ سياساتها وتوجهاتها المختلفة وضمان شروط وجودها. بيد ان الطبيعة الديموقراطية المفترضة لمقدمات بناء مؤسسات دولة جديدة والوجود المفترض الفاعل لمنظمات المجتمع المدني ستكون بمثابة صمام أمان وواقٍ من الوقوع في شراك الاغراء هذا.

ثانياً: الأهداف

يبدو ان الاهداف المُراد التوصل اليها من خصخصة الصناعة النفطية، كما يستشف من محاضرة الدكتور الجلبي، ذات طبيعة خارجية (نسبة الى نشاط الصناعة ذاتها)، تتمثل في خدمة الدين الخارجي، تأمين الاستيراد، اعمار البلاد وليست اهدافا داخلية لهذه الصناعة تتناول تطويرها وزيادة كفاءتها الفنية والتنظيمية والاقتصادية. هذه الاطروحة تتنافى، في المضمون، مع التجربة العالمية في خصخصة المؤسسات والقطاعات الانتاجية والخدمية والتي تهدف الى نقل المؤسسة أو القطاع من دائرة مركزية الادارة الحكومية البيروقراطية لنشاطاتها الاقتصادية المختلفة الى دائرة فعل السوق المفتوحة، حيث الاثر الفاعل لمؤشرات المنافسة والابداع وتحمل مسؤولية المخاطر وظروف عدم التأكد وامكانيات تطبيق المنجزات الحديثة في الادارة وتكنولوجيا الانتاج وتنظيمه.

ان تحقيق اهداف خارجية للخصخصة في الامدين القصير والمتوسط يعني إبقاء نشاطات الصناعة النفطية خارج دائرة التفاعل العضوي مع بقية قطاعات الاقتصاد، وهي الحالة التي اتصفت بها الصناعة النفطية العراقية على الدوام. ومن المحتمل أيضاً ان يكون احد اهداف الخصخصة جذب الاستثمارات الخاصة (الوطنية أو الاجنبية) نحو الصناعة النفطية لتحديث وزيادة الانتاج فيها كهدف داخلي. بيد ان مقارنة المخاطر السياسية والاجتماعية والاقتصادية، المصاحبة لعملية نقل ملكية قطاع النفط، مع حجم الاستثمارات المطلوبة (خمسة مليارات دولار كما يشير الدكتور الجلبي، وفي حدود ملياري دولار في تقديرات اخرى) لعملية الاصلاح والتاهيل لأرجاع قوة الطاقة الانتاجية للقطاع الى وضعها الطبيعي لن تكون في صالح اتخاذ وتنفيذ ستراتيجيات تجاه أحد أهم ميادين الحياة في العراق المعاصر، ذلك ان الكلفة الاجتماعية لتبني وتحقيق أي ستراتيجية غير مدروسة بما فيه الكفاية في هذا الشأن ستكون أكبر مقارنة بالنتائج الآنية وعلى المدى المنظور لها.

ثالثاً: الملكية والادارة

للملكية وظائف محددة تنشأ مع الطابع الجوهري لهذه المؤسسة (كما هو حال مؤسسة الدولة، أو مؤسسة السوق أو غيرها من مكونات المنظومة المؤسساتية العامة في البلاد) وامتداداتها في السياسة والاقتصاد والاجتماع، وان نقل الملكية، عن طريق الخصخصة،

سيؤدي بالضرورة الى تحـولات كمية ونوعية في طبـيعة هذه الوظائف واهداف وسبـل تحقيقها..هذا التحول الهيكلي النزعة في وظائف الملكية سينشأ بسبب تغيير ستراتيجية ادارة نشاط موضوع الملكية وتغير المصالح السياسية والاقـتصادية والاجتماعية الدائرة حـول استغلال هذا الموضوع والاستحواذ على ثمار ادارة نشاطه والتصرف بها.

بيد ان المسألة الجوهرية في هذا السياق تتعلق بالمسار الذي ستصبح عليه علاقة الترابـط المتبادل مابين شكل الملكية ونمط ادارتها. في العراق اتسمت العلاقة دائماً مابين ملكية الدولة لقطاع النفط والنمط البيروقراطي الحـكومي في ادارة شـكل الملكية هذا بالانسـجام وعدم الانفصال الهيكلي والوظيفي، مما قاد في المحصلة النهائية الى نتائج كارثية على مسـتوى الانسان والاقتصاد الوطني والقطاع ذاته. وفي حالة نقـل الملكية من الدائرة البيروقـراطية للجهاز الاداري الحكومي الى دائرة القطاع الخاص،فسنجد انفسنا امام حتمية ظهور ظاهرة اقتصادية جديدة، يتلخص مضمونها بالانفصال البنيوي والوظيفي مابين شكل الملكية الجديد وبين مايلائمه من نمط تنظيمي واداري جديد. ان تبني آليات اقتصاد السوق في ادارة النشاط الاقتصادي العام في البلاد وما يلازم هذا الاقتصاد من طابع ديمقراطي في سـلوك مؤسسـة الدولة ورقابـة منظمات المجتمع المدني المفتوح وكذلك تعمق عمليات التخصص وتقسـيم العمل في الانتاج الاجتماعي تقود الى بـروز نزعات انفصال الملكية عن الادارة وحـتمية تجزئة حقوق الملكية الى مكونات مستقـلة وامكانية تجمعها من جديد في اشـكال وتراكيب متنوعة، تفترض، بدورها، ظهور انماط جديدة هي الاخرى لادارتها.

ان المثال الكلاسيكي لهذه الظاهرة هو الارتقـاء الكمي والنوعي لوظائف ادارة المؤسسـة الاقتصادية. ففي مجرى تعمق تقسـيم العمل الاجتماعي والتخصصي فإن الوظيفة الانتاجية لادارة الاعمال ستكون خاضعة بشـدة لوظيفة التطوير الاسـتراتيجي للمؤسسـة، وان هذه الوظيفة، بدورها، تقررها السياسات الاستثمارية والتسويقية والابتكارية وغيرها، مما يحتم، بالنتيجة، فصل هذه الوظائف عن الملكية، بمعنى آخر، ان تحقيق وظائف ادارة الاعمال سيتم خارج نطاق علاقات الملكية التقليدية.

ان اقتراح طرح صناعة النفط العراقية على شكل أسهم عامة في سوق مالية ماهو الا إقرار واقعي وقانوني بإنفصال الملكية عن ادارة الاعمال (Business Administration) وليس جدلاً اكاديمياً في موضوع النظرية الاقتصادية. لكن نقل ملكية قـطاع النفط بـهذه الصيغة التنظيمية/ القانونية (انشاء شركة أو شركات مساهمة، اتحـاد او اتحـادات مالية/ صناعية وغيرها في مجال صناعة النفط العراقية) سوف لن يجعل من المسـاهمين (حَمَلة الأسـهم) مالكين واقعيين للشركة أو الأتحاد، إذ ان هذه الصيغة المقترحة لادارة صناعة النفط ماهي في حقيقة الامر الا سبيل مؤسساتي لفصل الملكية عن الادارة. ولغرض ان يحقـق هذا السبـيل المؤسساتي أهدافه ووظائفه بأنتظام وكفاءة عالية يجب أن يُصار في البداية الى تهيئة ملائمة لشروط تأسيسه، بأعتباره جزءاً مكملاً لمنظومة مؤسساتية عامة، والى اختيار نموذج اداري ملائم للصيغة التنظيمية/ القانونية المقترحة في ظروف الواقع الحالي والمستقبلي للأقـتصاد العراقي.

رابعاً: الاقتصاد والادارة

من خلال استقراء مواقف القوى السياسية العراقية المعارضة سابقاً لنظام الحكم البائد، والاطلاع على السياسات المعلنة لقوى التحالف الدولي التي ساهمت في تحرير العراق، وكذلك على ضوء الاتجاه العام الدولي في مجال اشاعة الديموقراطية السياسية والاقتصادية في انظمة الحكم للبلدان المختلفة، يمكن القول، بإن العراق مقبل قريباً على انشاء دولة عصرية تتسم بديموقراطية مؤسساتها وباقتصادها الحر والمفتوح والتنوع الكبير في منظمات المجتمع المدني والتعددية السياسية واشاعة حقوق الانسان وحقوق الملكية والاستقرار السياسي (وخاصة سيادة مبدأ التداول السلمي للسلطةالسياسية) وغيرها من المظاهر المميزة لدولة متحضرة.

هذه المقدمات السياسية والدستورية والقانونية، وايضاً الرغبة الاكيدة في العيش الكريم المشترك في وطن واحد هو العراق لدى ابنائه جميعاً ماهي إلا شروطاً أساسية لاغنى عنها مطلقاً عند الحديث عن امكانية تغيير طابع ملكية قطاع النفط، بل يمكن الجزم هنا بأن هذه الشروط ماهي الا مكونات عضوية لنجاح التحولات الاقتصادية والاجتماعية المنشودة.

غير ان هذه المقدمات، والتي افترضت غير جازم بأمكانية تحققها في الامدين القصير والمتوسط لتبني وانجاح عملية خصخصة قطاع النفط العراقي من الناحية الفنية على الأقل، سوف لن تكون كافية إذا لم يؤخذ بنظر الاعتبار طابع الاقتصاد العراقي. وفي السياق ذاته تكتسب أهمية بالغة مسائل حرية وهدفية وعقلانية اختيار نموذج اقتصاد السوق ومايلائمه من نموذج اداري لقطاع النفط في الظروف الجديدة بمعزل عن ضغط العوامل المختلفة للفترة الانتقالية الحالية، والتي لا أحد يجزم،حسب اعتقادي، بطول فترتها الزمنية ولا النتائج التي ستتمخض عنها. سأتناول في هذا الصدد اربعة معضلات رئيسية:

1- من الناحية العملية لايوجد تراكم حقيقي وكاف لرأس المال خارج دائرة الصناعة النفطية يمكن توظيفه في هذه الصناعة من قبل القطاع الخاص الوطني في حال الشروع في خصخصتها بواسطة آليات السوق المعروفة. من ضمن اسباب هذه الظاهرة الاقتصادية يمكن الاشارة الى السياسات المتعمدة التي تبناها النظام المقبور في تدمير شروط نشاط ونمو طبقة وسطى كان يخشى منافستها السياسية المستقبلية له. ضف الى ذلك سياسات توزيع الثروة الوطنية التي تبناها النظام البائد والرامية الى خلق موالين سياسيين له من أفراد وعشائر وطوائف ومناطق جغرافية اختيرت بعناية فائقة ومقصودة، مما ادى الى تشوه شروط التطور الاقتصادي العام في البلاد وحرمان الغالبية العظمى من الشعب العراقي من التمتع المشروع بخيراته الوطنية واستبعادهم من المساهمة الفاعلة في الجهد الاقتصادي والسياسي العام لتطوير البلاد وازدهارها. في هذا السياق أجد نفسي مضطراً للأتفاق مع وجهة نظر الداعين الى ضرورة عزل بعض فئات الحزبيين البعثيين من الحياة السياسية في البلاد. واضيف اليها فكرة "العزل الاقتصادي" من دائرة صناعة النفط تحديداً (وفق قانون خاص) لكل من استفاد بدون وجه حق مشروع أو ساعد على اساءة استخدام الثروة الوطنية سواء كانوا أفراداً أم جماعات أم شركات.

لاتنطلق الدعوة الى العزل الاقتصادي من مبررات اخلاقية حسب (رغم فداحة الظلم

الاجتماعي و الاقتصادي الذي لحق الغالبية العظمى من الشعب العراقي ومناطقه) بل من مبررات اقتصادية على قدر كبير من الخطورة السياسية على النظام السياسي الذي نسعى لاعادة بناء قواعد وقيم متحضرة فيه. الخطورة السياسية تكمن في كون هؤلاء الاشخاص (وبعضهم عرب و أجانب) قد جمعوا ثروات طائلة سيحاولون استخدامها، إذا اتيحت لهم الفرصة للعودة الى السلطة (و/ او المساعدة في العودة الى السلطة) عبر ("نافذة") الصناعة النفطية بعد ان اخرجوا عنوة من (باب) دائرة الحكم. ان امكانية الاستحواذ على أسهم صناعة النفط وبالتالي ادارة نشاطها، عبر المنظومة المصرفية – المالية الجديدة، سيمنح هؤلاء قوة اقتصادية كبيرة ومهيمنة ستمكنهم، في ظروف الديموقراطية السياسية الجديدة، من اكتساب النفوذ السياسي و السعي الى العودة للحكم مجدداً، أو في أقل تقدير الى اثارة عدم الاستقرار في المنظومة السياسية الجديدة و الهشة قصد اعاقة الجهد العراقي نحو تطبيق الحياة السياسية في البلاد.

2- إن طرح صناعة النفط على شكل أسهم عامة في سوق مالية يتقضي وجود سوق فعلية لها بنيتها التحتية، هياكل و آليات عملها، قوانين ضابطة، وثقافة تنظيمية لمؤسساتها و غيرها من الشروط و المؤشرات اللازمة لمنظومة اقتصادية متكاملة.

من هنا تقتضي الضرورة العملية تكوين مثل هذه المنظومة، ومن ضمنها منظومة السوق المصرفية – المالية، قبل الشروع في عملية خصخصة مؤسسات القطاع الحكومي ومنها المؤسسات النفطية ولابد ان تصبح فعلياً آلية المنافسة الحرة والنزيهة هي المحور الذي يجب ان تستند اليه جميع الافعال الهادفة الى الاصلاح الاقتصادي، وان يكون للتدخل الحكومي في النشاط الاقتصادي، في ظروف ومجالات وشروط يضمنها قانون خاص، دوراً فاعلاً في تامين شروط اداء اقتصادي عام فعّال ومتوازن. وبما ان عملية تكوين سوق مصرفية – مالية لتداول الاسهم و السندات و الادخارات و الاستثمارات سترتبط عضوياً بغايات ومبادىء ونماذج بناء منظومة عامة للنشاط الاقتصادي في البلاد، فإن مقدمات بناء المنظومة الاخيرة ستقرره إيديولوجية الدولة الجديدة، السياسية و الاجتماعية، و الاقتصادية، من خلال المفاضلة مابين خيارات نماذج متنوعة لاقتصاد السوق، والتي هي بدورها، مشروطة بتنوع كبير في أشكال الملكية. ان الاختيار الصائب لنموذج اقتصاد السوق و المنظومة الاقتصادية العامة الملائمة له سيكون ضمانة أكيدة لاختيار نموذج فعّال وملائم لادارة شكل الملكية الجديدة لمؤسسات صناعة النفط.

3- يمكن تصنيف نماذج اقتصاد السوق الى اربعة فئات كبيرة. .الاولى، مبنية على قاعدة عمل آليات السوق الموجهة ذاتيا للأقتصاد (الولايات المتحدة الامريكية، بريطانيا، استراليا، وغيرها).

ويكون حجم ملكية الدولة فيها ضئيلاً، والتدخل الحكومي المباشر لضبط وتنظيم عمليات الانتاج و الادارة في حدوده الدنيا. الفئة الثانية، نموذج اقتصاد النزعة الاجتماعية (المانيا، فرنسا، البلدان الاسكندنافية وغيرها) حيث الدور الاجتماعي الكبير للدولة في توجيه الاقتصاد عبر آليات السوق، ووجود منظومة متطورة للضمان الاجتماعي، والحصة الكبيرة لملكية القطاع العام في الناتج القومي الاجمالي. لكن هذا النموذج يتصف أيضاً بعدم المرونة

بحكم سعي الدولة الدائم لإيجاد حلول وسط مقبولة بين مطالب رأس المال والعمل، اما الآليات التي عليها ان تتكيف مع أو تؤثر في تغيرات حالة الاسواق (Marketeering) فهي بعيدة عن الكمال. الفئة الثالثة، نموذج العامل الانساني (اليابان وغيرها)، حيث الدور الهام والكبير للأنسجام في علاقات التفاعل المتبادل والشراكة مابين رأس المال والعمل والنقابات والدولة. الفئة الرابعة والاخيرة، النموذج المطبّق في الكثير من البلدان النامية، والذي يشتمل على توليفات متنوعة من خصائص الفئات الثلاثة السابقة لأقتصاد السوق، حيث تكون فاعلية ادائه مشروطة بالتنوع الكبير في الهياكل الاقتصادية والسياسية لهذه البلدان.

4- نماذج اقتصاد السوق اعلاه تقابلها ادارة مساهمة (Corporate Governance)، ويمكن تصنيفها هي الاخرى الى مجموعتين كبيرتين. الاولى: نموذج التوجه السوقي (الولايات المتحدة الامريكية، بريطانيا، وغيرها) حيث الدور الحاسم لأسواق الاسهم والرأسمال في توجيه نشاط الشركات المساهمة وبالاخص مسائل الادارة وضمان مصالح المساهمين. المجموعة الثانية، نموذج التوجه الاجتماعي أو "المؤسّس" على علاقات (Relationships)" (بلدان اوروبا القارية، اليابان وغيرها)، حيث الدور الكبير للبنوك في توجيه نشاط الشركات المساهمة وضمان مصالح جميع من له علاقة بنشاط الشركة المساهمة مثل المساهمين، الدولة، جماعات العمل، اجهزة ادارة الشركة وغيرهم. هذا النموذج الاداري يتميز بديموقراطيته مقارنة بالنموذج الاول. وبما ان توصيف هذه النماذج الادارية يخرج عن نطاق الغرض المرسوم لهذه الدراسة، أود الاشارة فقط الى بعض الدلائل الاساسية التي يمكن استخدامها في مقارنة هذه النماذج واختيار النموذج الامثل والملائم لظروف العراق الجديدة:

- الاشخاص الفعالين (مساهمي الشركة وكل من له علاقة أو مصلحة في نشاطها).
- هيكل وحجم تملك أسهم الشركة المساهمة.
- أهمية المساهمين وكيفية توزيع الادوار فيما بينهم.
- اسلوب الرقابة على نشاط الشركة المساهمة.
- هيكل وصلاحيات ادارة (Management) الشركة المساهمة.
- آلية توفير الاموال الاستثمارية للشركة المساهمة لأغراض التطوير.
- مستوى جاهزية القواعد القانونية المنظمة لانشاء وعمل المؤسسات المساهمة في شكل جمعية مساهمة (Joint Stock Company) أو شركة مساهمة (Corporation).
- آلية تامين الشفافية والانفتاح في نشاط الشركة المساهمة.
- آلية ضمان مصالح المساهمين، وبالأخص حمَلة الاسهم الصغار.

خامساً: النفط

على ستراتيجية الخصخصة الأخذ بنظر الاعتبار واقع التفاوت الكبير في المضامين السياسية والاقتصادية والاجتماعية لوظائف ومؤشرات وفعّاليات الصناعة النفطية المتنوعة:

1- من الناحية العملية يمكن خصخصة نشاطات مصافي التكرير ومصانع

البتروكيمياويات ومحطات تعبئة الوقود، كما هو الشأن بالنسبة لخصخصة مؤسسات القطاع العام خارج نطاق الصناعة النفطية، بدون تكلفة سياسية واجتماعية كبيرتين (رغم كثافة رأسمال هذه الانشطة) بعد استكمال انشاء منظومة اقتصادية جديدة تسودها المنافسة النزيهة واحترام حقوق الملكية الخاصة وكما ان تدخل الحكومة في نشاط هذه الدائرة من الاقتصاد الوطني لايخل بآليات عمل اقتصاد السوق ويكون مبرراً اقتصادياً. ان الكفاءة الاقتصادية لنشاط فروع الصناعة النفطية المشار اليها أعلاه ستكون خاضعة لمستوى واتجاهات التغييرات الهيكلية في الاقتصاد وتاثر تطوره ودرجة انفتاحه على السوق الدولية في التجهيز الرأسمالي والتكنولوجي واستقطاب الاستثمارات ومؤشرات تصدير المنتجات.

2- لايمكن لعملية خصخصة نشاط استخراج النفط (خلال وقت نقل الملكية وبعد إنجاز هذه المهمة) ان تتحقق بدون دفع تكاليف سياسية واجتماعية باهظة الثمن نظراً للمكانة الخاصة التي يشغلها النشاط الاستخراجي والتصديري للنفط في الاقتصاد العراقي وفي التوجهات السياسية والاجتماعية للقوى والجماعات السياسية العراقية وفي الوعي الجمعي للشعب العراقي.

إن المسألة النفطية في وعي العراقيين تتمحور حول قطبية ثنائية صارمة: فإما ان يكون النفط نقمة وإما ان يكون نعمة. في الحالة الاولى، يمكن للنفط ان يكون مصدراً للنار والحرمان والافقار والتنكيل والابادة وعدم اليقين بالمستقبل، وفي الحالة الثانية، يمكن له ان يكون مصدراً للنور والرفاهية والتطوير والحياة الكريمة واليقين بقادم الايام. وفي اعتقادي ان خصخصة النشاطات الاستخراجية والتصديرية للنفط ستكون موضوع نقاش سياسي جماهيري ساخن وعلى أوسع نطاق، وهو ما أتمنى ان يكون نقاشاً مسؤولاً في إطار حر ديموقراطي شامل ومفتوح، لغرض الوصول الى خيارات مقبولة ودائمة ومستقرة في هذا الشأن البالغ الحساسية.

3- نظراً للوظيفة الانتاجية الفنية البالغة الاهمية لنشاطات نقل النفط بالانابيب وموانيء تحميل النفط وتوزعها الجغرافي الراهن، فإن خصخصة هذه الفعاليات، بغض النظر عن مسألة خصخصة استخراج النفط أم لا، ستكون ذات نتائج فنية واقتصادية باهضة الثمن ايضاً. ان تنوع المنافذ الحالية لنقل وتصدير النفط والامكانيات الفنية لاحلال بعضها محل البعض الاخر (امكانية تغيير اتجاهات النقل والتصدير التي يوفرها الخط الاستراتيجي لنقل النفط) ستكون في حال الخصخصة معرقلة للنشاط الانتاجي الاعتيادي ومثار نزاعات دائمة مابين الاشخاص الاقتصاديين في نشاطات الاستخراج وفي مناطقه المختلفة وداخل كل نشاط على انفراد من هنا أرى ضرورة بقاء ملكية هذه الفعاليات وادارتها في يد الدولة الفنية لفترة زمنية كافية على ان ينظم ذلك بقانون خاص.

4- تكتسب ستراتيجية الدولة حول اشكال وكيفيات استغلال الاحتياطيات النفطية في باطن الأرض صفات الاستثنائية والتعقيد السياسي والفني:

أ- الاحتياطيات النفطية المتاحة والكامنة في العراق لاتتصف بصفة أصول ثابتة (Fixed Assets)او متداولة حتى يمكن تغيير شكل ملكيتها. انها في المحصلة النهائية قاعدة مادية

لتطوير الاقتصاد العراقي، وان كيفيات استغلالها سوف تساعد في تكوين شروط التطوير المبتغاة أو في تكوين شروط تكرّس حرمان وتخلف الشعب العراقي. ان مبررات إصدار قانون رقم ٨٠ لعام ١٩٦١ مازالت ماثلة للعيان وطرية في الذاكرة العراقية لمعالجة آثار شكل وكيفية تملك واستغلال الاحتياطيات النفطية من قبل شركات النفط الاجنبية "الخاصة" العاملة آنذاك في العراق. لقد استخدمت الشركات النفطية الاجنبية الاحتياطيات بمثابة أداة اقتصادية لتحقيق أغراض اقتصادية في الضغط على الدولة العراقية لتغيير مضمون ومسار سياساتها العامة، وفي نفس الوقت، قامت دولة النظام البائد هي الاخرى بأستخدام ورقة الاحتياطيات النفطية كأداة لتحقيق أهداف سياسية من خلال منح عقود امتياز استغلالها لشركات نفطية لدول معينة.

ب- بسبب انعدام "العدالة" الجغرافية لتوزع المكامن النفطية بين مناطق البلاد المختلفة، فمن الحكمة السياسية والاقتصادية والاجتماعية ايجاد وتبني ستراتيجية عامة تضمن مشاركة جميع مناطق العراق في الاستغلال العقلاني والهادف لهذه الثروة الطبيعية. وفي الوقت الحاضر ليس هناك من خيار آخر، أفضل من مؤسسة الدولة الجديدة وعبر انشاء منظومة اقتصادية جديدة لتدارك "خطأ" الطبيعة لكي ينعم كل عراقي بهذه الخيرات.

ضف الى ذلك، ان مسألة عدم تبلور فلسفة ادارة الدولة الجديدة وشكل الادارة، المركزي أو اللامركزي تضيف تعقيدات اخرى الى موضوع سيادية التصرف بالاحتياطيات.

ج- من الناحية الفنية والاقتصادية فإن خصخصة النشاط الاستخراجي النفطي لاتعني بالضرورة خصخصة الاحتياطيات النفطية المتاحة والعكس صحيح تماماً. بمعنى آخر، ان الهدف من الاستثمار الخاص في اكتشاف وتهيأة احتياطيات نفطية جديدة وتطوير حقول نفط جديدة (وهو مايتطلب استثمارات رأسمالية ضخمة) هو تكوين الشروط المادية للنشاط الانتاجي اللاحق، أي الاستخراجي ذو التكاليف التشغيلية الضئيلة الذي يعني بالأساس التملك الخاص للأوصول الثابتة لنشاط الاستخراج أيضاً. صفة التشابك الانتاجي هذه لنشاطات الاستكشاف والاستخراج يمكن فك ارتباطها الوظيفي الاداري فقط في حالة بقاء الاحتياطيات النفطية المتاحة حالياً في يد الدولة (ومقدارها يزبو على ١٠٠ مليار برميل تكفي ١٠٠ سنة بمستويات استخراج بداية الثمانينات من القرن الماضي التي كانت عند مستوياتها العليا) ويصار الى خصخصة النشاط الاستخراجي فقط. وفي السياق ذاته يمكن اقتراح خصخصة الاحتياطيات النفطية الكامنة، حيث يتوفر العراق على امكانيات كبيرة تؤهله ليحتلّ مركز الصدارة الاول في حجم الاحتياطي النفطي القابل للأستخراج في العالم.

د. وبما ان العراق عضوٌ مؤسسٌ لمنظمة البلدان المصدرة للنفط (أوبك) فإن تغير شكل ملكيته واحتياطياته النفطية واستخراجها سيعني تحولاً هيكلياً جوهرياً في الإطار المنظم لسياسات هذه المنظمة في حجوم الانتاج والاسعار وما سيترتب على ذلك من إنعكاسات ونتائج مؤثرة في السوق النفطية الدولية.

إن التملك الخاص للاحتياطيات والاستخراج في آن واحد سيقود الى بروز وهيمنة نزعة سلوكية في الادارة تمكن الشركة (او الشركات) من تحقيق هدف الاسترداد السريع لرأس

المال المستثمر والحصول على هامش ربح تسمح بـه متغيرات السـوق النفطية الدولية في الظروف الجديدة. ومن المحتمل جدا أن تغيب مصلحة العراق في خضم التلاحق السريع لهذه الانعكاسات والنتائج ومايترتب عنها من آثار سلبية قد تهدد استقراره السياسي والاقتصادي.

وفي كل الاحوال فإن خيارات ملكية الاحتياطيات النفطية المتاحة والكامنة يقررها الشعب العراقي. وبهذا الصدد اقترح ان يُصار الى تقرير شكل ملكية الاحتياطيات النفطية والغازية والمبادىء العامة لاستغلالها وادارتها في دستور البلاد القادم على ان تترك قضايا ادارة وملكية الاستخراج والنقل بالانابيب وموانيء تحميل النفط لقوانين خاصة بهذا الشأن.

سادساً: النظرية والتجربة

هل تستند اطروحة خصخصة صناعة النفط العراقية على مبررات نظرية؟! وهل هذه المبررات كافية للاقناع وصالحة للتطبيق المثمر؟ وهل هناك تجربة عالمية في هذا المجال يمكن الاسترشاد بها في تأطير مضمون واتجاهات الحوار حول هذه الاطروحة؟

1- لقد جرى نقل ملكية الاف مؤسسات القطاع العام الى القطاع الخاص في الكثير من بلدان العالم المتطورة اقتصادياً أو النامية في الربع الاخير من القرن الماضي. اسباب هذه النزعة العامة كثيرة، تبتدأ من محاولات تقليص أو الغاء نفوذ سلطة الجهاز الحكومي البيروقراطي في ادارةهذه المؤسسات وتنتهي بمحاولات اقامة نموذج "الرأسمالية الشعبية" في بعض البلدان. غير ان الاسباب الرئيسية لهذا التوجه العالمي، الى جانب اسباب سياسية، هي بدون شك أسباباً اقتصادية عامة منها: ضرورات زيادة كفاءةادارة نشاط هذه المؤسسات وتقليل عبء كلفة ادارتها على ميزانية الدولة العامة والرغبة في دخولها المثمر علاقات العولمة الاقتصادية والمالية والتقنية والمعلوماتية. وفي نفس الوقت، فإن غايات نزعة خصخصة مؤسسات القطاع العام وتقييم نتائجها هي مثار جدل وخلاف لدى الباحثين. ومن الممكن إيراد الموضوعات التالية لتأطير الحوار حول مبررات خصخصة الصناعة النفطية العراقية:

أ. الموضوعة الاجتماعية: ترى في مؤسسة القطاع العام قدرة أكبر على علاج نواقص وسلبيات السوق مقارنة بمؤسسة القطاع الخاص خلال مرحلة الانتقال نحو نموذج اقتصاد السوق ذلك ان حيثيات النشاط الاقتصادي والاداري للمؤسسة الاولى تاخذ في نظر الاعتبار تكاليف الجانب الاجتماعي لذلك النشاط عبر أداء وظائف معينة مثل سياسات التشغيل والاجور والاسعار وغيرها، حتى وقت اكتمال اجراءات تكوين منظومة اقتصادية سوقية ملائمة. في هذا السياق، فإن على عملية الخصخصة إدراج تكاليف البعد الاجتماعي المتباين في الستراتيجيات المقترحة لاشكال ملكية الفروع المختلفة لصناعة النفط الحالية أو المستقبلية (الاحتياطيات المتاحة والكامنة، الاستخراج، النقل، المصافي والصناعة البتروكيمياوية وغيرها).

ب. موضوعة النفوذ السياسي: ترى في المؤسسة الخاصة نشاطاً اقتصادياً وادارياً أقل عرضة للتاثيرات السياسية للدولة، أو لمصالح جماعات الضغط السياسي في ظروف إكتمال

آليات عمل إقتصاد السوق. قد يكون هذا الأمر صحيحا، ولكن بالمقابل فإن القوة الاقتصادية الكاسحة التي يتوفر عليها قطاع النفط العراقي ستمكن الرأسمال الخاص النفطي الكبير من إكتساب النفوذ السياسي الكافي وبالتالي التاثير في المسارات العامة لسياسات الدولة ومواقف القوى السياسية في البلاد. من هنا تقتضي الضرورة السياسية القصوى إيجاد منظومة مؤسساتية عامة ونموذج ملائم لادارة الرأسمال الخاص الكبير في قطاع النفط تأخذ في نظر الاعتبار معضلات ومبررات وأهداف تكوين دولة عراقية جديدة وتلتزم بها. وفي هذا السياق يمكن الافتراض بإن طبيعة علاقة الدولة الجديدة بقطاع الأعمال (الرأسمال الخاص الوطني والأجنبي) ستاخذ أحد الاشكال الثلاثة التالية:

الأول، قطاع الاعمال منفصل عن الدولة (وهو نموذج صحيح للعلاقة ولكنه مثالي لايمكن الوصول اليه دائما)، الثاني هيمنة قطاع الاعمال على الدولة واستغلالها بقوة، الثالث ارتباط قطاع الاعمال والدولة ضمن هيمنة الاخيرة. ومن الصعب التكهن الآن بما سيؤول اليه في نهاية المطاف شكل وطبيعة العلاقة بين الطرفين بسبب غموض الموقف الحالي حول المقدمات الايديولوجية والسياسية لبناء الدولة الجديدة.

ج. موضوعة الحوافز: ترى في شخص المالك الخاص قدرة كبيرة على امتلاك حوافز قوية لكسب الارباح وتعظيمها مقارنة بمسيّري (Managers) مؤسسات القطاع العام المكلفين بسهام وصلاحيات الادارة من قبل الدولة،، وان المالك الخاص يتحمل مسؤولية قراراته الادارية، وانه سيدفع "غرامة" باهضة الثمن في حال اخفاقه الاداري قد تصل حد الافلاس،مما لايتوفر لدى مسيّري ملكية الدولة. هذه الموضوعة تتجاهل واقع كون الدولة في مستطاعها، إذا امتلكت حزمة أسهم كبيرة أو مسيطرة أو غيرها في راسمال المؤسسات التي جرت خصخصتها جزئيا (مثلاً امتلاك الدولة السهم الذهبي Golden Share ضمن حزمة أسهمها في رأسمال الشركة)، تستطيع ممارسة الرقابة على أداء وسلوك مسيّري ملكيتها، مقارنة بعدم استطاعة حَمَلة أسهم الشركات المساهمة الخاصة ذات الملكية المشتتة من فعل ذلك. وهذا المبرر، الذي يتعلق بهيكلة ملكية رأس المال، يمكن استخدامه في المراحل الاولى من عملية خصخصة جزئية لصناعة النفط.

د. موضوعة الرأسمال البشري في الادارة ترى بأن اختيار طاقم ادارة المؤسسات الخاصة يستند الى معايير الكفاءة والتأهيل المهني، بينما اختيار مؤسسات القطاع العام ينطلق من معايير المحاباة السياسية والقرب من أصحاب القرار السياسي وغيرها. ان معضلة تأهيل واختيار كادر اداري كفء ومسؤول ستكون احدى معضلات ادارة الصناعة النفطية العراقية في الظروف الجديدة، وخصوصاً في مستويات الادارة العليا (Top-management). كان النظام البائد يتبنى سياسة تشغيلية تمييزية خاصة توفر له سيطرة مطلقة على جميع مفاصل العمل الاداري في الصناعةالنفطية تنافي المعايير المعروفة في اختيار الكادر الاداري وفي السياق ذاته يمكن الافتراض بأن سياسات المالكين الجدد لصناعة النفط بعد الخصخصة في مجال التشغيل الاداري قد تستند الى ذات المعايير السابقة قصد تحقيق مصالح اقتصادية وسياسية تستهدف الاثراء السريع و/أو التأثير في مسار الحياة السياسية للبلاد.

هـ. وأخيراً موضوعة المنافسة، التي ترى في عملية الخصخصة الأطار الرحب لانشاء وتوفير شروط منافسة فاعلة سترغم جميع المؤسسات الاقتصادية، بغض النظر عن شكل ملكيتها على العمل بفاعلية ومسؤولية كبيرتين. هذا صحيح تماما، ولكن إشكالية خصخصة الصناعة النفطية (وبالأخص استخراج وتصدير النفط الخام) لاتعني فقط تغيير شكل الملكية، وانما، بدرجة كبيرة، صياغة هيكلية جديدة لادارة مؤسسات هذه الصناعة تساهم في تكوين المنافسة وتستفيد من مزاياها الايجابية الكثيرة. ولغرض تحقيق هذا الهدف المؤسساتي، فأن صياغة هيكلية جديدة لادارة الصناعة النفطية تتطلب المفاضلة مابين خيارات كثيرة لنماذج متنوعة منها: أولاً، الأشكال القانونية المنظمة لتأسيس وعمل الشركات المساهمة، وثانياً، الاشكال التنظيمية لتكامل نشاط الشركات المساهمة في السوق عبر المنافسة. ان الاشكال التنظيمية للتكامل الاقتصادي والانتاجي والتقني في نشاط المؤسسات المساهمة تؤطر الاشكال القانونية المنظمة لتاسيسها وعملها (تكامل افقي أم عمودي) وترسم حدود وانظمة علاقات التفاعل المتبادلة فيما بينها (علاقات الملكية، التزامات التعاقد، نظم المساهمة، قواعد اعادة التنظيم، صلاحيات ومسؤوليات الادارة وغيرها). هذه الخيارات القانونية والتنظيمية وسبل تحقيقها الاجرائية سيكون لها جميعاً آثاراً كبيرة في تكوين بيئة مؤسساتية متكاملة ونزيهة لعمل آليات المنافسة السوقية.

2. تباين وجهات النظر والتقييمات حول الموضوعات النظرية المبررة لستراتيجية خصخصة مؤسسات القطاع العام التي تمت الاشارة الى أهمها أعلاه.

هذا الامر طبيعي ومتوقع بسبب اختلاف الرؤى الايديولوجية والسياسية وغيرها لدى القوى الاجتماعية المختلفة والمهتمين بدراسة هذه الظاهرة. ضف الى ذلك اختلاف منهجية تقييم كفاءة أداء النشاط الاقتصادي الجديد في الظروف الجديدة، وخاصة مسألة فرز تأثير عملية تغيير شكل الملكية من اجمالي تأثير العوامل الاخرى المميزة لمرحلة الانتقال الى اقتصاد السوق أو تحسين آليات عمل قوى السوق. على سبيل المثال: تباينت تقييمات التجربة الروسية في خصخصة مؤسسات القطاع العام، منها من يرى ان تغيير شكل الملكية (خارج دائرة الصناعة النفطية) قد اثرت ايجابياً في تأسيس هيكلية جديدة للأقتصاد الروسي وزيادة انتاجيته بصفة عامة، وتفوق المؤسسات الخاصة على نظيراتها الحكومية في أهم المؤشرات الاقتصادية، وان الفروقات النوعية والكمية فيما بينهما كانت كبيرة في مؤشرات كفاءة الانتاج ومتواضعة في مؤشرات الاستثمار والتحديث واستخدام تكنولوجيا متطورة في الانتاج والادارة.

اما تقديرات البنك الدولي لعام ١٩٩٦، مع الاشارة الى عدم حصول تغييرات ذات شأن حتى الآن فقد كانت مغايرة: ضعف تأثير تغير شكل الملكية على الكثير من مؤشرات نشاط المؤسسات الخاصة مثل حجم الانتاج والاجور والعمالة.

اما في ميدان خصخصة الصناعة النفطية الروسية (باستثناء شبكة النقل بالانابيب حيث مازالت ملكيتها حكومية لغاية الان)، والتي جرت هي الاخرى خارج نطاق السوق في مراحلها الاولى، فقد ادت الى النتائج التالية: ظهور احتكار القلة (حوالي ثلاثة شركات استخراج كبرى خاصة وشركة غاز واحدة تمتلك الحكومة ٣٥% من أسهمها)، الانخفاض

الحاد في حجم الانتاج، هبوط الاستثمارات، هروب الرأسمال الى خارج البلاد، عدم المقدرة على جذب استثمارات وطنية أو أجنبية كبيرة، مظاهر عدم كفاءة الادارة ونزاهتها، صراع المصالح الحاد والاستخدام المفرط للنفوذ السياسي وغيرها.

3. ان دراسة التجربة الروسية (وغيرها من التجارب العالمية) يمكن لها ان تُفيد في تلافي الوقوع في شراك أخطاء التسرع وعدم النظر بشمولية وموضوعية وبأبعاد مستقبلية لأوضاع الصناعة النفطية ومكانتها المتميزة في الاقتصاد العراقي عند تبني ستراتيجية خصخصة نشاطها. هذه الدراسة ستكشف عن وجود سمات مشتركة ومتشابهة بين التجربة الروسية التي حصلت أوائل التسعينات من القرن الماضي ومازالت تداعياتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية ماثلة للعيان لغاية اللحظة الراهنة وبين مايُراد تخطيطه وتنفيذه للصناعة النفطية العراقية: النظام السياسي الشمولي السابق، مركزية التخطيط الاقتصادي لنشاط الصناعة النفطية، مكانتها الكبيرة في الاقتصاد الوطني، غلبة الاتجاه التصديري في نشاطها ضعف ارتباطاتها الانتاجية بالقطاعات الاخرى للأقتصاد، التوزع الجغرافي "غير العادل" لأنشطتها المختلفة، كثافة رأسمالها وغيرها من المؤشرات.

وفي نفس الوقت توجد سمات اخرى تتباين فيها الصناعة النفطية العراقية عن نظيرتها الروسية: التسيّس الكامل لنشاط الصناعة النفطية العراقية، الاستقطاب السياسي والاجتماعي الكبير حولها، التوزيع غير العادل والاستخدام السيء لنتائج نشاطها، احتكار ادارتها وفق اعتبارات لاتمت للمهنية والكفاءة بصلة، عدم شفافية البيانات عن نشاطها وغيرها.

ان التفكير الجدي والمسؤول في رسم ستراتيجية خصخصة الصناعة النفطية العراقية، يجب، في تصوري أن ينصبّ بالاساس على حل اشكاليات احتمال ظهور تناقضات سياسية واقتصادية واجتماعية حادة بين اهداف هذه الستراتيجية والنتائج المتوقعة منها من خلال اثارة النقاش الاكاديمي والجماهيري حول المقدمات الرئيسية التالية (و/أو غيرها) قبل الشروع بأتخاذ خيار تغيير شكل ملكية هذه الصناعة:

– ضرورة تكوين منظومات مؤسساتية، سياسية واقتصادية وقانونية، ملائمة في البلاد.

– ضرورة تكوين منظومة مؤسساتية ملائمة لادارة نشاط صناعة النفط.

– التحديد الدقيق والمسؤول لمواضيع وأولويات نقل ملكية صناعة النفط.

– النقل العادل لمواضيع الملكية وعما إذا كان هذا النقل مجاناً أو طبقاً لآليات السوق.

– الأخذ بنظر الاعتبار فداحة الظلم الاجتماعي الذي عانت منه طويلاً بعض مناطق وفئات الشعب العراقي.

– ضرورة تغليب المصالح الوطنية تجاه الاجنبية وبما لايخل بمعايير الكفاءة الاقتصادية والادارية.

– التوفيق العقلاني الهادف بين حاجات التطور والنمو المستقبلية للاقتصاد وبين الرغبة المشروعة للشعب العراقي في إزالة آثار الفقر والتخلف بأسرع وقت ممكن.

سابعاً المهام والمشاكل

سيكون مفيداً الاشارة الى بعض معضلات تحقيق عملية خصخصة صناعة النفط العراقية في المرحلة الانتقالية التي يشهدها العراق الان على كل المستويات عبر تأطير الحوار حول المحاور الرئيسية التالية لأختيار وتنفيذ ستراتيجية عامة بهذا الشأن

اولاً:اولويات الخصخصة طبقاً للعائدية القومية لرأس المال ولطبيعة النشاط الانتاجي النفطي:

1. العائدية القومية لرأس المال:

– رأس مال الدولة (خيار الرفض المطلق للخصخصة).

– رأس المال الخاص (الوطني) حصراً.

– مشاركة رأس مال الدولة والخاص والوطني.

– رأس المال الاجنبي حصراً.

– صيغة المشاركة بين الرساميل الثلاثة أعلاه.

– صيغة المشاركة بين الرساميل الخاصة والوطنية والاجنبية بدون مشاركة الدولة.

2. مرحلة النشاط الانتاجي:

– الصناعة النفطية بكاملها (الاحتياطات النفطية المتاحة والكامنة زائداً الاصول الانتاجية الثابتة لجميع المراحل الانتاجية اللاحقة).

– الصناعة النفطية بأستثناء احتياطيات النفط المتاحة.

– الصناعة النفطية بأستثناء احتياطيات النفط المتاحة والنقل بالانابيب وموانيء التحميل الوطنية.

– الصناعة النفطية بأستثناء النقل بالانابيب وموانيء التحميل الوطنية.

– صناعات تكرير النفط والبتروكيمياويات ومحطات تعبئة الوقود فقط.

3. النشاطات الانتاجية الحالية والجديدة (المستقبلية) والعائدية القومية لرأس المال.

– الحالية والجديدة تبقى ملكاً للدولة وتحت ادارتها (خيار الرفض المطلق للخصخصة).

– الحالية تبقى ملكيتها للدولة على ان يصار الى خصخصة الجديدة (الرأسمال الخاص الوطني).

– الحالية تبقى ملكيتها للدولة على ان يصار الى خصخصة الجديدة (الرأسمال الاجنبي).

– الحالية تبقى ملكيتها للدولة والجديدة مشاركة الدولة مع الرأسمال الاجنبي.

– الحالية تبقى ملكيتها للدولة والجديدة يتشارك بها الرأسمال الخاص الوطني والاجنبي.

–الحالية تبقى ملكيتها للدولة والجديدة تشارك بها رساميل الدولة والخاص الوطني والاجنبي.

– الحالية والجديدة تتشارك بها رساميل الدولة والخاص الوطني والاجنبي.

– الحالية والجديدة تتشارك بها الرساميل الخاصة الوطنية والاجنبية.

– الحالية والجديدة حصراً للرأسمال الخاص الوطني.

– الحالية و الجديدة حصراً للرأسمال الاجنبي.

ثانيا: تنظيم و ادارة نشاط مؤسسات القطاع النفطي و عملية خصخصتها:

1 – تنظيم نشاط المؤسسات و عملية الخصخصة:

– انشاء وزارة نفط و /أو مجلس وطني أعلى لشؤون النفط (وفق قانون خاص ينظم العلاقة بينهما) للرقابة الادارية و الفنية و المالية و ابرام العقود و غيرها من المهام.

–إنشاء شركة أو شركات نفط وطنية عامة (حكومية) حسب الانشطة و المناطق الانتاجية تُناط بها مهام ادارة الانتاج النفطي.

– انشاء شركة او ، شركات نفط وطنية مساهمة عامة (حكومية) مع امكانيات الاخيرة في تاسيس فروع لها أو ، شركات مساهمة عامة مرتبطة بها تنظيميا وحسب أوجه النشاط و المناطق الانتاجية.

– انشاء عدة شركات نفط مساهمة خاصة مع امكانية الاخيرة في تنظيم تكاملها الانتاجي و الاداري و المالي عبر تكوين اتحادات أو مجموعات مالية – صناعية طبقاً لقوانين خاصة.

– امكانية تبني صيغة عقد ادارة خاص مع احدى او مجموعة شركات خاصة وطنية أو أجنبية متخصصة حسب الوظائف و الانشطة و المناطق الانتاجية.

2. ادارة نشاط المؤسسات و عملية الخصخصة:

– تهيئة القاعدة القانونية لنشاط المؤسسات النفطية.

–تهيئة القاعدة القانونية لادارة عملية خصخصة الصناعة النفطية.

– اختيار ملائم لأحد (او توليفة من) نماذج ادارة الشركة المساهمة و اتحاد الشركات المساهمة.

– تأهيل و اختيار الكادر الاداري المتخصص.

ثالثا: مشاكل مرتبطة بالاطار العام لستراتيجية خصخصة الصناعة النفطية:

1 – طبيعة المنظومات السياسية و الاقتصادية و القانونية العامة (القديمة و الجديدة) في البلاد.

2– الخصائص الاقتصادية و الفنية لصناعة النفط.

3– الادارة الحديثة للشركات النفطية المساهمة في الظروف الجديدة.

4– العولمة المتسارعة للنشاطات الاقتصادية المختلفة.

5– التركة الاجتماعية و الاقتصادية الشائنة لسياسات النظام السابق في مجال النفط.

......و على الرغم من خطورة و تعقيد وشمولية وحساسية الحديث عن معضلات خيار ستراتيجية تغيير شكل ملكية القطاع الانتاجي الرائد في السياسة و الاقتصاد، فأنني متفائل بقدرة العقل السياسي و الاكاديمي العراقي على البحث الدؤوب عن خيارات صائبة وحلول ناجعة تضع شعب العراق على الطريق الصحيح في الاستمتاع العقلاني المسؤول بثمار حريته وثرواته.



هذا النص كتبه أدوار سعيد قبل رحيله في الخامس والعشرين من أيلول الماضي.. وإننا إذ نُعيد نشره هنا، فذلك لأنه توفر على خلاصة ميسرة لأهتماماته المتنوعة وموقفه الانساني من القضايا الشائكة والمتداخلة لعالمنا المعاصر. جمع صاحب "الاستشراق" في سيرته الفكرية المعرفة الموسوعية مع النقد الجذري للخطاب الاستعماري. الالتزام الاخلاقي الصارم مع ذاكرة الفلسطيني المنفي خارج المكان، والرؤية العالمية للتاريخ مع حساسية عالية للخصوصيات والتمايزات الثقافية. ذلك ما أهل أدوار سعيد لأن يكون من صنف المفكرين النادرين في عصرنا، وما جعل من غيابه خسارة حقيقية يصعب تعويضها.

تمهيد جديد لكتاب الاستشراق

أدوار سعيد

قبل تسع سنوات ألحقت بكتابي "الاستشراق" خاتمة جديدة حاولت فيها توضيح ما قلته وما لم اقله في ذلك العمل، مركزاً ليس فقط على المناقشات الكثيرة التي آثارها منذ صدوره في ١٩٧٨، بل أيضا كيف أن هذا العمل الذي يدور على تصورات المستشرقين لـ"الشرق" آثار تفسيرات وتصورات متزايدة الشطط للموضوع. لكنني اليوم لا أجد في هذا مدعاة للغضب، بقدر ما أجد بعض الآسف للمفارقة الساخرة التي ينطوي عليها الموقف. السبب ربما يتعلق بتقدم السن، وأيضا فقداني في الآونة الأخيرة صديقي ومرشدي على صعيدي الثقافة والسياسة، إقبال احمد وإبراهيم أبو لغد، والحزن تبعا لذلك، ولكن أيضا التصبر والتصميم على الاستمرار.

في مذكراتي "خارج المكان" (١٩٩٩) وصفت نشأتي في عوالم غريبة في تناقضها، مقدما لنفسي وقرائي صورة مفصلة عن تكوين شخصيتي في فلسطين ومصر ولبنان، لكنها كانت سيرة شخصية تركت جانبا السنين الطويلة من حياتي السياسية بدءاً من ١٩٦٧.

أما "الاستشراق" فقد كان وثيق الارتباط بتاريخنا العاصف في العقود الأخيرة، الذي يبدو انه يمتد إلى ما لا نهاية. وتبدأ الصفحة الأولى من الكتاب بوصف للحرب الأهلية اللبنانية في ١٩٧٥ التي تواصلت إلى ١٩٩٠، لكن العنف وسفك الدماء يستمران إلى هذه اللحظة. ثم شهدنا فشل عملية أوسلو وانطلاق الانتفاضة الثانية، وعذاب الفلسطينيين في الضفة الغربية وغزة واعادة احتلالهما من قبل إسرائيل. ثم ظاهرة التفجيرات الانتحارية والخراب الرهيب الذي أحدثته، وصولا إلى أحداث ١١ أيلول (سبتمبر) ٢٠٠١ البشعة، والحرب على أفغانستان والعراق بنتيجتها. وها أنا اكتب هذه السطور مع استمرار الاحتلال الإمبريالي اللا شرعي للعراق من قبل الولايات المتحدة وبريطانيا، الذي قد يتناهى إلى كوارث تصعب على التصور.

أن هناك من يرى في كل هذا مظاهر صدام دائم لاحل له بين الحضارات. لكنني لا اعتقد ذلك.

كان بودي القول أن في الولايات المتحدة ألان فهما افضل للشرق الأوسط والعرب والمسلمين، لكن المؤسف أن الأمر ليس كذلك. الوضع في أوروبا يبدو افضل، ولاسباب عديدة.

ألا أن الموقف في أميركا يستمر على التحجر وتزايد انتشـــار التعميمات المهنية والكليشـــهات الانتصارية ضد الآخر، سواء كان الأجنبي عموما أو المعارض الداخلي. ولعل السماح بـــنهب وإحراق المتاحف والمكتبات في بغداد كان "المعادل الموضوعي" الأوضح لهذه الروحية. أن ما لا يستطيع قادتنا فهمه، كما يبدو، هو استحالة إزالة التاريخ أو مسحه مثل مسح السبـــورة لكي نستطيع بعد ذلك تسطير المستقبل الذي نريد عليها وفرض أنماط حياتنا على بشر نعتبرهم اقل قيمة. ونسمع دوما من كبار المسؤولين في واشنطن وغيرها عن تغيير خريطة الشرق الأوسط، وكأن المجتمعات القديمة هناك وكل ما فيها من البشر مجرد قـــطع من الحـــجارة يمكن رصفها بهذا الشكل أو ذاك حسب ما نريد. لقد حصل هذا أحيانا كثيرة لما يسمونه "الشـــرق" ذلك الكيان المصطنع فكريا في شكل شبه أسطوري، الذي أعاد الغرب تشكيله مرارا كما يحلو له منذ غزو نابليون لمصر أواخر القـــرن الثامن عشـــر. وتم كل مرة في تلك العملية إغفال أو جرف ذلك التنوع اللا متناهي في تواريخ المنطقة وثقافاتها ولغاتها، لكي يغدو كل منها شـــظايا متناثرة لا معنى لها، مثل بقايا من كنوز تاريخ العراق التي هربت من بغداد. ما أقوله أن التاريخ من صنع الرجال والنساء أنفسهم، مثلما يمكن إعادة صنعه أو إعادة كتابته لكي يصبح الشرق "شرقنا"، أي ملكنا الذي يمكننا التصرف به كما نريد. ولا بد من النظر بإعجاب إلى طاقات ومواهب شعوب المنطقة في كفاحها لتحقيق هويتها وما تريده لمستقبلها. لقد شهدت المجتمعات العربية والمسلمة هجوما ضاريا عليها بحجة تأخرها وافتقارها إلى الديموقـــراطية وإلغائها حقـــوق المرأة، إلى درجة جعلتنا ننسى أن مفاهيم مثل الحداثة والاستنارة والديموقراطية ليست بالأفكار البســـيطة المتفق عليها مسبقا، مثل شيء يمكن القول فورا بوجوده أو عدم وجوده في هذا المكان أو ذاك. لكن ما نسمعه في كل مكان هو ذلك الاستخفاف المذهل من قبـــل تلك المجموعة العجيبـــة من المتكلمين باسم السياسة الخارجية الأميركية، الذين يصورون الشرق الأوسط وكأنه حيز فارغ يمكن فيه لأميركا خلق "ديموقراطية مصطنعة وسوق حرة مصطنعة". كلا، لاحاجة إلى معرفة العربية أو الفارسية أو حتى الفرنسية لكي تتشدق عن حاجة العالم العربـــي إلى الديموقـــراطية وكيف أن أقامتها في العراق سيعني انتشارها فورا إلى بقية الدول العربية حسب نظرية أحجار الدومينو.

لكن هناك فرقا بين معرفة الشعوب الأخرى والتواريخ تقوم على الفهم والتعاطف والدراســـة المعتنية المقصودة لذاتها، والمعرفة التي تأتي جزءا من حملة شاملة تهدف إلى إثبـــات الذات. فهناك في التحليل النهائي تباين عميق بـــين إرادة الفهم خدمة للتعايش وتوســـيع الأفق، وارادته وسيلة للســـيطرة. والمؤكد أن من بـــين الكوارث الفكرية في التاريخ ما نراه الآن من حـــرب إمبريالية مدمرة افتعلتها مجموعة صغيرة من المسؤولين الأميركيين غير المنتخبين ضد بلد من العالم الثالث يعاني أصلا من الديكتاتورية والدمار، وذلك على أســـــاس أيديولوجي يتلخص بالسيطرة على العالم وموارده. وقد نجح هؤلاء في تمويه غايتهم هذه بـــفضل التبـــرير والدعم الذي لاقوه من مستشرقين خانوا أمانتهم العلمية.

التأثير الرئيسي على البنتاغون ومجلس الأمن القومي يأتي من أشخاص مثل بـــرنارد لويس وفؤاد عجمي، الخبيرين بالعالمين العربي والإسلامي اللذين قدما للصقـــور اختلاقـــات فكرية

شنيعة مثل "عقلية العرب" وتراجع الحضارة الإسلامية المستمر منذ قرون، الذي لادواء له سوى أميركا وقوتها. ونجد المكتبات التجارية في أميركا اليوم مليئة بمؤلفات مهلهلة بعناوين صارخة على الإسلام والإرهاب، أو "فضح الإسلام، والخطر العربي أو الإسلامي أو الاثنين معا، وكلها من تأليف معلقين مغرضين يستقون معرفتهم من "خبراء" يفترض انهم توصلوا إلى فهم أعماق تلك الشعوب "الشرقية" الغريبة الطبائع. إضافة إلى ذلك هناك تلك الجوقة الإعلامية الكبرى، من تلفزيون "فوكس" و "سي أن أن إلى ما لا حصر له من الإذاعات التبشيرية واليمينية والصحف الشعبية وحتى المجلات الارقى نسبيا، وكلها تعيد وتكرر تلك التراهات والتعميمات الفارغة لإثارة الأميركيين ضد "الشياطين الأجانب.

ولولا هذه الحملة المنظمة ضد أولئك الناس الذين لا يشابهوننا ولا يقدرون "قيمنا" –الحملة التي تلخص جوهر التقليد الاستشراقي–لما كانت هذه الحرب. وهكذا فان المستشارين الأميركيين للبيت الأبيض والبنتاغون ينتمون إلى النوعية نفسها التي جاء منها الباحثون المأجورون الذين جيشتهم قوى الاستعمار الهولندي في ماليزيا وإندونيسيا، والجيوش البريطانية التي غزت الهند ومصر والعراق وغرب أفريقيا، والفرنسية التي استولت على الهند الصينية وشمال أفريقيا. ويستعمل الخبراء الأميركيون الكليشهات والتنميطات نفسها التي قدمها سابقوهم، والتبريرات نفسها لاستعمال القوة ضد تلك الشعوب (لأنها بالتالي"لاتفهم سوى لغة القوة" كما تؤكد معزوفتهم من قديم الزمان). وقد انضم إلى هذه الجوقة في العراق جيش جرار من أصحاب الأعمال الساعين إلى المتاجرة والعقود، والخبراء الذين سيعيدون صياغة حياة العراق السياسية والثقافية، من كتابة النصوص المدرسية المقررة إلى تدوين الدستور، وبالطبع أيضا سياسته النفطية.

يعلمنا التاريخ أن كل إمبراطورية تدعي أنها ليست كمثيلاتها، وأنها تتفرد عنها بغاياتها النبيلة في إيصال رسالة الحضارة والتنوير وإشاعة الديموقراطية، وأنها لاتستعمل القوة ألا بوصفها الخيار الأخير. والمؤسف أن هناك دوما الكثيرين من المثقفين المستعدين للإدلاء بشهاداتهم عن حسنات الإمبريالية وتكرانها لذاتها في مساعيها هذه.

بعد ٢٥ سنة على صدور "الاستشراق" يعود السؤال عما إذا كان عصرنا الحديث قد شهد نهاية الإمبريالية، أم أنها مستمرة في الشرق منذ غزو نابليون لمصر قبل قرنين. وقد قيل للعرب والمسلمين دوما أن نفسية الضحية والتركيز على مساوئ الإمبريالية يشكل نوعا من التهرب من المسؤولية عن أوضاعهم الحالية. أنها مقولة المستشرقين الدائمة: "لقد فشلتم. لقد أضعتم طريقكم". وهذه بالطبع هي مساهمة في. أس. نايبول في مجال الأدب: ضحايا الإمبريالية يكتفون بالبكاء والعويل فيما تصل الأوضاع في بلادهم إلى الحضيض. لكن بالسطحية هذا الموقف، الذي لا يريد مواجهة تواصل تأثيرات الإمبريالية عبر السنين على حياة أناس مثل الفلسطينيين أو الكنغوليين أو الجزائريين أو العراقيين. لننظر إلى الخط الذي بدأ باحتلال نابليون لمصر واستمر بظهور علم الاستشراق، ثم الاستحواذ على شمال أفريقيا، وتواصل مع المشاريع الاستعمارية في فيتنام ومصر وفلسطين، ثم مع الصراع على النفط والسيطرة الاستراتيجية في الخليج والعراق وسورية وفلسطين وأفغانستان. لننظر أيضا إلى

تصاعد الحركات القومية المناهضة للإمبريالية، وبعدها مرحلة التحرر القصيرة ثم مرحلة الانقلابات العسكرية والثورات والحروب الأهلية والتعصب الديني والردود اللا عقلانية على تحديات العصر، وفي المقابل الهجمات التي لاتعرف الرحمة على أجيال جديدة من "السكان المحليين". وكل من هذه المراحل ينتج معرفته المشوهة بالآخر، والتنميط التبسيطي المهين له، والحجج السياسية المتحذلقة ضده.

فكرتي في "الاستشراق" كانت استعمال النقد المستمد من التوجه الإنساني لفتح مجالات جديدة للصراع وتقديم سياق متواصل من التفكير والتحليل، بدلا من ردود الفعل الآنية الغاضبة التي تقيد تفكيرنا. وقد أطلقت صفة "الإنسانية على هذا التوجه، وواصل استعمالها بعناد بالرغم من استهجانها من قبل الناقدين آلما بعد حداثيين. اقصد ب"الانسانية" في الدرجة الأولى كل محاولات فك ما وصفه الشاعر الإنكليزي وليام بليك بـ "الأغلال التي يصنعها الذهن" للتمكن من استعمال العقل في شكل تاريخي عقلاني، وصولا إلى فهم تأملي. إضافة إلى ذلك فان النظرة الإنسانية هذه تتغذى من حسها الجمعي المتمثل بارتباطها بالباحثين الاخرين والمجتمعات والمراحل التاريخية الأخرى-بحيث لايمكن القول أن هناك باحثا إنسانيا منعزلا.

مؤدى القول أن كلا من المجالات والظواهر مرتبط بالبقية كلها، وان ما من شيء في عالمنا معزول عن التأثيرات الخارجية. وان علينا الكلام عن قضايا مثل الظلم والمعاناة بعد وضعها بدقة في سياقها التاريخي والثقافي والاجتماعي-الاقتصادي. دورنا إذا هو توسيع حقل النقاش. وقد قضيت الكثير من حياتي في السنين الـ٣٥ الأخيرة في الدفاع عن حق الشعب الفلسطيني في تقرير المصير، لكنني حرصت على القيام بذلك مترافقا مع كامل الانتباه إلى واقع الشعب اليهودي وما عاناه من الاضطهاد ومحاولات الإبادة. ويعني هذا أن الاعتبار الأهم هو توجيه الكفاح من اجل المساواة في فلسطين/ إسرائيل نحو هدف أنساني، أي التعايش وليس القمع أو الإنكار. ولم يكن من قبيل الصدفة إشارتي إلى الجذر المشترك بين الاستشراق واللا سامية. ويبدو لي تبعا لذلك أن من الضروري للمثقفين المستقلين أن يقدموا دوما نماذج بديلة من النماذج التبسيطية المقيدة القائمة على العداء المتبادل السائد منذ زمن طويل في الشرق الأوسط وغيره.

، لابد من الإشارة في هذا المجال إلى أنني، كباحث أنساني التوجه، تلقيت تعليمي قبل ٤٠ سنة في حقل الأدب المقارن، الذي تعود أفكاره الرئيسية إلى ألمانيا أواخر القرن الثامن عشر واوائل التاسع عشر. وكانت هناك قبل ذلك المساهمة العظيمة من الإيطالي جيامباتيستا فيكو، الذي استبقت أفكاره مواقف غوته وهمبولت ودلتاي ونيشته وغادامر وغيرهم من المفكرين الالمان-ثم كوكبة فيلولوجيي لغات الرومانس في القرن العشرين التي تضم اريش آورباخ وليو سبتزر وارنست روبرت كورتيوس.

فكرة الفيولوجيا بذاتها تثير لدى الأجيال الشابة انطباعا عن علم منكفئ على ذاته لا يعرف غير الكتب الصفراء المكسوة بالغبار. لكن الفيلولوجيا هي فن الفهم الأعمق والأكثر إبداعا للتاريخ والحضارات. ولعل افضل تجسيد له بالنسبة لي اهتمام غوته بالإسلام عموما وبحافظ الشيرازي خصوصا، ذلك الولع العميق الذي أدى إلى كتابة "ديوان الشرق والغرب"، ثم إلى فكرته عن "أدب العالم"، أي دراسة آداب الأمم في وحدة سيمفونية تحفظ خصوصيات كل منها

ضمن المنظور الجمعي. هناك مفارقة كبيرة عندما نرى أن العولمة اليوم، في عملها على توحيد الكل بأشكال تحدثت عنها سابقا، تقترب في شكل متزايد من ذلك النوع من الرتابة والتجانس الفكريين اللذين تقصد غوته مقاومته. وقد أكد اريش آورباخ على هذه النقطة في مقال بعنوان "فيلولوجيا الأدب العلمي" نشره في ١٩٥١، أي مطلع الحرب الباردة. وكان آورباخ نشر كتابه العظيم "مايميسس" في ١٩٤٦ في بيرن، بعدما ألفه أثناء لجوئه إلى اسطنبول أبان الحرب الثانية حيث عمل أستاذا للغات الرومانس. وكان هدفه من الكتاب وصف تنوع وحيوية تمثلات الأدب الغربي، من هيوميروس إلى فرجينيا وولف، للواقع المتعين. لكن قراءة مقالته في ١٩٥١ توحي بان الكتاب كان مرثية لحقبة اتسم الباحثون فيها بالقدرة على تفسير النصوص عن طريق الفيلولوجيا، بكل ما تتطلبه من التمعن في النصوص والوقائع والحساسية وقوة الحدس وسعة المعرفة والتمكن القوي من عدد من اللغات، لدعم ذلك النوع من الفهم الذي دعا أليه غوته في مقاربته للأدب الإسلامي.

المعرفة الوثيقة بالتاريخ واللغات ضرورية بالطبع، لكنها لا تكفي، مثلما لا يكفي تكديس كل ما أمكن من المعلومات للتوصل، مثلا، إلى مقاصد شاعر مثل دانتي. ذلك إن الشرط الرئيسي للفهم الفيلولوجي الذي تحدث عنه وحاول ممارسته آورباخ وسابقوه هو محاولة الدخول على النص المكتوب بتفهم وتعاطف ذاتي، ومن منظور المؤلف وزمنه. أي أن الفيلولوجيا في تطبيقها على آداب العالم لاتقوم على التباعد والعداء للزمن الآخر والحضارة الأخرى بل على زوحية إنسانية تعتمد ما يمكن وصفه بأنه الكرم أو حسن الضيافة–بمعنى أن ذهن القائم بالتفسير يعمل على فسح مكان لذلك "الآخر". وهذا الفسح الخلاق لاعمال تبقى دون ذلك غريبة وبعيدة هو الصفة الأهم لمهمة المفسر.

كل هذا بالطبع تعرض للتخريب والدمار في ألمانيا النازية. ولاحظ أورباخ بعد الحرب بأسف الرتابة المتزايدة متلازما مع التخصص المتزايد في حقول البحث، وهو ما قلص من إمكانات القيام بذلك العمل الفيلولوجي كما جسده آورباخ،بحرصه على التدقيق مترافقا مع الانفتاح الذهني المطلق. والمحزن اكثر إن الفترة التي تلت موته في ١٩٧٥ شهدت المزيد من التراجع على صعيد الفكر والممارسة، وفقدان البحوث الإنسانية لموقعها الريادي السابق. وها نحن نجد طلابنا اليوم، بدل قراءة النصوص بالمعنى الحقيقي للقراءة، ينشغلون بنتف من المعلومات المأخوذة عن الإنترنت أو وسائل الأعلام. الأسوأ من ذلك أن التعليم يلقى تهديدا من بعض القوى القومية والدينية المحافظة التي تتناقل وسائل الأعلام أفكارها في شكل لا تاريخي يركز على عنصر الإثارة. ولعل من بين أسوا الأمثلة أسلوب تغطية الحرب، التي تصور وكأنها نوع من الألعاب الإلكترونية أو "الضربات الجراحية" التي لاتسبب خسائر بشرية تذكر، وتطمس بذلك حقيقة الحروب الحديثة وما فيها من الهول والدمار. وهناك أيضا بالطبع الدور الأساسي الذي يلعبه الأعلام في إدامة قلق وغضب المشاهدين عن طريق التركيز على "شيطانية" ذلك العدو الغامض الذي لا نعرف عنه سوى انه "إرهابي". وقد أمكن استغلال ذلك بسهولة خصوصا في الأجواء التي خلقتها أحداث ١١/٩.

أن علي، كأميركي وعربي، أن اطلب من القارئ أن لا يستخف بفاعلية تلك النظرة التبسيطية

إلى العالم من قبل حفنة من كبار المسؤولين المدنيين في البنتاغون، التي صاغوا على أساسها سياسة الولايات المتحدة إزاء العالمين العربي والإسلامي. أنها نظرة مدعومة بأضخم موازنة عسكرية في التاريخ، تدور على أفكار مثل الإرهاب والحرب الوقائية وتغيير النظام، وتتناولها وسائل الأعلام "وخبراؤها" –المجمعون دوما على تبرير الخط الرسمي– من خلال نقاشات لانهاية لها تزيد من فجاجة تلك الطروحات الفجة أصلا. هكذا حلت محل الفكر التاملي والنقاش العقلاني والمبدأ الأخلاقي القائل بان على البشر صنع تاريخهم بأنفسهم تلك الأفكار المجردة التي تحتفي التي بفرادة أميركا أو الغرب عموما، ولا تعطي أهمية للسياقات التاريخية وتنظر باحتقار إلى الثقافات الأخرى.

ربما وجد البعض في موقفي تنقلات حادة بين التفسر الإنساني من جهة والسياسة الخارجية من الثانية، وان حضارة تكنولوجية لا سابق لها من حيث القوة، وتمتلك إضافة إلى ذلك الإنترنت ومقاتلات "أف ١٦" تحتاج إلى قيادة خبراء بالسياسات التكنولوجية مثل دونا لد رامسفيلد وريتشارد بيرل. لكن ما يضع في هذا هو التشابك الكثيف والاعتماد المتبادل في الحياة الإنسانية، الذي لايمكن اختزاله إلى معادلة أو إغفاله بدعوى عدم أهميته.

هذا جانب واحد من جوانب النقاش في إنحاء العالم. وإذا نظرنا إلى العالم العربي والإسلامي نجد أن الوضع لا يختلف كثيرا. وكما لاحظت الباحثة رلى خلف فان المنطقة شهدت انزلاقا سهلا إلى عداء لأميركا لاينم عن فهم يذكر لمجتمعها. ولما كانت الحكومات عاجزة عن التأثير على سياسات أميركا نحوها فهي تحول جهودها إلى قمع شعوبها، وما يؤدي له ذلك من الضغائن والغضب والعجز وما شابه من السلبيات التي لا تساعد على انفتاح المجتمعات. وهكذا نجد مجتمعات تتغلب فيها مشاعر والإحباط على الأفكار العلمانية حول الإنسانية والتاريخ والنمو، ويتزايد فيها التعليم الديني القائم على التلقين والحفظ عن غيب ورفض كل أنماط المعرفة العلمانية باعتبارها من صنع "الأخر". وكان الاضمحلال التدريجي للتقليد الإسلامي العظيم المتمثل بالاجتهاد من بين الكوارث التاريخية الرئيسية في زمننا، وتراجع معه التفكير الانتقادي والتناول الجاهد لعالمنا ومشاكله.

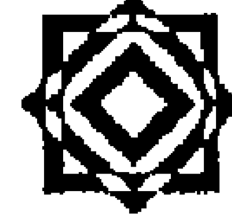
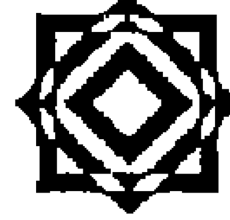
لايعني هذا أن العالم انقسم ثقافيا إلى استشراق جديد عدائي من جهة ورفض شمولي من الثانية. وبالرغم من نواقصها فقد كشفت القمة العالمية التي عقدتها الأمم المتحدة في جوهانسبورغ السنة الماضية عن اهتمامات مشتركة كبرى توحي ببروز رأي عام عالمي جديد يعطي وزنا جديدا لتلك المقولة التبسيطية المعهودة عن "عالم واحد". لكن علينا أن نعترف أيضا أن من المستحيل الإحاطة بكل اوجه الوحدة البالغة التعقيد لعالمنا المعلوم، حيث يسود الاعتماد المتبادل بين الأجزاء إلى درجة لاتسمح لأي منه بفرصة الانعزال.

أن من الضروري تحدي الضغوط والصراعات الكبرى التي تعمل على تقسيم البشر في شكل زائف إلى وحدات كبرى تحت عناوين مثل "أمريكا" أو "الغرب" أو "الإسلام" لكل منها هويته الشمولية التي تطمس التباينات الكبيرة بين الأفراد. ولا يزال في حوزتنا من اجل ذلك المهارات التفسيرية العقلانية التي خلقها التعليم القائم على مبدأ الإنسانية، التي لايعني التزامها مجرد الحنين إلى القيم الكلاسيكية بل الممارسة الناشطة للخطاب العلماني العقلاني اللصيق بعالمنا. العالم

العلماني هو عالم التاريخ كما يصنعه البشر أنفسهم. الفكر الانتقــادي هو ما يرفض الانضمام إلى الصفوف المرتصة ضد من يتفق على تسميته "العدو". وعلينا بدل الآخذ بمقولة مصطنعة مثل "صِدامْ حضارات" التركيز على التفاعل التاريخي البطيء بين الحضارات، بكل ما بــينها من التشابهات والاستعارات المتبادلة والتعايش، تلك العناصر الأهم بــكثير مما تعترف بــه النظريات التبسيطية المزيفة. لكن القيام بهذه المهمة التفسيرية الواسعة يحــتاج إلى الكثير من الوقت والتقصي الانتقادي الصبور، في زمن يلح على الأفعال وردود الأفعال الفورية.

الموقــف الإنســاني يدور على الإنســان في فرديته وحدســه الذاتي، وليس على الأفكار والمرجعات المفروضة مسبقا. والواجب قــراءة النصوص أنتجتْ واســتمرت في الحــيز التاريخي، حيزنا الأرضي. لكن هذا لا يستثنى اعتبارات القوة، بل أنني، بالعكس، حــاولت إبراز تسلل وتداخل اعتبارات القوة، إلى حتى أكثر مجالات البحث عمقا وبعدا عن الاهتمامات المباشرة.

أخيرا، وهو الأهم، التوجه الإنســاني هو خط المقــاومة الوحــيد، بــــل الأخير، لنا ضد الممارسات اللاإنســانية والمظالم التي تشــوه التاريخ. ولا شــك أن ما يدعمنا اليوم هو عالم الإنترنت الديمقراطي المفتوح لكل المستعملين، في شكل لم تحلم به من قبــل أجيال الطغاة أو المتزمتين. ولو لا هذا العالم لم تكن هناك الموجة الكبرى من الاحــتجاج على الحــرب على العراق من قبل تلك المجاميع البديلة في كل مكان، التي تركز على حقوق الإنســان والبــيئة وقضايا التحرر عموما، واعتمدت من اجل المعلومات والاتصال على هذه الوسيلة الحديثة.

عن "الاستشراق في ألمانيا بين التقاليد والانفتاح"

د.صادق البلادي



في جامعة مارتين لوثر في هالة بشرق ألمانيا، و التي هي من مراكز الاستشراق الهامة، نظم سمينار علمي أواخر عام ٢٠٠٢/ أوائل ٢٠٠٣ عن " الاستشــراق في ألمانيا بين فترة التنوير إلى ثورة آذار ١٨٤٨ - بين التقاليد و الانفتاح."

فكرة السمينار ان رؤية الأوربيين إلي العالم الإسلامي، رغم ما شابها من أوهام وتخيلات في أغلب الأحوال، لم تكن دائماً سلبية على الإطلاق، بل كانت تختلف اختلافا كبيرا حسـب الزمان والمكان والمحيط الاجتماعي. وإن النظر إلى التاريخ الفكري في ألمانيا مثلا يكشف أن الموقف من العالم الإسلامي قـد تغير هناك من قـرن إلى قـرن ومن عصر إلى آخر. ولذلك يخرج السيمنار باستنتاج انه لا يمكن الاتفاق تماما مع فرضية ادوارد سعيد في كتابــه الشهير " الاستشراق"، والذي ما زال تأثيره قويا على أبحاث الاستشراق الغربي منذ صدوره عام ١٩٧٨ . فهو يزعم أن الغرب قد استولى على الشرق بـفضل "مستشرقـيه" العلميين، والفنيين , اللاهوتيين ، لا بل أنه أوجدهم ليثبت تفوقه و عقلانيته وأحقيته في الهيمنة الثقـافية والسياسية على العالم. وإذا أخذنا بـنظر الاعتبـار أن الكم الأعظم من معارف الغرب عن الشرق جرى صياغته في القرنين التاسـع عشـر و العشـرين، وأن السـيطرة الكولونيالية المباشرة قد توسعت بين ١٨١٥ و ١٩١٤ من ٣٥% الى ٨٥ % من الكرة الأرضية، فسيبدو القبول بان هذا الشكل من السيطرة مرتبـط باسـتيلاء الغرب فكريا على العالم ، أمرٌ له ما يبرره. أما القول بأن الصلف الغربي تجاه الشرق هو الموقف الفكري العام للاستشراق طوال كل مراحل التاريخ الأوربي، فهو مفهوم غير صائب. فسواء في القرن التاسع عشر ، حـيث تتركز دراسة ادوارد سعيد ، أو في عصور سابقـة كانت هناك في اوربـا مواقـف فكرية ومصالح متضاربة ، حددت العلاقة بالشرق، وتعاقبـت في فترات زمنية قـصيرة، لا بـل تزامنت أحيانا ، بعضها مع بـعض: تعصب ديني ، مخاوف مشوشـة من تزايد الغربـاء ، الإيمان بإمكانية التسامح ، الإعجاب بثقافة العالم المقابل ، وحسابات السلطة البـراغماتية . وفي نطاق المجال الألماني بشكل خاص تظهر هذه التمايزات بكل وضوح .وتبين الدراسات أن التيارات الفكرية التي ظهرت في ألمانيا في الفترة بين عامي ١٧٠٠ و ١٨٥٠ قـد نظرت الى حضارة الشرق ليس فقط بدون تحيز، بـل بـتعاطف واعجاب كبـيرين. وكانت هذه التيارات المنفتحة على العالم الإسلامي مرتبطة ارتباطا وثيقا بحـركة التنوير السـاعية إلى التخلص من التحيزات الموروثة، والمؤمنة بالمساواة بين البشر، كل البشر أينما كانوا .ومن أهم الشخصيات الألمانية التي كانت مولعة في ذلك العصر بالشـرق الإسـلامي الشـاعر الألماني الكبير يوهان فولفانغ غوته (١٠٧٩_١٨٥٠). الذي كان شديد الإعجاب بـأعمال الشعراء الفرس والعرب القدماء. كان غوته مهتما بالتراث الأدبي الشرقي منذ شبابــه، لكن حبه له طغى على قلبه وهو على أعتاب الشيخوخة. ومما أثار هذا الحب ان ناشر كتبــه أهداه نسخة من ديوان الشاعر حافظ الشيرازي بترجمته الألمانية. وبعد قراءة هذه الأشــعار التي إفتتن بها غوته افتتاناً شديداً، حاول التعرف على أكبر قـدر ممكن من الأسـاليب الشـعرية الفارسية والعربية. ثم انكب على دراسة الثقافة والمفاهيم الإسلامية، وتمرن في الوقت نفسه

على كتابة الخط العربي. وكلما ازداد غوته توغلاً في تراث العالم الشرقي تحـــول هذا عنده الى مصدر للإبداع الشعري حتى أصدر ــ بعد سنوات من "الاستشراق" الفكري ــ مجموعة من الأشعار أسمّاها "الديوان الغربي الشرقي"، يمد بها جسراً شعرياً بين الغرب والشرق.

ولم يكن غوته وحيداً في إعجابه بالشــرق، بـــل شـــاركه كثيرٌ من معاصريه من المفكرين والشعراء والأدباء الألمان. فعلى سبيل المثال هناك معلمه وناصحه المخلص غوتفريد هيردر (١٧٤٤ ــ ١٨٠١) الذي اطلعه على جمالية الشعر العربي في أيام شبابه. وكان هيردر يرى ان حضارات الشرق تمثل في حـــيثياتها خلاصة لما هو بشـــري، وأن في آدابـــها توثيقـــاً للإنسانية. وتبين الدراسات أن الاستشراق الألماني لم يكن كله استشراقا تبشيرياً واستعمارياً، بل كان استشراقا فكرياً وأدبياً وشـــعرياً. ومن المواضيع التي تناولتها دراســـات الســـيمنار بالتفصيل: الأزياء التركية في البلاط السكسوني في أيام الملك أوغســـت القـــوي (١٧١٦ ــ ١٧٧٤)؛ لقاء متخيل في الآخرة بين السلطان العثماني سليمان القانوني والملك الإنكليزي هنري الثامن في مجلة تنويرية هزلية، اتخذت لها شعاراً "لله المشـــرق والمغرب يهدي من يشاء الى صراط مستقيم"، يتحاوران فيه عن قيم الزواج في الغرب وفي الإسلام ويصحـــح القانوني الصورة المشوهة لدىٰ هنري الثامن عن الحريم؛ صورة الإسلام في قاموس ألماني صدر في النصف الأول من القرن الثامن عشر؛ المستعرب يوهان ياكوب رايسكه(١٧١٦ــ ١٧٧٤) وبدايات الدراسات العربية في ألمانيا؛ الأديب كريستوف مارتين فيلاند وأســـاطيره الشرقية التي نشرها تحت عنوان "جنستان" (بلاد الجن)؛ الشاعر فريدرخ روكرت (١٧٨٨ ــ ١٨٦٦) وترجماته الحاذقة للشعر الشرقـــي؛ عرض لمسرحـــية "المنصور" عن عرب الأندلس المضطهدين من قبل محاكم التفتيش، وهي من تأليف الشاعر هاينريخ هاينة، رفيق كارل ماركس؛ نساء رحالات ألمانيات زرن الشرق في أوائل القرن التاسع عشر؛ والجمعية الألمانية للدراسات الشرقية في مرحلتها التأسيسية. ويسبق هذه الدراســـات التفصيلية مقـــال يعرّف القارئ بأهم التطورات في تاريخ الاستشراق الألماني فيما بـــين العصور الوســـطى وأواسط القرن التاسع عشر.

نشرت مواد هذا السيمينار في العدد الفصلي الثالث من "حـــوار الثقـــافات"، وهي مجلة جديدة تصدر في ألمانيا، وتهتم بحوار الحضارات الثقافات والأديان. شعارها قول الشـــاعر الألماني الكبير غوته: "من يعرف نفسه وغيره، سيعرف هنا أيضا أن الشـــرق والغرب لا يمكن بعد الآن فصلهما." والمجلة تصدر باللغتين العربية والألمانية باشراف الأخوين رزاق وطالب منهل، وهما عراقيان يقيمان في ألمانيا. والأستاذ رزاق منهل كان عضواً في البرلمان في ولاية ساكسين–أنهالت عن حزب الخضر، ومسؤول شؤون الأجانب في بـــلدية ديســـاو. العدد الفصلي الثالث صدر أخيراً باللغة الألمانية، وهويستحق أصداره بـــاللغة العربـــية لما لدراساته من أهمية.

"إمبراطورية الفوضى" كما يراها ألان جوكس



الإدارة الأمريكية تؤسس لعلاقة مختلة مع العالم. منطق القـوة الذي تأخذ بـه، تحت مختلف الذرائع والحجج، يزرع الفوضى وعدم الإستقرار. هذا المنطق يطيح بأنظمة لفظها التاريخ، كنظامي طالبان وصدام، لكنه يقوض معها الأمم المتحـدة وركائز الشرعية الدولية. لذلك تثار اليوم أسئلة جدية حول حـق القـطب الواحـد في فرض سيادته على العالم، حول ضرورة تشكيل نظام دولي جديد، وحول البدائل الممكنة لنـزعة الهيمنة الشاملة. في كتابه " إمبراطورية الفوضى" يرسم ألان جوكس، الخبير الفرنسي البارز في العلاقات الدولية، ملامح هذه الظاهرة، كاشفاً عن بعدها الطبقي، وداعياً إلى قيام تضامن ضدها بين مواطني العالم. أدناه مراجعة لهذا الكتاب، بقلم الباحث ماكينـزي وارك..

يعتقد ألان جوكس أنه يمكن للنظام الجمهوري ذي المضمون الإجتماعي أن يوفر شـكلا عملياً لمقاومة العسكرة الإمبريالية. مشكلة الإمبراطورية، التي يراها متمركزة حول القوة العسكرية للولايات المتحدة، أنها تقدم للعالم عامل القوة فقط دون عامل الحماية. وقد سبـق لماكيافيللي أن إنتبه إلى أن الغازي الحـصيف هو من يعمل على تحسـين شـروط حـياة المحتلين. فيضفي بذلك الشرعية على حكمه. في حالة الولايات المتحدة، فإنها لا تسعى إلى غزو العالم، حيث يعني ذلك تحمل المسؤولية عنه، بل تكتفي بتدبير شؤونه عبر التحكم فيه عن بعد.

الإمبراطورية الأمريكية لا تخلق نظاما مستقـراً للعالم. لا يوجد هناك سـلام أمريكي (باكس أمريكانا). كل ما تفعله أمريكا يقوم على تنظيم حالة الإضطراب بوسـائط مالية، أو أحياناً من خلال تدخل عسكري. نظام عملها يعتمد أسلوب التهديد، الذي ينبغي، بين وقـت وآخر، تنفيذه فعلياً لإضفاء مصداقية عليه. وهذا ما حصل في نهاية الأمر في حالة العراق. خلال فترة حكم الرئيس كلينتون، تجلت الإمبراطورية بمظهر الليبرالية الجديدة القائم على معايير إقتصادية للتجارة والمقاطعة. أما في فترة حكم الرئيس بـوش الإبـن، فقـد جرى إستبدال ذلك الهجوم الإقتصادي بهجوم عسكري. الحجة هنا هي: لماذا نحـاول الإشتبـاك دبلوماسياً مع أولئك الأوربـيين المخادعين؟ لماذا لا تتم الإسـتعاضة عن الإستراتيجية الدبلوماسية، حيث التفوق الأمريكي فيها نسبي، بالإستراتيجية العسـكرية، حـيث التفوق الأمريكي فيها مطلق؟ إزاء القوة الأمريكية، ينتاب جوكس الذعر والإنذهال، وربما إن تلك سمة عامة لرد الفعل الأوربي. فهو حين يعلق على الأخطاء الجيوسياسية السابقة للولايات المتحدة، يشير إلى أن الأمريكيين " غير قادرين على حكم العالم، وهذه نقطة لصالحـهم" (ص ٥٦). بعض الإجراءات التي تطبقها الولايات المتحدة في الخارج، أخذت طريقها نحو الداخل، الأمر الذي يمثل أخطر تطور بالنسبة لسـكان الولايات المتحـدة. الدولة صارت تنكث تعهداتها بحماية حياة مواطنيها .يمكن وصف نظرة جوكس بـأنها نظرة إشـتراكي ديمقراطي غير طائفي. فهو يفترض أن موضوع السياسة هو الصراع الطبقـي، وان دور الدولة يتمثل في تهدئة النـزاعات. أن الدولة ملزمة بحماية مواطنيها كي تضمن قبولهم بها. غير من الممكن أحياناً أن تتهرب الطبقة السائدة من التزاماتها بتحويل الصرع الطبقي

إلى صراع أثني داخلي، كما في حالة رواندا وصربيا، أو خارجي، كما في حـالة حـرب جورج بوش الإبن على محور الشر. في هذا السياق يتحدث جوكس عن "الحاجة إلى إعادة إحياء مفهوم الطبقة " (ص ٦٢) هناك إحساس متنام بأن النظام الإقتصادي الذي نعيش فيه لا يشبه نظام " الرأسمالية" التي عاصرها أجدادنا. أما في أي إتجاه يصب تحول الرأسمالية، فلا أحد يعرف الجواب بعد. في هذا الصدد، يقدم جوكس لمحـات مضيئة. فهو يعتبـر أن ماكس فيبر توصل إلى إدراك أفضل للعلاقة التاريخية بين الإقتصاد والعنف بالمقـارنة مع كارل ماركس. ففي عصر اليونان القديم، تنافس عمل المواطنين الأحرار مع عمل العبـيد. وبحدود قدرة دويلات المدن على أيجاد ديمقراطية محـدودة، فإنها إسـتندت على القـوة السياسية لعمل المواطنين الأحرار. أما في روما القديمة، فقد انقلبـت الموازنة لصالح عمل العبيد، وبالترافق معه إنبثقت الإمبراطورية. فقد غدت غاية الحرب إصطياد العبيد. وبذلك فقد حدد الطابع العسكري للعنف نمط الإنتاج، وليس العكس كما يعتقد أغلب الماركسـيين. ومن المحتمل أن نظير هذا التشخيص نجده في عصرنا. فمصانع بلدان العالم النامية تعتمد أسلوب العمل القسري. والتدمير الجاري لطريقة الحياة الريفية في أغلب البـلدان النامية، يوفر إمدادات من العمل القسري الذي ينافس العمل الحر في بلدان العالم المتطورة. العبـيد يجري جمعهم بالطريقـة القـديمة ذاتها، أي بـالعنف. لدينا من جهة، نوع مستحـدث من العبودية المعولمة، ومن جهة أخرى، نوع جديد معولم من طبقـة النبـلاء المالكين للعبـيد والمتاجرين بهم. وهو ما يدعوه جوكس "بـالردة الإمبـريالية" المنظمة من قبـل طبقـة الشركات فوق القومية وتجسيداتها في الدول التابعة لها. هاتان القوتان قادرتان على إجبار الدولة المستقلة على المشاركة في سلب مصادرها الذاتية. على أي حال، هذه ليسـت نظرة إرتياب مرضي إزاء النظام العالمي الجديد. فجوكس يعتقد أن لا أحد مسـؤول عن الوضع الناشئ، لأن بلوغ العولمة تم بواسطة التحكم عن بعد. والنـتيجة المترتبة عليها يدعـوها بـ " الفوضى المتشظية". إن الأزمة تمتد إلى جميع المستويات، وتشمل القارات والأوطان والمناطق والأحياء والعوائل. (....) بعد السلام البارد للتوازن النووي، نشهد اليوم حقبة " الحروب الصغيرة الفظيعة". فتحت ضغط عملية تحرير الاقتصاد المعولم، يلحـق الإنهيار ببعض الدول. والطبقة السائدة تدرأ عن نفسها غضب الطبقات التابعة باتباع إسـتراتيجية فرق تسد، محولة حرب الطبقات إلى حرب أثنيات. غير أن ما يبدأ كوسـيلة للحـفاظ على السلطة، يؤول إلى دمار يشمل جميع الطبقـات المتصارعة. في مواجهة إنهيار دولة بـعد الأخرى تحت وطأة الضغط الملقى عليها، تصبح القوى فوق القومية مشلولة بـفعل تبـاين نظراتها للعالم وتقديراتها للمصالح الوطنية. ويتقـد جوكس أن هناك إختلافا بـين النظرة الأمريكية السائدة حول العولمة، كعملية هدم للحدود السياسية، والنظرة الأوربية التي ترى أن العولمة الإقتصادية تستدعي نشوء أشكال فوق قومية للسـيادة والهوية السياسـية. هذه الأشكال يمكنها أن توفر نوعاً من الحماية للأفراد غير المحميين من قبل دول وطنية.

بدلاً من الحرب الباردة، أحلت شبكة السيطرة الدبلوماسـية المعولمة "سـلاماً مجمداً ". وهكذا، فإما أن يكون هناك عجز عن التدخل، كما في رواندا، أو تدخل فاشـــل، كما في البلقان. وحين تحصل تدخلات فوق قومية، فأنها تكون على شكل زحف بـطيء. والنتيجة

يصفها جوكس بعبارة " حروب غير كلاوسفيتزية (نسبة إلى الألماني كلاوسفيتز صاحب الكتاب الشهير " عن الحرب"). يفترض رأي كلاوسفيتز القائل إن الحروب هي إستمرار للسياسة بوسائل أخرى، وجود حسابات سياسية للمصالح تحرك الإستراتيجية العسكرية. في حالة الصومال أو البوسنة، يعتقد جوكس أن ما حصل هو العكس تماما. فالقادة العسكريون تركوا في الميدان دون توجيه من شبكة السيطرة الدبلوماسية، فقاموا بعمليات عسكرية أجهضت أدت إلى إجهاض الحسابات السياسية والإستراتيجية .هناك أيضاً ما يدعى بالحروب " الإنسانية". في كتابه " ضعفاء بالتكوين" يحاجج مايكل فيهير بأن قوات الولايات المتحدة واوربا تبرر موقفها السلبي، إزاء الإضطرابات المحلية في النظام العالمي، بتصويرها كأزمات إنسانية أقرب إلى الكوارث الطبيعية ــ فيقفون إزاءها عاجزين عن تقديم أي شيء سوى المواد الغذائية والطبية. في هذه النقطة، يصب جوكس نقده على أيديولوجيا المساعدات الإنسانية،مشيرا إلى أن في سياسة كهذه "تجري حماية ضمير الجلادين غير المثقل بالذنب بفضل سوء طوية السياسيين" . المهمات الإنسانية تضع الجنود في أوضاع يكونون فيها مشلولين عن حماية الناس، ليراقبوا القتل أمام أعينهم متذرعين بالحيادية. لأسباب متعددة، تنتهي الحروب الصغيرة الفتاكة، والتدخلات الإنسانية كعمليات عسكرية غير عقلانية. الدول التي تدمر نفسها بنفسها عند إنحدارها إلى درك المذابح الجماعية، تُقابل بردود أفعال طائشة عسكرية، أو دون رد فعل على الإطلاق. لهذا يستنتج جوكس أنه "دون عقلانية سياسية، لا تكون الحروب إلا ضربا من الجنون" (ص ١٠٤).من المحتمل أنه لاتتوفر حلول جاهزة للفوضى العالمية الناشئة، لكن بالنسبة للوعي الأوربي الذي يعنى جوكس بمخاطبته بشكل رئيسي، فالقضية تتعلق بإختيار نوع الفوضى الذي يفضل. يقول جوكس " في الفوضى الحالية، لعل من المفضل تنظيم مجال للتآخي السياسي بين المواطنين بمعزل عن الدول، بدلاً من التنحي جانبا لمراقبة إنتصار الطبقات الغنية فوق القومية، وعلى محياها تلوح ابتسامة الفاشية الجديدة" (ص ١١١).إن إمبراطورية الفوضى ليست فقط مضمارا سياسيا راهنا ومفعما بالحيوية، إنها أيضاً تهيء عُدة نظرية يمكنها تجاوز القضايا الخاصة التي إختار جوكس التعاطي معها. ما يستثير الفضول، ان جوكس يعود إلى توماس هوبس الذي يصفه بأنه من نوع المفكرين التنويريين النادرين، لأنه نظر إلى الفوضى والحروب الأهلية كمفاهيم أساسية في تفكيره السياسي ، وليس كعناصر ثانوية طارئة. يعتبر جوكس أن مفهوم هوبس عن المَلَكيّة القديمة، يوفر أداة نقدية مفيدة لتحليل القوى التي تخون السيادة الشعبية حين تدّعي بناءها .مستعيناً بهوبس، ماكيافيللي وكلاوسفيتس، يستنبط جوكس أدوات نظرية لتحليل الإمبراطورية من زاوية متحررة من التفكير الرغائبي، وغير مصطبغة بالموضات النظرية المتداولة. إن ما يضفي على هذا الكتاب قيمة راهنة، هو أنه يستقي أفكاره من نمط للتفكير غير سائد في زمننا. أما نقيصة الكتاب فهي في عدم إقتفاء جوكس لمنحى فكري كلاسيكي آخر يمتد من جون لوك عبر آدم سميث وريكاردو حتى ماركس. فبوسع هذا المنحى أن يثمر عن تحليل لعملية الإستحواذ على الملكية وعولمتها مشابه لعملية الإستحواذ على المناطق الجارية في العالم اليوم. ومن الجائز ان دورَ عملية الإستحواذ على الملكية، بَدءا بالارض إلى رأس المال ،

ومن ثم إلى الملكية الفكرية، ستكون مادة كتاب أخر .الإمبراطورية، بـنظر جوكس، تظهر إلى الوجود بهيئة جمهورية مغدورة. وهو يرى ترابطا بين التوسع الحـاصل في السـوق وإندلاع الحـروب الصغيرة الفظيعة. على خطى هوبـس، يذهب جوكس إلى أن العنف والحرب الأهلية مكونان أساسيان لا يستوي فهم ظاهرة العولمة دونهما. لهذا يعتبر كتابـه تحدياً لأيديولوجيي الليبـرالية الجديدة، وللتصورات المختلفة للحـركة الفوضوية العالمية المعارضة للرأسمالية. فجوكس يعتقد أن التركيز المعولم للثروة لا يمكن حمايته إلا بالعنف. اما التدمير الواسع لحياة فقراء المدن والأرياف، فهو جزء من العملية نفسها التي يقوم عليها نظام التجارة لمنظمة التجارة العالمية .(WTO) إن الإستجابة لعنف الإمبراطورية تتطلب اشكالاً من الدول التابعة، والقوى فوق القومية القادرة على الفعل باسم الحـماية .منذ زمن عصر اليونان، إستدعت الديمقراطية إيجاد حدود لدولة المدينة من أجل حصر أصوات الناخبين ولإدارة النـزاعات بين الطبقات. ويمكن للمرء أن يتفق مع جوكس على إمكانية وجود أشكال للديمقراطية خارج إطار الدول، لكن ليس دون حدود المكانية، كيفما كانت .إن التحدي الذي ينطوي عليه التفكير في الأشكال الجديدة لضم جماعات من البشر ضمن رقعة مكانية محددة، وفي أنماط السيادة والحماية الجديدة، قد أصبح يفرض نفسه بقوة في سـياق الإنتقال الظاهر الإمبراطورية التعبوية إلى الإمبراطورية المفترسـة، كما يصفه جوكس. ففي النمط الأول تفرض المصالح الإقتصادية قـيوداً على العنف. وتتولى الإمبـراطورية التغلغل بطريقة حاذقة، متخطية الحدود بفضل " فايروس" التجارة. أما في الإمبـراطورية الضارية، يصبح الإقتصاد تابعا للعنف. فالأضرار التي تلحق بنمط الإنتاج، يتم تلافيها عبر أقتسام المغانم داخلياً. الإمبراطورية المفترسة لا تزحف عبر تشققات العالم، بـل تعمد إلى المجابهة المباشرة مع الآخر .لا يصعب رؤية مدى تطابـق هذا الوصف مع سياسـة إدارة بوش الإبن. فعلى الصعيد الداخلي، يجري حرف الإنتباه عن الهجمة الطبقية الشرسـة على العمال والمزارعين من خلال حـرب كلامية توحـد المواطنين ضد مخاطر خارجية غير محددة بوضوح. في غضون ذلك، تتشكل ملامح دولة بوليسية جديدة. فالإقتصاد يمر بحالة أزمة جدية لإنخفاض الإسـتهلاك مردها تخلف الأجور الحقيقـية عن المسـتوى المرتفع للإنتاجية. نتيجة لهذا، يتم إستهلاك فائض القيمة في الإنفاق العسكري، بـالترافق مع وعود بالسيطرة على إحتياطي النفط العراقي لسدّ النقص. إن جوكس يحذرنا هنا بأن " شيئاً مشابهاً لنظام عبودية عالمي قد عاد إلى الظهور، ليتركنا وجهاً لوجه مع إحتمال قيام إمبراطوريات شمولية ترتكز على معسكرات وعبيد" (ص ١٨٧). وعلى هذا الصعيد " ينبغي لأوربـا أن تقول بصراحة لأمريكا أنها على خطأ في بحثها عن مجال عسكري دون إعتبار للسـيادة، وسلام دون معاهدات، ومجال إقتصادي دون سياسة" (ص ٢١٥). تقول بصراحة لمن؟ في أمريكا لا توجد وسائل إعلام على المستوى الوطني تتيح للأمريكيين أن يتحاوروا ويتدبروا مصالحهم. ومن المؤكد ليس عندهم وسائل إعلام توصل إليهم ما يقوله الأوربيون عن هذه القضية.

وزارة البيئة أمام مهمات آنية عاجلة

د. كاظم المقدادي *



إستحـــدثت مؤخرا،ولأول مرة في العراق، وزارة للبـيئة العراقية،إستجابــة للحاجة الماسة، وكضرورة آنية ملحة، أملاها الواقع البـيئي الراهن، من المؤمل ان تتوافر لها كافة إمكانات النهوض والنجاح بـمهمات دراســة وتقـــييم ومعالجة المعضلات القائمة، وخاصة التلوث البـيئي الخطير .وكي تنهض الوزارة الجديدة بـمهماتها المعول عليها،الرامية لإنتشال الواقع البـيئي الراهن مما هو فيه من كارثة مزمنة،ينبـغي أن تحظى بدعم ومؤازرة المجتمع العراقي، ومؤسساته، وكوادره المعنية..

فلم يعد سرا، والشواهد لا تعد ولا تحصى، بأن الشعب العراقي برمته يعيش، منذ عقدين ونيف من عمر النظام السابق، في ظل كارثة بيئية، ومعالم التلوث البيئي الوخيم شـاخصة في أرجاء العراق، وتهدد مخاطره الجسيمة صحة وحياة المواطنين، وفي مقدمتهم براعم حاضر ومستقبل الشعب والوطن – الطفولة العراقية. وقد حـصد التلوث البـيئي المزمن،الشــامل، والمتفاقم أرواح مئات الوف العراقيين، وسبب، وما يزال إنتشـــار أنواع السـرطان، وولادات مشـــوهة، وأخرى ميتة، وإجهاضات متكررة، وولادات مبـكرة وناقـصة الوزن، وعقـم، وإعتلالات عصبية، وغيرها من الأمراض والحالات المرضية الغريبــة الخطيرة، التي طالت حتى الثروة الحيوانية والزراعية أيضا. واكدت الأبحاث العلمية، واخرها التي ناقشها المؤتمر الدولي الرابع للجمعية الأفريقـية للطفرات البـيئية، الذي نظم بـالتعاون مع مركز بحـوث الهنـــــــدسة الوراثية والتكنولوجيا الحيوية في جامعة عين شمس المصرية، على أن التأثير الوراثي الناتج عن تلوث البيئة والتعرض للمواد الكيماوية والبيولوجية والمشعة لا ينحصر في الأجيال الحالية، محدثا التشوهات والسرطان والعقم، وغير ذلك، بل يمتد الى الأجيال المقبـلة بما يترتب عليه من أمراض وراثية وخيمة، وتشوهات خلقية، وتخلف عقلي.

إن وزارة البيئة العراقية مطالبة برسم اولويات مهامها الكفيلة بـالنهوض عاجلاً بـمهمة معالجة الوضع البيئي العام،وتحسينه تدريجيا، بعد دراسة وتقييم المعضلات القـائمة، ووضع الحلول والمعالجات الآنية لها، بمساعدة ودعم منظمات ومؤسســات ومراكز بحـثية، محـلية ودولية، وحكومات شقيقة وصديقة تقدم مســاعدة نزيهة.ونأمل ان تراعي أولوية مهام الوزارة وخطة عملها المسائل التالية في التلوث البيئي المتفاقم على نحو خطير في العراق بفعل عوامل عديدة، بحسب تسلسلها الزمني:

1 – إستخدام النظام الدكتاتوري المقبور للأسلحة الكيمياوية ضد القوات الإيرانية بالقرب من الحدود في جنوب العراق، وإرتداد سمومها بفعل الرياح القوية الى الأراضي العراقية، وتفسخ الجثث الملوثة المدفونة في التربة العراقـية، الى جانب المعدات العسـكرية وركام الحـرب المتنوع.

2– تدمير الأهوار والأنهار العراقية بتأثير الحرب العراقية –الإيرانية، وبأيدي أجهزة النظام العراقي السابق.

3-إستخدام الأسلحة الكيمياوية ضد حلبجة و غيرها من المدن و القصبات الكردية العراقية، وفي الأهوار، من قبل قوات النظام انذاك.

4-إستخدام مئات الاطنان من ذخيرة اليورانيوم المنضب، أو المستنفد، ضد القوات العراقية من قبل القوات الأمريكية والبريطانية و الفرنسية في عام ١٩٩١، وما يزال الركام المشع و السام كيمياوياً، الذي خلفته تلك الحرب، منتشراً في جنوب العراق، مسبباً كارثة صحية وبيئية وخيمة.وقد أثبت العالم البريطاني كريس بسبي بنفسه بان ذلك الركام سام ومشع حتى بعد مرور عقد كامل. وأكد العالم الكندي، منذ سنوات، إصابة أكثر من ١٠٠ ألف مواطن في البصرة بالسرطان، ووجد اليورانيوم المنضب في أجساد المدنيين هناك. واعرب د. سعيد اسماعيل حقي، عندما كان وزيراً مؤقتاً للصحة، عن قلقه البالغ من ارتفاع نسب الاصابة بالامراض السرطانية في مدينة البصرة. واكد في تصريحات له في ١٦/٨/٢٠٠٣ ان حالات الاصابة بالامراض السرطانية المتوقع تسجيلها لاحقا تنذر بما وصفه بالكارثة السرطانية الخطيرة. واوضح ان ازدياد الاصابة بهذه الامراض يعود الى مخلفات الحروب التي شهدتها منطقة البصرة تحديدا ولا سيما حرب الخليج الثانية التي استخدمت فيها كميات كبيرة من اليورانيوم المنضب، مشيرا الى ان نتائج هذا المركب بدأت تظهر على السطح بشكل قد لا يمكن السيطرة عليه.

5- حرق آبار النفط الكويتية من قبل قوات صدام وما سببه الدخان السام من تلوث و أمراض كثيرة طالت العراقيين والكويتيين والسعوديين والإيرانيين، وغيرهم.

6- تدمير أسلحة الدمار الشامل العراقية في الأراضي العراقية، بطرق عشوائية- كالتفجير مثلاً - من قبل خبراء الأمم المتحدة، وإنتشار غبارها الملوث الى عشرات الكيلومترات، فضلاً عن الذي تم دفنه في التربة،وإحتمال تسربه الى مجاري الماء، والى شبكة المياه الجوفية، والى المزروعات، وغيرها.

7-إستخدام أسلحة اليورانيوم المنضب مجدداً في الحرب الأخيرة من قبل القوات الأنكلو- أميركية، بكمية قدرت بـ ٣- ٦ أمثال وبقوة ٤-٨ أضعاف ما إستخدم منها في عام ١٩٩١.وما يزال الركام الذي خلفته، من المعدات العسكرية العراقية المضروبة- دبابات ومدرعات ومركبات وصواريخ ومدافع ودشم- منتشراً في أرجاء العراق، في المدن والضواحي والمحلات والأزقة، حيث يلعب الأطفال ويلهون فوقها وحولها، ولم يحذرهم أحد، ولا ذويهم، من خطورة الإقتراب منها، وهي مشعة وسامة- كما أثبت القياسات التي أجريت لها والأبحاث الميدانية العلمية، المحلية والأجنبية.ونشير هنا الى سكوت بيترسون، من صحيفة "كريستيان ساينس مونيتور" الأميركية، الذي أجرى في ١٥ آيار الماضي، فحصاً لقياس إشعاعات الركام الذي خلفته أسلحة اليورانيوم المنضب في مناطق داخل بغداد، أثبت وجود مستويات تتجاوز القياس العادي- المسموح به- بما بين ١٠٠٠ و ١٩٠٠ مرّة..

8-الدخان السام الناجم عن إشعال النار في الخنادق المليئة بالنفط الأسود، المحيطة ببغداد، من قبل قوات صدام، وما سببه من تلوث وأضرار بيئية وصحية.

9-إنتشار الذخائر الحربية، وقنابل النابالم والعنقودية أو الإنشطارية والصواريخ غير المنفجرة، في أرجاء العراق، الى جانب إنتشار البنايات المهدمة، التي ضربت أثناء الحرب،

وتراكم النفايات، والأوساخ، والمياه الآسنة، ومستنقعات مياه الصرف الصحـي، في الأحياء الشعبية، ووجود ملايين الألغام الأرضية التي زرعها النظام البائد على طول الحدود العراقية،الخ. علما بأن خبراء في نزع الالغام أكدوا بان ازالة مئات الاطنان من المتفجرات والقنابل الانشطارية والصواريخ التي تتناثر بين المناطق السكنية، في مختلف مناطق العراق، يتطلب ما لا يقل عن ١٨ شهرا الى ١٠ سنوات.وقال روجيه هيس- من المؤسسة السويسرية لازالة الالغام، وهي منظمة غير حكومية كلفتها الامم المتحدة تنظيف العراق من مختلف المتفجرات والالغام : ان ما نعثر عليه اخطر من الالغام التي يمكن ان تقتل شخصا او اثنين. ان الصواريخ يمكنها ان تقضي علي الكثير من الناس.

10- وهناك التلوث الإشعاعي جراء المخلفات النووية، التي نهبت حاوياتها من المخازن الموجودة في مقر منظمة الطاقة الذرية العراقية في التويثة، حيث تم تفريغ محتوياتها الملوثة إشعاعيا في الأنهر أو في التربة، وتم إستخدام الحاويات لجهل السكان باحتوائها على مواد مشعة قاتلة.وكان خبير السلامة النووية المهندس د. حامد الباهلي- من منظمة الطاقة الذرية العراقية- من أوائل الذين نبهوا الى التسرب الإشعاعي الخطير الذي حصل عقب عمليات النهب في التويثة، وناشدوا العالم والوكالات الدولية المتخصصة بالتحرك الفوري لدرء الكارثة. وعلى المستوى الدولي دق د. محمد البرادعي- المدير العام التنفيذي للوكالة الدولية للطاقة الذرية التابعة للأمم المتحدة ناقوس الخطر، بالإستناد الى شهود عيان، محذراً من احتمال حدوث تلوث كبير في العراق بعد التقارير التي وردت عن مستوى العبث الذي حصل في المراكز النووية العراقية، وطالب الولايات المتحدة بالسماح لخبراء وكالته دخول العراق فوراً للتقصي وتقييم حجم الأضرار .غير ان الإدارة الأمريكية لم تسمح لفريقه العلمي إلا بعد مرور ٦ أسابيع.ليس هذا فحسب، بل ومنعته من محاولة دراسة الاثار البيولوجية والبيئية لما حدث، وحددت عمله بمعاينة ما تبقى من مركز التويثة بعد النهب والتدمير حسب. وأكد الفريق العلمي المتخصص بالتلوث الإشعاعي التابع لمنظمة السلام الأخضر الدولية "غرين بيس"، بالإستناد الى القياسات الإشعاعية التي أجرها في منطقة التويثة، وجود تلوث إشعاعي خطير على بعد كيلومترات من الموقع النووي، في الحقول والبيوت المجاورة.وأكد د. خالد عباس رشيد- مدير قسم تقنيات المياه في منظمة الطاقة الذرية العراقية،أن عمليات نبش المدافن النووية واستخراج بعض محتوياتها سبب ارتفاع نسب التلوث الإشعاعي إلى معدلات عالية جدا، تجاوزت في بعض المناطق الحدود المسموح بها دوليا للسلامة الإشعاعية، حيث بلغت درجة الإشعاع نحو ١١ ألف وحدة قياسية.

11- وهناك أيضا مشكلة حاويات القنابل التي تم إلقاؤها في نهر دجلة تحت مرأى ومسمع القوات الأمريكية، التي لم تحرك ساكنا. وتكفي الإشارة هنا أن بعض الأسماك تموت بعد ٣ ثواني فقط من إلقائها في مياه الأنهار، هذا علاوة على مشكلة الصرف الصحي، التي تتسرب مياهه إلى نهر دجلة. وأكد المهندس رياض نعمان- مدير مشروع "الرستمية" للصرف الصحي في بغداد، بان ملايين الناس يشربون من مياه النهر دون تعقيم، ودون أي مؤشر على قرب توفر حلول حقيقية لهذه المعضلة، مشيرا إلى أن مشروعه متوقف عن العمل حاليا بسبب تعرضه إلى القصف الأمريكي، إضافة إلى أن أعمال السلب والنهب طالت بعض المعدات والأجهزة.

12 -وثمة ظاهرة أخرى نبه اليها د. زيد عبد الكريم-مدير مستشفى اليرموك، ألا وهي أن حدائق المستشفى تحولت، شأنها شأن حدائق مراكز صحية أخرى، إلى مدافن خلال الحرب وما بعدها، نظرا لعدم توفر الوقود الكافي لتشغيل السيارات ونقل الموتى إلى المدافن المخصصة أو حفظها في الثلاجات. أما التلوث البيئي، فوحده يُمثل مأساة كبرى. الى هذا أشارت الأنباء الى إكتشاف مقابر جماعية لأشخاص أجريت عليهم تجارب بالغازات السامة والكيماويات والجراثيم البيولوجية القاتلة لتصفيتهم من قبل الأجهزة القمعية للنظام السابق.

13 - من جهة أخرى نبه السيد فيصل الحمداني- مدير المختبر المركزي في وزارة الصحة العراقية، الى إن العديد من الحاويات التي تضم نماذج من الفيروسات الاختبارية تمت سرقتها من المختبر، ووقعت في أيدي العابثين ،ومن غير المستبعد أن يلجأ بعض هؤلاء إلى تلويث مصادر مياه الشرب بتلك الفايروسات. وهناك أيضا مشكلة هروب نحو ٧٠ مريضا من المصابين بالأيدز من مستشفى العدل الصحي، وهم في حالات مرضية متقدمة، الأمر الذي يُمكن أن يهدد بكارثة صحية.

14- ولاحظ العلماء ارتفاع نسبة العوالق في شط العرب وفم الخليج، ولم تمر على اندلاع القتال في العراق سوى إسبوعين. ويرى علماء الأمم المتحدة أن ارتفاع نسبة العوالق هو مؤشر على وجود الكثير من المواد العضوية في المياه. وتتسلل هذه المواد إلى مياه شط العرب والخليج بفعل فتح المجاري على مياههما واختلاط المياه الآسنة بمياه التصريف. ويجري هذا على وجه الخصوص في مدينة البصرة التي تعاني من انعدام مياه الشرب منذ اكثر من ١٦ سنة، بسبب قصف القوات الإيرانية للمدينة إبان حرب الخليج الأولى. وتتسبب هذه الحالة بانتشار أمراض الإسهال والتايفوئيد، مع وجود خطر لانتشار الكوليرا في فصل الصيف. ويتكون شط العرب، كما هو معروف، من التقاء نهري دجلة والفرات في مدينة القرنة، وينتهي النهر الكبير في الخليج.

15 - وحذر الخبراء، ومنهم د. حسين زهدي- الرئيس السابق للهيئة العامة للأرصاد المصرية، بأن المناخ الحالي في العراق محمل بملوثات الحرب ذات التأثير السلبي على صحة الإنسان وكافة الكائنات الحية. وتتمثل الملوثات البيئية في العراق في سموم بيئية ناتجة عن مخلفات الأسلحة تصيب جسم الإنسان، خاصة الرصاص والمعادن السامة، كما يحتوي ناتج حرق البترول الخام على مخلفات بيئية تنذر بكارثة بيئية كفيلة بانتشار حالات مرضية مزمنة في العراق، حتى بعد انتهاء الحرب، مثل أمراض الجهاز التنفسي، وسرطان الرئة، والأمراض الناتجة عن التلوث البكتيري. ولم يقتصر الأمر على الإنسان فحسب وإنما سيمتد إلى الحيوان والتربة الزراعية والمياه، وهو ما يحتاج إلى تطهير بيئي حتى تصبح الحياة آمنة في العراق. وأشار د. خالد رشيد، إلى مضاعفات استخدام قوات التحالف الأمريكية والبريطانية لقذائف اليورانيوم المنضب، وخاصة في بعض المناطق الزراعية في جنوب العراق، حيث لوحظ وجود آثار للتلوث به في المياه الجوفية والتربة التي لم تعد صالحة للزراعة.

وللتدليل على خطورة أبعاد الكارثة البيئية القائمة في العراق نشير الى أن برنامج الأمم المتحدة للبيئة UNEP أكد بأن بيئة العراق قد تضررت كثيرا منذ الحرب العراقية الإيرانية

1980 – 1988، وحرب الخليج الثانية عام ١٩٩١، وتجفيف الأهوار، والعقوبات الاقتصادية، التي كانت مفروضة علي العراق، قد شكلت تهديدا رئيسيا للشعب العراقـي، وألحقـت ضررا فادحا بالبنية التحتية، وبالأخص تدمير نظم المياه والصرف الصحي، وانعدام الاستثمار في هذه النظم، مما أدي إلي مستويات أعلي من التلوث والمخاطر الصحية، فضلا عن أن انقطاع التيار الكهربــائي أدي إلي إيقــاف المضخات التي تعمل علي إزالة مياه البــالوعات، وتدوير المياه الصالحة للشرب، إضافة إلي انقطاع مصادر الطاقة عن عمل المضخات التي تقوم بإزالة المياه المالحة من الأراضي المروية في بعض المناطق الجنوبية، مما تسبب في توقف حــركة المياه. وأضاف إن المخلفات الطبية والقمامة يجب أن تزال لتقليل خطر تفشي أوبئة .

وحيال وخامة الوضع البيئي القائم في العراق، حذر البــرنامج المذكور، في تقــرير أعده بالتعاون مع الحكومة السويسرية، من المخاطر البيئية، التي ستواجه عراق ما بعد الحرب، ونبه الى ضرورة اتخاذ التدابــير العاجلة، خاصة للإغاثة الفورية، والتقــليل من مخاطر التعرض لليورانيوم المنضب، من خلال الاستعانة بالتكنولوجيا غير المضرة، وإعادة البناء الرئيســية، وتبادل المعلومات. ودعا الى ضرورة اتخاذ تدابــير عاجلة لتنظيف المواقــع العديدة التلوث، وتنظيف مواقع النفايات للحد من خطر انتشار الأوبئة بسبب تراكم النفايات والأوساخ في الأزقة والشوارع والمستشفيات، مما يخلق أجواء بــيئية صعبــة للغاية، الى جانب التدابــير العاجلة للقضايا الإنسانية في العراق، وأن تكون الأولويات بإعادة القدرة علي الإمداد المائي وتشــغيل أنظمة الصرف الصحي

وبــــناء عليه، حـــثت الأمم المتحــــدة على مواجهة التلوث في العراق، ودعت، في ٢٠٠٣/٤/٢٤، الى تدخل عاجل لإنقاذ مستقبل البيئة في العراق.وقــالت: هناك حــاجة لتعامل عاجل مع الأزمة البيئية في العراق والتي ســاءت بسبــب أضرار الحــرب وارتفاع معدلات التلوث. واقترحت دراسة قام بها برنامج البيئة للأمم المتحدة، وقــدمت مراجعة عامة للوضع البيئي في العراق، تستلزم إستكمالها بمعرفة ميدانية حديثة، أن يجري علماء وخبراء بــرنامج البيئة تقييما عاجلا عن أخطار المواقع التي قصفت بــيورانيوم منضب، ووجوب التعامل فورا مع أبرز مواضع التلوث.وقال الخبير بيكا هافستو– رئيس الفريق الذي أجرى الدراســة، إن " كثيرا من المشاكل البيئية في العراق مقلقة إلى درجة تحــتم الحــاجة إلى تقــييم فوري وخطة للتنظيف".وأكدت الدراسة بإن " الصراع العراقي في عام ٢٠٠٣ أضاف إلى المشاكل البــيئية الحادثة منذ حرب الخليج عام ١٩٩١ والحرب العراقية الإيرانية في الثمانينيات، وسوء الإدارة، وسوء الاستغلال الذي طبع فترة حكم نظام صدام حســين".وأضافت بــإن من نتائج الحــرب الأخيرة: تزايد الأضرار التي لحقــت بــنظم توصيل المياه والصرف الصحــي، مما أدى إلى معدلات عالية من التلوث والأخطار الصحية. انقطاع التيار الكهربائي بــصورة متكررة، مما يتسبب في توقف عمل المضخات التي تزيل المخلفات وتوزع المياه. انقطاع الطاقــة أثر على المضخات التي تزيل الماء المالح من الأراضي في جنوب العراق، مما تسبــــب في إغراق مزارع وتلويثها بالملح. الأدخنة المنبعثة من حرائق آبار البترول واشتعال خنادق النفط أضاف مزيدا من التلوث إلى الهواء والتربة. تدهور النظام البيئي بسبب القصف المكثف وحــركة عدد كبير من المركبات والقوات. وقالت الدراسة إن استخدام ذخيرة اليورانيوم المنضب ربما "سبب

تلوثا بيئيا بمستويات غير معروفة العواقب حتى الآن".وأضافت أنه يجب تقديم النصيحة إلى العراقيين حول كيفية تجنب التعرض إلى اليورانيوم المنضب.

وأعلن المدير العام التنفيذي لبرنامج الأمم المتحدة للبيئة د. كلاوس توبفر :ان العراق يفتقر الى دراسة بيئية معمقة بسبب انقطاع المنظمة عن متابعة اوضاعه طوال عشرين عاماً من الحروب خلال نظام صدام حسين، حيث كانت الصعوبة كبيرة في الحصول على المعلومات.واضاف في حديث صحفي خلال مؤتمر البيئة العالمي الذي عقد في بيروت: ان العراق يشكو من اوضاع صعبة متعلقة بالمياه، لا سيما المياه العذبة، اضافة الى التلوث، ولا بد من الذهاب الى هناك للاطلاع على حقيقة الاوضاع". مبدياً امله في "ان يتمكن الاختصاصيون ابتداء من هذه المرحلة بالقيام بما يجب لتحديد المعطيات المتعلقة بالصحة البشرية وموضوع النفايات وحماية الزراعة وتأهيل البنى التحتية ودراسة اوضاع محطات الطاقة لتوفير السلامة البيئية. واعتبر توبفر ان العراق يواجه تحديات مرتبطة بكيفية انعاشه بيئياً وتوفير الاولويات الضرورية ووضع المشاريع القصيرة الاجل لملاحقة الاخطار الطارئة وتطويق تأثيراتها السلبية على ان توضع بعد ذلك المشاريع الطويلة الأمد.

ويذكر ان البرنامج المذكور قدم في شهر نيسان ٢٠٠٣ طلباً للإدارة الأمريكية للسماح لفريق علمي من خبرائه بدخول العراق بهدف تقييم حجم الأضرار البيئية والصحية عقب الحرب مباشرة، غير ان الإدارة الأمريكية لم تسمح له لحد اليوم، ولم تبرر رفضها لطلبه.وقال مديره العام التنفيذي، في مقابلة مع مجلة " البيئة والتنمية": هناك قلق شعبي كبير من التأثيرات المحتملة للأسلحة المحتوية على يورانيوم منضب، وثمة وجهات نظر متضاربة حول العواقب البيئية والصحية لإستعمال هذه الذخائر .لذلك يرى البرنامج ان هناك حاجة ملحة الى مزيد من الدراسات،وأن من الحكمة إجراء تقييمات شاملة للمخاطر بغية تعزيز الفهم العلمي للطريقة التي يعمل بها اليورانيوم المنضب في البيئة.وهذا هو أيضاً موقف الأكاديمية العلمية البريطانية.

ولا يفوتنا التذكير بتقرير، أعده خبراء للامم المتحدة، عن متوسط الأعمار في العراق في المستقبل المنظور، بالإستناد الى وقائع ومخاطر إنتشار التلوث في المنطقة، نشر في شباط/ فبراير ١٩٩٨، توقع فيه، إرتباطا بنتائج التلوث الذي تتعرض له البيئة العراقية، إنخفاض متوسط الاعمار في العراق الى حوالي ٣٠ عاماً بحلول العام ٢٠١٠، وذلك بسبب التلوث البيئي.وقال د.جون دانكر–أحد الباحثين البيئيين البارزين في البرنامج المذكور، ان متوسط الأعمار سيكون الأكثر تأثراً بانتشار التلوث في هذه المنطقة من الناحية الديموغرافية. وأكد د.جي اوران–الباحث في برنامج الأمم المتحدة لمكافحة التلوث في جنيف: إن نسبة التلوث في العراق قد تضاعفت ٨ مرات على الأقل خلال السنوات الأخيرة في بعض المناطق الحضرية، لتصل الى ٨٧ % مقابل ١١ % سابقاً.وتترافق ظاهرة تناقص الأعمار– وفقاً لطبيب الأطفال فوستر– مع زيادة عدد اليتامى. وتفيد أرقام برنامج الأمم المتحدة لمكافحة التلوث وجود عدة ملايين من الأطفال العراقيين الأحياء لن يعيشوا لأكثر من سن العشرين.ويتوقع البرنامج ان تتضاعف وفيات الأطفال ٣ مرات بحلول عام ٢٠١٠ في جميع أرجاء العراق بسبب التلوث.ومن المؤكد ان المؤشرات الحياتية المذكورة قد زادت سوءاً عقب الحرب الأخيرة على

العراق و إستخدام الأسلحة المشعة الفتاكة مجدداً خلالها.

لكل ما مر، يتعين أن تكون المهمة الأولى و الأساسية لوزارة البيئة العراقية مكافحة التلوث البيئي الراهن بكل أشكاله وحيثما وجد في أرجاء العراق.ووضع ضوابط ومعايير عصرية لحماية البيئة العراقية من الملوثات الصلبة و الغازية و السائلة.ومكافحة الحشرات و القوارض. ويتطلب أن تستعين الوزارة بفريق كبير من خبراء وباحثين بيئيين، تتوفر لهم كافة الإمكانات والدعم المادي والمعنوي، بالإضافة الى لائحة قانونية جديدة تنظم واجبات الوزارة وصلاحياتها- بعد إلغاء القانون رقم ٢ لسمة ١٩٩٧، الذي تأسس بموجبه " مجلس حماية البيئة وتحسينها"،وأصبح رئيسه وزير الصحة ونائبه وكيل وزارة الداخلية،ولم يقم بأي شيء يذكر لحماية البيئة العراقية وتحسينها..

ومن نافلة القول أن ضمان نجاح وزارة البيئة بواجباتها يستلزم تأسيس مراكز متخصصة تابعة لها، كمركز لأبحاث التلوث البيئي،ومركز يعنى ببيئة العمل وإدارة النفايات البلدية والطبية،ومركز لتأهيل الكوادر البيئية،ومركز إعلامي مهمته نشر الوعي و الثقافة البيئية،وغيرها، مزودة بكافة ما تحتاج اليه في عملها، من كوادر، ومساعدين، ومعدات وأجهزة، ووسائل نقل وإتصالات،وما الى ذلك..

ويتعين على مجلس الحكم الإنتقالي و الحكومة العراقية المؤقتة، إلزام وزارات الصحة، و العلوم و التكنولوجيا،و التعليم العالي و البحث العلمي، وكافة المؤسسات البحثية المعنية، ومركز مكافحة السرطان،، بتقديم العون اللازم لوزارة البيئة.

وفي هذا السياق لابد من التفاوض مع قوات الإحتلال، و الضغط عليها، لتنفيذ إلتزاماتها، كقوة محتلة، بموجب إتفاقات جنيف، وإلزامها بتقديم العون المطلوب لوزارة البيئة، ولمركز أبحاث التلوث البيئي التابع لها، وفي مقدمته الأجهزة والمعدات الحديثة، والخبرات العلمية، الى جانب السماح للوكالات الدولية المتخصصة، وفي مقدمتها برنامج الأمم المتحدة للبيئة UNEP ومنظمة الصحة العالمية WHO و الوكالة الدولية للطاقة الذرية IAEA و الوكالة الدولية لمكافحة السرطان، و الوكالة الدولية لمكافحة التلوث،وغيرها،بدخول العراق فوراً، وتقديم العون والمساعدة، والمساهمة في إجراء الدراسات والتقييمات الميدانية الشاملة، ووضع المعالجات الجدية للمشاكل البيئية القائمة، الى جانب إلزام سلطة الأئتلاف المؤقتة بتنظيف العراق من نفايات الأسلحة المشعة، وإزالة" مقابر" الأسلحة المضروبة.وبذلك فقط نضمن نجاح وزارة البيئة في مهماتها الجسيمة..

أخيراً،لا يفوتنا التذكير بحقيقة معروفة، وهي : يستحيل إعادة إعمار العراق، وتحقيق البديل الديمقراطي المنشود،وبناء مؤسسات المجتمع المدني، في ظل خراب بيئي شامل، وتلوث قاتل للإنسان و الحيوان و النبات، بينما تفتقر الدولة الى مؤسسة فاعلة تهتم جدياً بهذا الجانب الحيوي!

*طبيب، وباحث في شأن اليورانيوم المنضب وأضراره الصحية والبيئية، ومحرر علمي، عضو هيئة تحرير "المجلة العلمية العراقية" على الإنترنيت www.iraqisciencejournal.com -
أرسلت ل"الثقافة الجديدة" في ٢٠٠٣/١٠/١٤

أخطار اليورانيوم المشع

عبد اللطيف زرنه جي



أهداف المقالة:

1-اطلاع وتوعية أكبر عدد من الناس على مخاطر اليورانيوم المشع.

2-دعوة بقية العلماء والمهندسين لمتابعة البحوث عن أخطار اليورانيوم المشع.

3-حث الدول العربية والجهات المعنية ولاسيما هيئة الطاقة الذرية والمؤسسات العلمية الاخرى على تأمين المستلزمات والتجهيزات والأجهزة المتقدمة التي تستطيع الكشف المبكر عن وجود المواد المشعة، ووضع دراسات وإحصائيات عن مخاطر المواد المشعة.

4-ضرورة أخذ الإعلام دوره بكافة مجالات النشر في كل مايتعلق بهذا الخصوص.

ان الموضوع يتعلق بمستقبل الأجيال ومصير الشعوب والدول.

مقدمة:

تتكون الكرة الأرضية من عناصر طبيعية يبلغ عددها (٩٢) عنصراً، ويصل عددها الى (١١٤) عنصراً مع العناصر غير الطبيعية.

إن جميع المواد في الكرة الارضية سواءً كانت حية مثل الانسان، الحيوان، النبات، الجرثومة، الفيروس، وحتى المواد الجامدة الصلبة والسائلة والغازية تتكون من هذه العناصر. تعتبر ذرة الهيدروجين اخف الذرات واليورانيوم أثقلها. نرمز للذرة عادة بالشكل التالي: M_{z}^{A}

حيث:

M رمز ذرة العنصر

A الكتلة الذرية

Z العدد الذري

تختلف ذرة عن اخرى بالعدد الذري Z بالدرجة الاولى وبالكتلة الذرية A بالدرجة الثانية. الذرة عبارة عن نواة تحتوي على بروتونات موجبة وعلى نيترونات بدون شحنة وتدور حول هذه النواة الالكترونات سالبة الشحنة. يقدر قطر الذرة ١٠ $^{-8}$ سم وقطر النواة (10^{-12}سم). أي اذا اعتبرنا قطرة الذرة ١م موضوع في ساحة الأندلس مثلاً، فإن أقرب الكترون يدور حولها على بعد عشرة كيلومترات أو أبعد من ذلك. أي بمعنى آخر تكون الذرة عبارة عن فراغ يتخلله بعض المادة. تكون الذرة مستقرة أو أكثر استقراراً بوجه عام في الحالات التالية:

-إذا كانت الذرة صغيرة.

-إذا كان عدد البروتونات والنيترونات مزدوجاً.

- إذا اقترب عدد النيترونات من عدد البروتونات.
-إذا كان عدد البروتونات مساويا لعدد النيترونات.

تطلق الذرة غير المستقرة أشعة وتتحول الى عناصر اخرى مع مرور الزمن.

نظراً لأن اليورانيوم هو أثقل ذرة بين العناصر الطبيعية في جدول مندلييف، فإنه يكون أقل استقراراً.

يعتبر اليورانيوم كما أشرنا سابقا أثقل الذرات الطبيعية، ومن اهم العناصر المشعة، ويتألف اليورانيوم الطبيعي من ثلاثة نظائر هي:

- يورانيوم ٢٣٨ - U يشكل نسبة ٩٩,٣% من اليورانيوم الطبيعي.
- يورانيوم ٢٣٥ - U يشكل نسبة ٠,٧% من اليورانيوم الطبيعي.

نشاهد في الجدول التالي كيفية توزع عدد البروتونات والنيترونات والكتل الذرية في يورانيوم الطبيعي. مما يشكل نسبة قليلة جدا من اليورانيوم الطبيعي.

النظير ISOTOPE	عدد البروتونات	عدد النيترونات	الكتلة الذرية
يورانيوم U-٢٣٤	٩٢	١٤٢	٢٣٤
يورانيوم U-٢٣٥	٩٢	١٤٣	٢٣٥
يورانيوم U-٢٣٨	٩٢	١٤٦	٢٣٨

تحتوي القشرة الارضية على كمية من اليورانيوم ليست بالقليلة (تساوي تقريبا كمية مادة الرصاص)، حيث تقدر بـ ٠,٠٠٠٥% من كل القشرة الأرضية، أي ١٠٠٦٥ ١٢ طن ويكون مبعثراً في جميع الدول، ولكن يتواجد في بعض الدول بنسب أكبر مثل: كونغو، نيجر، تشيكوسلوفاكيا، موريتانيا، كندا، جنوب أفريقيا، الهند، اسبانيا، البرتغال.

يتواجد في العالم العربي حرا ومع الفوسفات، حيث يشكل في الفوسفاتية ٠,٠١٥%.

تصل احتياطات الوطن العربي من اليورانيوم الى ١,٥ مليون طن من فلزات اليورانيوم الأولي U3، O8

وإجمالي الاحتياطي الثانوي من الفوسفات الى ٤,٩١٥٣ مليون طن.

ان معدل اكتشاف اليورانيوم في العالم وصل في التسعينات الى مابين ٢٠٠-٣٠٠ الف طن/سنويا.

تعريف نصف عمر المادة المشعة:

نصف عمر المادة المشعة هو الزمن اللازم كي تتحول نصف الكمية المشعة الأصلية الى

عناصر اخرى، حيث لايبقى من المادة المشعة الاصلية سوى أقل من ١% بعد ٧ انصاف اعمار.

نجد في الجدول التالي أهم العناصر المشعة وأنصاف اعمارها.

العنصر المشع	نصف العمر
الثوريوم Th-٢٣٢	١٠٠١,٣٣^{١٠} سنة
اليورانيوم U-٢٣٨	١٠٠٤,٥٦^{٩} سنة
اليورانيوم U-٢٣٥	٧١٠ مليون سنة
البلوتونيوم Pu-٢٣٩	٢٤٠٠٠ سنة
الراديوم Ra-٢٢٦	١٥٩٠ سنة
الراديوم Ra-٢١٨	٣,٠٥ دقيقة
البولونيوم Po-٢١٢	١٠٠٣$^{-٧}$ ثانية

آثار اليورانيوم المستنفد (المنضب) على الانسان:

يعتبر الانسان المتضرر الاول من تاثير المواد المشعة ولاسيما النووية منها. إذ تتالف معظم مصادر الاشعة الخارجية من الإشعاعات غاما والأشعة الكونية الخطرة جداً. كما ان المصادر الداخلية الناجمة عن تحلل المواد المشعة في الأرض تسبب مشاكل اضافية لاتقل عن المصادر الخارجية.

لقد أثبتت الدراسات ان المساكن التي تقع في أماكن مرتفعة هي أكثر عرضة للأشعة من المساكن المنخفضة، يصل مستوى الأشعة عند مستوى سطح البحر الى ٠,١٥ راد/السنة، بينما في طبقات الجو العليا ولاسيما داخل أحزمة (فان الان) فتصل الى ١٠٠٠ راد/السنة، ولهذا يسعى رواد الفضاء عادة الى اجتياز هذه الطبقة بأقصر مدة زمنية خلال الرحلات الفضائية.

اصدرت الهيئة العالمية للحماية من ضرر الإشعاع (icrp) أنظمة حددت بموجبها جرعة الإشعاعات المسموح بها للكائن البشري بـ ١٠٠ ميللي راد في الاسبوع، أو ٥ راد في السنة بشرط أن لاتزيد كمية الاشعة المتراكمة عن ٢٥٠ راد طيلة العمر.

الرادار:-

هي كمية الاشعاعات التي تنتج مقدارا من القدرة الضارة يعادل وقع (تأثير ضرر) ١٠٠/أرغ على غرام واحد من الانسجة الحيوية.

يتعرض الإنسان بوجه عام الى ١ميللي راد من الاشعة في السنة صادرة عن التلفزيون،

كما يتعرض الى ٢ ميللي راد من ساعة اليد أو ساعة الحائط إذا كانت مطلية بمادة الراديوم وقد تتراكم لغاية ١ راد في السنة، كما يتعرض الانسان الى ١ راد من التصوير الشعاعي في السنة، لكن على مستوى الانسان ككل فلا تتعدى ٥٠ ميللي راد في السنة عادة، كما يتعرض رجل الفضاء الى مايعادل ١٥٠ راد في السنة الواحدة خلال وجوده في الفضاء.

نستطيع استخدام جرعة شعاعية لغاية ٦٠٠٠ راد من المعالجة من مرض السرطان ضمن منطقة محددة جداً من جسم الانسان. أثبتت الدراسات أيضاً ان مستوى الاشعاعات إذا زاد الى ١٠٠٠٠ راد، فإن الانسان يموت بعد عدة أيام عادة. كما أثبتت الدراسات والاختبارات ان تاثير الاشعاعات يختلف حسب الجنس، فالرجل لايستطيع تحمل أكثر من ١٠٠٠ راد، بينما المرأة لاتستطيع تحمل أكثر من ٣٠٠ راد. ان تأثير الاشعاعات يرتبط كثيراً بالعمر وبصحة المريض. تكون الاشعة أكثر خطورة على الخلايا حديثة التكوين، وتشكل خطورة أكبر على المرأة في فترة المراهقة، كما ان بعض اجزاء الجسم أكثر حساسية تجاه الاشعة من غيرها مثل: الخلايا العصبية، خلال الامعاء، الكلية، الدم، الاعضاء التناسلية، الكبد، المورثات...الخ.

إن خطورة الاشعاعات تكمن بأنها تدخل الى داخل نواة الخلية الحية فتدمر كامل محتوياتها ولاسيما السجل الوراثي (DNA) وبالتالي تصبح الخلية مخبولة ولاتستطيع ان تنقسم الى خلايا جديدة يمكن ان تقوم بوظائفها، والخطورة الكبرى على خلايا الدم الحمراء التي لاتحتوي على نواة وبالتالي عندما تموت لايمكن ان تتجدد، والاخطر من ذلك إذا اصابت الاشعة مراكز تولُيد الكريات الحمراء في الطحال أو النخاع العظمي. كما ان خلايا الاعصاب ليست بطبيعتها قادرة على الانقسام، مما تسبب خطورة كبيرة عليها، أما الخلايا البيضاء فإنها عندما تُصاب تفقد الانسان المناعة ويصبح الانسان اشبه بمريض الايدز لايستطيع ان يقاوم الجراثيم.

يصعب اكتشاف الاشعة فهي بلا لون ولا رائحة ولاطعم ولايستطيع الانسان ان يتعرف عليها باللمس، برغم ذلك فإن بعض الناس يشعرون بوخز عندما يصل مستوى الاشعة الى ١٠ راد فوق الجلد.

تدخل أغلب الاشعة الى جسم الانسان عن طريق الفم والتنفس وصعب عليها الدخول عبر الجلد.

إن من أهم عوارض الاشعة العالية المستوى على الانسان هي: الغثيان – القيء – النزيف الدموي – الاسهال – فقر الدم – فقدان الذاكرة – نقص الوزن – فقدان الشهية على الطعام – خوار القوى – ابيضاض الشعر – ضعف البصر – الشيخوخة المبكرة – ضعف القدرات الجنسية – احمرار الجلد ....الخ.

جرت دراسات واختبارات عديدة في العالم على تاثير الجرعات الاشعاعية على مختلف الكائنات ووضع لذلك معايير ومصطلحات مثل (LD-50) تعني الجرعة من الاشعة التي تؤدي الى موت ٥٠% من الموضوعين تحت الاختبار والمعرضين للأشعة، كما وضع المصطلح (LD_50/30) الذي يعني الجرعة الاشعاعية اللازمة التي تؤدي الى موت

٥٠% من الكائنات الموضوعة تحت الاختبار خلال ٣٠ يوما.

النفايات النووية:

يقدر حجم النفايات الطبيعية الصادرة عن الانسان والزراعة والصناعة وغيرها بـ ٧٧٠ مليار طن أي يقدر نصيب الفرد في الكرة الارضية بـ ١٢٠ طن/فرد/سنة. كما يقدر العلماء ان النفايات الضارة ولا سيما النفايات النووية فتصل لوحدها الى ٤٠٠ مليون طن في السنة، أي أكثر من ١ مليون طن في اليوم. كما يقدر حجم النفايات الملوثة للبيئة والمضرة بالانسان في بعض الدول بـ:

- 70 مليون طن سنويا في أمريكا.
- 50 مليون طن في الاتحاد السوفياتي السابق.
- 35 مليون طن في أوروبا.

ان نواتج المفاعلات النووية الخطرة كثيرة جدا، ويمكن ان يصدر من هذه المفاعلات أكثر من ١٣٠٠ نظير، منها مواد مشعة واخرى عناصر مشعة ضعيفة وثالثة عديمة الخطورة وكل مادة تلامس أجزاء المفاعل أثناء عمله تصبح مشعة بما في ذلك الماء وضارة بالانسان والبيئة. عادة تهدأ هذه النواتج تدريجيا ويستمر نشاطها الإشعاعي حتى ٥٠٠ سنة، حيث تُعاد هذه النفايات الى تربة الأرض بعد ذلك. لكن بشرط دفنها ضمن شروط فنية قاسية فور خروجها من المفاعلات كما ذكرنا مدة ٥٠٠ سنة في باطن الارض أو في البحار.

يكلف عادة دفن طن واحد من هذه النفايات في امريكا وأوروبا ٢٠٠٠ دولار، بينما لاتزيد التكلفة عن ٢٠٠ دولار في الدول النامية وربما يدفن سرا ومجانا فيها بدون معرفة الحكومة والشعب.

يتوفر لدى امريكا ٧٠ مليون كيلوغرام من اليورانيوم المنضب/المستنفد/ تكفي لصنع أكثر من ٥٠٠ مليون قنبلة مما يزيد الامور خطورة على الانسان والبيئة.

ان اكثر المفاعلات قد بنيت منذ عشرات السنين ويقدر عمر المفاعل عادة بين ٤٠ – ٣٥ سنة، أي يجب تفكيك المفاعلات القديمة وهذا يتطلب شروط فينة على غاية من التعقيد والكثير من التكاليف وتستغرق زمنا طويلا تفوق جميعها بناءها. إذ ان رأس دبوس من مادة مشعة يحتاج لمنع أضراره مالايقل عن ٣ طن من الاسمنت.

أخيرا أصبح بالامكان صنع قنبلة نووية صغيرة تعادل ١ كيلو طن من مادة (TNT) بحجم فنجان قهوة أو حتى بحجم قلم، فيما اذا استخدمنا عنصر كاليفورنيوم (Cf) أو عنصر امريكيوم (Am).

تجدر الاشارة الى اننا كي نخفض أشعة غاما الى العشر (طاقتها ٢ مليون اليكترون فولت)، فإنه يلزم سُمك ٤٨ سم من الماء أو ٢٥ سم من الباطون المسلح، او ٦,٧ سم من الحديد، أو ٤,٣ سم من الرصاص.

بينما يمكن ١سم من الالومنيوم إيقاف جمع البروتونات والالكترونات المنطلقة من العناصر المشعة. إن ضرر أشعة غاما هو أقل ضررا من النيوترونات بـ ٥٠ مرة.

اليورانيوم المستنفد (المستنفد - المنضب) Depleted Uranium

لقد وجدنا سابقاً بأن اليورانيوم الطبيعي يتالف من ثلاثة نظائر، الفعّال منها هو اليورانيوم U-235 الذي يشكل نسبة ٠,٧% فقط. عندما نرفع هذه النسبة عندئذ يسمى باليورانيوم المخصب وعادة يجب ان تكون نسبة التخصيب ١٠% أو ٢٠% أو لغاية ٥٠% حتى يصلح هذا اليورانيوم لصنع القنبلة الذرية. ان التخصيب لغاية ٥% لايصلح لصنع القنابل الذرية لهذا تتسامح به هيئة الطاقة الذرية العالمية ولاتعتبره خطراً أما اذا خفضنا نسبة اليورانيوم الفعّال U-235 عن نسبة ٠,٧% فيسمى باليورانيوم المستنفد(المستنفد - المنضب) وغالباً مانحصل على اليورانيوم المستنفد من المخلفات النووية من المحطات الكهربائية النووية أو من المفاعلات المخصصة للأغراض العسكرية أو لأغراض علمية. تكون نسبة اليورانيوم الفعّال في هذه الحالة بين ٠,٣ - ٠,٢% . بغية انتاج قذائف أكثر تدميراً وقتلاً فقد استخدم في بادىء الامر مادة التنغستين، لما لهذه المادة الثقيلة من القدرة على الاختراق أكثر ولاسيما الدبابات، لكن سرعان ماتبين انه يمكن وبشكل أفضل استخدام اليورانيوم المستنفد الذي هو أثقل من الرصاص بـ١,٧ مرة وأكثر اختراقاً من معدن التنغستين بـ٢٠% حين تصطدم القذيفة الحاوية على اليورانيوم المستنفد وبخاصة بالدبابة أو غيرها فإن درجة الحرارة الآنية ترتفع لأكثر من عشرة الاف درجة منوية تؤدي الى تبخر معادن الدبابة وأكسدتها وتنتشر على شكل غبار ضار جداً على الانسان ولمسافات بعيدة. ان هذا الغبار المؤكسد يدخل جسم الانسان عن طريق التنفس ويصل الى الرئة لأن ابعاد ذراته من مرتبة مكرون ويكون مفعوله إما ساماً أو مشعاً. أكد العالم الالماني (ولفانغ كولاين) الخبير لدى الحكومة للحماية من الأشعة بأن اليورانيوم المستنفد إذا ترسب على جزح أو طعام أو في الهواء عندئذ تكون اشعته ومفعوله قوياً. يعتبر الكثير من العلماء بأن حرب الخليج الثانية عام ١٩٩١ بمثابة حرب نووية حيث اسقط الامريكان والانكليز على العراق مايقرب من مليون قنبلة تحوي على اليورانيوم المستنفد. منها ١٤ الف قذيفة عيار ١٢٠ و ١٠٥ملم، وكذلك أكثر من ٩٤٠ الف قذيفة صغيرة من عيار ٢٥ملم و ٣٠ ملم. علماً بأن كل قذيفة تحتوي على اليورانيوم المستنفد ومخصصة للطائرات يكون في داخلها ٣٣٠ غرام من هذا اليورانيوم والقذيفة المخصصة للدبابة تحتوي على ٤٥٠٠ غرام أي مجموع ما اسقط كان بين ٣٠٠ - ٨٠٠ طن يورانيوم مستنفد. كما ان امريكا وقوات التحالف اسقطت على يوغسلافيا أكثر من ١٠ طن منه في أعوام ١٩٩٢، ١٩٩٥، ١٩٩٩ حسب التقارير الاوروبية العلمية انه من المحتمل ان يصيب ٢٠ مليون انسان مع مرور الزمن. حسب احصائيات عديدة فإن الاشعة اذا اصابت مليون شخص وأصيب بالمرض ٦٠ شخصاً في الجيل الاول فإن احتمال اصابة ١١٠٠ شخص بمرض في الجيل الثاني.

لقد أظهرت الاحصائيات في العراق ان حالات الاصابات بالسرطان قد ازدادت من ٦٥٥٥ اصابة عام ١٩٨٩ الى ١٠٩٣١ اصابة في العام ١٩٩٨. ويعاني الكثير من العراقيين ولاسيما في البصرة وجنوب العراق من سرطان الدم والرئة والجلد والجهاز الهضمي، وان نسبة السرطانات ازدادت خمسة اضعاف على السابق وحالات الاجهاض ثلاثة مرات وتشوهات المواليد ثلاثة مرات ايضاً. لقد شارك من قوات التحالف في حرب الخليج الثانية عام ١٩٩١ ٦٧٩ الف جندي. اشتكى منهم ١٣٠ الف من أعراض تتراوح

مابين مشاكل في التنفس الى مشـــاكل في الكبـــد و الطحـــال و الكلية وكذلك ضعف الذاكرة والصداع و التعب المستمر واحيانا الحمّى.

من بينهم البروفيسور الميجر الامريكي (دوغ روكه) رئيس بـــرنامج تنظيف اليورانيوم المستنفد بعد الحروب والذي مكث اسبوعا واحداً في السعودية فقط حيث يحمل الان مايعادل (٥٠٠٠) مرّة اعلى من أية مجموعة شعاعية مسموح بها للانســـان. لقـــد اجريت له لغايته (١٥) عملية جراحية في الكبد. الجدير بالذكر ان تاثير المادة المشـــعة قـــد لاتظهر بشـــكل فوري، بل ان فترة الحصانة تمتد بين (٥-٦٠) ســـنة من عمر الانســـان. إذ لازالت هناك اصابات في كل من هيروشيما وناغازاكي ويموت من اليابانيين المئات ســـنويا. لقـــد أكد البروفيسور (عاصف دراكوفيتش) مدير المركز الطبي لأبحاث اليورانيوم في برنامج بـــلا حدود الذي بث من محطة الجزيرة يوم الاربعاء في ٢٠٠٣/٥/١٢ ان امراض حرب الخليج قد اصابت ٨٠ الف جندي أمريكي خلال ١٢ ســـنة مات منهم (٢٦) الف. كما ان مجموعة من الجنرالات الامريكيين الذين يقدر عددهم بألف جنرال قد ارسلوا مذكرة الى جورج بوش في مطلع شهر اذار عام ٢٠٠٣ اي قبيل حرب الخليج عام ١٩٩١ أصبحوا معاقين بموجب تقارير ادارة شؤون المحاربين الامريكيين القدامى، وان هذا العدد في تزايد يومي.

تزداد الخطورة ١٠٠ الف مرّة اذا احتوت القذائف على البلوتونيوم (Pu-239) وربـــما نشهد في المستقبل احداثا اكثر جسامة من قبل الدول التي تمتلك هذه الاسلحـــة وقـــد تزداد الامور تعقيداً اذا ما انتقلت مثل هذه الاسلحة الى أيدي عصابات متطرفة.

يقول البروفيسور عاصف دراكوفيتش اكتشفنا آثار مرض حـــرب الخليج عام ١٩٩١ من خلال الدراسة لحالات عشرات المرضى من الجنود الامريكيين الذين عادوا من الخليج الى الولايات المتحدة. فقد وجدت الكثير من الصعوبات في كشف اســـرار المرض والاسبـــاب التي تقف وراءه منها فقدان بعض العينات التحليلية واختفائها من المخابر أو فصل الاطبـــاء الذين كانوا يتعاونون معي. برغم ذلك توصلت الى ان هذه الامراض كانت بسبب الاسلحـــة التي استخدمت في العراق. وانها كانت كارثية بكل معنى الكلمة. واضاف انه بـــعد حـــرب افغانستان ارسلت عام ٢٠٠١ و ٢٠٠٢ فريقين من معهد مركز الابحاث اليورانيوم الطبية. حيث قام الفريقان بأخذ الكثير من العينات وتحليلها من عدة مناطق مثل: كابول - جلال آباد - تورا بورا - مزار الشريف - بيبي مهرز (ماهرو). اثبتت الدراسات والتحـــاليل الاولية المبدئية بانه لايوجد يورانيوم مستنفد في افغانستان. ولكن تم بعد ذلك اجراء تحـــاليل جديدة اخرى فتبيّن ان التلوث في افغانستان شاملاً كلٍ من الناس والتربـــة والماء والهواء بـــفعل يورانيوم من نوع آخر يشبـــه تركيب اليورانيوم الطبـــيعي مضافاً عليه يورانيوم مصنع وبالتالي يمكن تسميته باليورانيوم غير المســـتنفد وهو أشـــد خطورة بـــكثير من اليورانيوم المستنفد. ومن خلال فحص المرضى تبـــين انهم ملوثون بنســـب عالية من هذا اليورانيوم. التحاليل شملت اربعة انواع من اليورانيوم هي:

اليورانيوم (U-238, U-235, U-234) علماً بأن اليورانيوم (U-236) غير موجود في الطبيعة ولكن يمكن أن يُصنع بـــالمفاعلات. إن اســـتخدام مثل هذا اليورانيوم خطير جداً إذ عندما يصيب الهدف ترتفع حـــرارة الهدف كثيراً فيتبـــخر اليورانيوم ومعادن الهدف التي يمكن ان تصبح مشعة وتنشر عبـــر الغبـــار في الهواء، وعندما يتنفس الانســـان يدخل الى

الرئتين ومنها الى الدم حيث يتفاعل مع كل خلايا الجسم البشري، لأن الدم يصل لكل الخلايا، كما تبين وجود تركيز كبير مكثف في البول البشري نتيجة استهلاك الماء الذي يحوي على كميات كبيرة من هذا النوع من اليورانيوم غير المستنفذ. برغم ان الآثار السامة معروفة منذ ٢٠٠ سنة لكن تاثيره بدا يتضح اليوم أكثر. ان الاماكن التي تعرضت للقصف أصبحت غير صالحة للحياة، وستتاثر بها الاجيال القادمة أكثر، قام الفريقان بجمع عينات من خمسة مناطق متفرقة كما تم ذكره، وتم فصل المرضى الى نوعين. المرضى بدون أية اعراض، والمرضى بأعراض. وأغلب الظن انهم جميعا سياصبون بالسرطان قريباً لأن المياه ملوثة كثيراً. كما تم أخذ عينات من المناطق التي تعرضت للقصف واخرى من المناطق التي لم تتعرض للقصف فتبين ان هناك فرقاً كبيراً بين عدد المصابين. أظهرت التحاليل النتائج التالية:

تلوث البول البشري باليورانيوم:

أظهرت نتائج الابحاث ان مستوى اليورانيوم المسموح به في امريكا ١١,٨ نانو غرام/ليتر وفي انكلترا ٨نانو غرام وفي افغانستان ٩,٤ نانو غرام وهي نسبة عادية مثل بقية الدول. ولكن في الواقع وجدت فعلياً لدى المصابين كميات مكثفة تصل الى ٣١٥,٥ نانو غرام/ليتر. هناك قرية بأسم (لال ماه) تعرضت لقصف بقنابل كبيرة مما ادى الى ظهور امراض كثيرة لدى السكان. وفي قرية (بيبي ماهرو) حيث سقطت قنبلة كبيرة فقتلت عائلة بأكملها (الام - ولدين - ثمان نساء - وابنتين)، ونجا من هذه القنبلة طفل عمره (١٢) سنة اسمه (حسين)، ومن خلال فحصه تبيّن ان كمية اليورانيوم لديه ٢٠٣١ نانو غرام/ليتر، أي ٢٠٠ ضعف مما مسموح به. بينما عندما تم فحص والده الذي لم يكن موجوداً أثناء الحادث وجدت الكمية ٤٠ - ٥٠ نانو غرام/ليتر. إن هذا الطفل سوف يعاني كثيراً من خطر الاثر الكيميائي الذي يفتك بالكليتين وكذلك من التاثير الاشعاعي وبخاصة جهاز المناعة لديه.

تلوث المياه باليورانيوم غير المستنفد:

تجدر الاشارةالى ان الجرعة المسموح بها في الماء في حدها الاقصى ٢٠٠٠ نانو غرام/ليتر والمعدل المتبني في وكالة الصحة العالمية ٤٠نانو غرام/ليتر. بينما وجد في كابول وجلال آباد ان التركيز قد وصل الى ٤٠ الف - ٦٠ الف نانو غرام/ليتر. أي بمعنى ان تلوث المياه بهذه النسبة الكبيرة سوف يسبب الكثير من الامراض للناس حاضراً ومستقبلاً.

تلوث التربة باليورانيوم غير المستنفد:

تم أخذ عينات من الاماكن التي تم قصفها بهذه القنابل حيث وجدت الكمية تتراوح بين ٤,١ - ٦,٣ نانو غرام/كيلو غرام. بينما الكميةالمسموح بها ١,٢ نانو غرام/كيلو غرام. أي أكبر من المسموح بـ(٦) اضعاف. وكان المفروض أخذ عينات من بقايا الشظايا والقطع المعدنية المتبقية من الاهداف المصابة يمكن ان تكون دليلاً قاطعاً على استخدام هذا اليورانيوم، لكن تم انتشالها بأمر عسكري. الخطورة تكمن في ان المواد المشعة والاشعة في

انها تصيب الجميع (الانسان – الحيوان – النبات – الحشرات) وتعلق في الهواء وتدخل الى المياه والى باطن التربة ويصعب أن ينجو منها أحد. من الصعب المقارنة بين ماتم في أفغانستان وبين ماتم في هيروشيما ونغاساكي. لأن هناك استخدمت القنابل النووية الانشطارية التي سببت في اطلاق ٤٤٠ ايزوتوب في المتوسط في الهواء ونشرها المطر في اماكن متعددة وهي لاتبقى طويلاً. بينما اليورانيوم يبقى من ٤ الى ٥ مليار سنة. تجدر الاشارة ايضاً الى ان النتائج التي تم التوصل اليها سابقاً بعد حرب الخليج الثانية قد قبلت واعتمدت من جهات عديدة منها معاهد علمية كبيرة في امريكا وانكلترا والدنمارك.

اشار البروفيسور عاصف در اكوفيتش في آخر اللقاء الى احتمال ان تكون امريكا قد استخدمت مثل هذه الانواع من الاسلحة أو غيرها في احتلال العراق عام ٢٠٠٣، وانه يسعى لارسال فريق جديد الى العراق لاجراء بحوث ودراسات وان كان يتوقع عدم موافقة امريكا على ذلك. وسوف ينشر نتائج الابحاث للعالم.

فوائد المواد المشعة:

تستخدم المواد المشعة والاشعة في كثير من المجالات التي تفيد البشرية. إذ كم انقذت المواد المشعة ارواح البشر وكم ازهقت منها. من استخداماتها على سبيل المثال وليس الحصر المجالات التالية:

- مراكز البحوث العلمية.
- مستشفيات الطب النووي.
- مجالات صناعية متعددة.
- المجالات الزراعية المختلفة.
- تصنيع البطاريات الذرية.
- زيادة طاقة الوقود في الصواريخ.
- تقدير الاعمار الجيولوجية والحقب الزمنية، واعمار الصخور وتقدير عمر الانسان القديم.
- توليد الطاقة الكهربائية.
- الاستخدامات الكثيرة في وسائط النقل، مثل البواخر، المحطات الفضائية، وربما تستخدم مستقبلاً كوقود في الطائرات.
- تعتبر المواد المشعة الساعة الزمنية الازلية وأول ساعة كونية.

طرق الوقاية من تاثير المواد المشعة والاشعاعات الضارة:

ان افضل طريقة للوقاية من المواد المشعة والاشعاعات الضارة هو الابتعاد عنها وعدم التعرض لها. كما ان الحجاب الواقي يمنع تاثير الاشعة الى حد كبير. بالاضافة لذلك فإن استعمال بعض الادوية سي تخفض الحرارة في الجسم والفعالية الهضمية مثل مواد التخدير وغيرها يعتبر مفيداً. أضف لذلك توجد مركبات دوائية واقية تعرف بأسم (CYSLEINE)

التي تحتوي على الحموض الامينية والتي هي أساسية لتشكيل بروتين الجسم الطبيعي. تكون المواد المشعة عادة أقل ضررا إذا كانت غير قابلة للانحلال في جسم الانسان، حيث يتم التخلص منها عبر طرحها عن طريق البراز او البول. كما ان الادوية التي تمثل مضادات حيوية لها تأثير ايجابي جيد عندما تتعرض خلايا الدم البيضاء لاضرار كبيرة من الاشعة.

هناك طرق عديدة للمعالجة من تأثير الامراض الاشعاعية. أولها التزام المريض الفراش والعناية الجيدة بالغذاء والدواء. واذا حصل إسهال فيمكن التغلب عليها بأدوية مضادة، كما ثبت ان للبنسلين فوائد جمّة. ان نقل دم صحيح الى المريض لايفيد في اصلاح ماتلف من مراكز توالد الدم، الا اذا كان المتبرع (هو أو هي) توأم للانسان المتضرر، لان مناعة المتضرر ترفض قبول الدم عدا التوأم.

اخيرا يمكن القول ان درهم وقاية خير من قنطار علاج. ان الاشعاعات ومنها النووية قد تكون ضارة وقد تكون مفيدة وهذا يعود الى عوامل عديدة. فكم من الارواح زهقت بسبب الاشعة وكم من الارواح انقذت بفضلها ايضا. على الدول ان تحمي نفسها وشعوبها من جميع مخاطر الحروب ولاسيما اذا استخدمت فيها المواد المشعة. الخوف من ان الدول التي استخدمت الاسلحة النووية في الماضي تعود وتستخدمها مرة ثانية وثالثة في المستقبل، وكذلك استخدامها في اعمال ارهابية من قبل افراد أو جماعات أو حتى دول تمتلكها.

أمريكا تعترف بإجراء تجارب بيولوجية وكيميائية خطيرة:

كشفت وزارة الدفاع الامريكية ان الجيش الامريكي اجرى خمسين تجربة سرية للغاية على عناصر بيولوجية وكيميائية في الستينات والسبعينات من القرن الماضي لاختبار مدى تفاعلها مع الظروف البيئية والجوية المختلفة. ونقلت أ ف ب عن (دي دودسون موريس) قوله ان التجارب كانت سرية للغاية لدرجة ان المسؤولين الكبار في البنتاغون لم يكونوا على علم بها وبحجمها.

جاء الاعلان عنها بعد تحقيقات اجراها البنتاغون استغرقت ثلاث سنوات فيما يسمى بمشروع ١١٢ ومشروع "بروجكت شادا" التي اجريت على البر والبحر في انحاء مختلفة من العالم، منها على سبيل المثال: جزر مارشال، بنما، كندا، وبريطانيا وشارك فيها نحو ٥٨٤٢ جنديا امريكيا وتهدف الى تحديد عدد الاشخاص الذين ربما تاثروا بهذه التجارب بهدف التعامل مع أية شكوى تتعلق بالصحة من المحتمل ان تقدم. ويعود المشروع الى عام ١٩٦١ عندما أمر وزير الدفاع حينها (روبت ماكنمارا) بإجراء سلسلة من التجارب لاختبار فعالية الاسلحة الكيميائية والبيولوجية وفي كانون الثاني من عام ١٩٦٣ أجرت البحرية الامريكية سلسلة من التجارب قبالة ساحل جزيرة اوهو (هاواي) لاختبار ما اذا كان الدخان المحتوي على عناصر بيولوجية يمكن ان يخترق السفن الحربية الامريكية واستخدمت في التجربة بكتريا غير قاتلة. كما أجرى البنتاغون من كانون الاول عام ١٩٦٢ الى شباط عام ١٩٦٣ في الالاسكا لاختبار مدى فاعلية عناصر غاز سارين وغاز الاعصاب (VX) في مناطق تنخفض فيها درجات الحرارة الى ما دون الصفر، واطلقت في تلك التجربة قذائف مدفعية وصاروخية محشوة بغاز الاعصاب (VX) بالقرب من نهر (غرتيسل). كما اجرى

البنتاغون تجارب في اوائل عام ١٩٦٣ في منطقة قناة بنما لاختبار فعالية اسلحة الدمار الشامل في الغابات. وأجريت تجربة في بريطانيا وكندا لتحديد مدى احتفاظه بعناصر تابون - سارين - سومان - وفي اكس المتلفة للاعصاب بقدراتها على الفتك في مناطق الغابات والسهول ايضاً بسرية تامة خلال العامين ١٩٦٧ و ١٩٦٨ من طائرات او بواسطة قذائف على مناطق عسكرية في (بورتون دوان) في بريطانيا و (روالتسون) في كندا، كما أجريت عشرون تجربة برش نوع من البكتريا تدعى (أي كولي) التي تكون قاتلة أحياناً للبشر على جزر (هاواي) في الفترة من كانون الثاني الى اذار عام ١٩٦٨ اضافة الى تجارب اجراها البنتاغون عبر نشر البكتريا في المحيط لمعرفة فعالية الاسلحة البيولوجية، التي تطلقها الغواصات.

ذكر تقرير لوزارة الطاقة الامريكية ان خلال ٣٠ عاماً، قد تم القيام بتجارب سرية على الاشخاص، منها جرعات نووية امريكية على الحوامل وعينات على الاطفال. كذلك تم الكشف عن اجراء ٤٨ تجربة نووية جديدة على مئات الاشخاص في الخمسينات وحتى الثمانينات من القرن الماضي بدون علم الناس. واجريت كذلك ٩٥ تجربة لقنابل نووية في الصحراء كانت طي الكتمان قبل اعداد هذا التقرير.

أهم المصادر:

- المجهود النووي ضرورة استخراجية — د. محمد سعيد خورشيد
- طاقة الذرة — ك.جلادكوف
- نتائج ابحاث استخدام اليورانيوم غير المستنفذ في افغانستان — د.عاصف دراكوفيتش
- مستقبل الطاقة — م.عبد اللطيف زرنه جي
- مذكرة المحاربين القدامى في أمريكا (الانترنت)
- التلوث البيئي في كوكب الارض — م.عبد اللطيف زرنه جي
- مقالات مترجمة عن الانترنت — د.عماد غوكة
- مقالات عن صحف ومن الانترنت مختلفة.

من ثقافة الخضوع الى ثقافة الحوار

مقابلة مع د. عامر حسن فياض
كلية العلوم السياسية جامعة بغداد - العراق

س:-طرح في الادبيات العربية العديد من التعريفات الخاصة بالثقافة و المثقف وحدود علاقتها بالسلطة السياسية، وكل يتناولها من الزاوية التي يستطيع من خلالها حل اشكالية تلك العلاقة، فماهي الثقافة وماهي طبيعة العلاقة بين المثقف والسلطة السياسية؟.

ج:-الثقافة، في مفهومها العام، هي بمثابة اجابات العقل الانساني حول اسئلة كالتالية، ماالله؟، مالطبيعة؟ ما الانسان؟ مالجتمع؟ ما التاريخ؟ الاجابات تشكل وتتبلور وتتكامل وربما تتضح على شكل افكار وقيم ومعتقدات وسلوكيات بمجمولها تسمى ثقافة فهي كما يسميها البعض بـ(الكل المعقد المتشابك من الانظمة التي تتضمن اساليب الحياة الانسانية المادية والروحية) على حد تعبير الاستاذ صلاح قنصوه في بحثه عن الصراع والحل في مشكلة الثقافة العربية. ويسميها المفكر العربي برهان غليون(الانماط المتميزة من الوعي والسلوك ومنظومات قيم وقواعد اجتماعية وعقلية مرتبطة بالحقيقة والبيئة والظروف العامة بتشكلها).

ويسميها محمد عامر الجابري"المركب المتجانس من الذكريات والتطورات والقيم والرموز والمتغيرات والابداعات التي تحتفظ بها الجماعة البشرية بهويتها الحضارية في اطار ما تعرفه من تطورات بفعل ديناميتها الداخلية وقابليتها للتواصل والاخذ والعطاء).

مما تقدم فان الثقافة تتحدد بدلالة تاريخيتها اي بدلالة بعديها الزماني والمكاني.. كذلك تحدد بدلالة عناصرها، واهمها اربعة عناصر هي:-

* عناصر معرفية وتشمل المعارف والمعلومات التي جمعها اعضاء جماعة معينة.

* نسق المعتقدات ويشمل من الافكار والعلاقات * نسق القيم والمعايير ويشمل المفاهيم والتصورات التي تساعد الفرد على ترتيب الاشياء المادية وغير المادية في علاقاتها ببعضها البعض.

* عناصر رمزية وتشمل مختلف وسائل الاتصال واهمها اللغة.

س:-بعد هذا التحديد المعرفي لمفهوم الثقافة وعناصرها نعود الان الى تحديد طبيعة العلاقة بين المثقف والسلطة السياسية. ؟

ج:-ان تحديد تلك العلاقة توضح من خلال جزء متخصص من الثقافة ندعوه في الادبيات الفكرية السياسية بالثقافة السياسية. والثقافة السياسية هي جزء من الثقافة السائدة في مجتمع معين، غير انها بمجموع عناصرها تكون تركيبها منظما ينطوي على طبيعة سياسية.. وتلك الطبيعة تخص السلطة السياسية.

ومعنى الثقافة السياسية يتأكد على مستويين هما مستوى الفرد ومستوى النظام. فعندما نركز الاهتمام على الفرد فان بؤرة الثقافة السياسية تصبح في جوهرها، وينصب ذلك على كل الطرق المهمة التي يتوجه الفرد بها ذاتيا نحو العناصر الاساسية في نظامه السياسي والمؤسسات السياسية، اي كيف يشعر الفرد وكيف يفكر بالرموز والمؤسسات والقواعد التي تكون النظام

السياسي في مجتمعه وكيف يتعامل معها، وكيف يستجيب لها؟ وماهي الروابط بينه وبين المقومات السياسية لنظامه السياسي؟ وكيف تؤثر هذه الروابط على سلوكه السياسي؟.

ولكل هذه المعاني للثقافة السياسية تدل على نزوع سلوكي فردي او جماعي ازاء النظام السياسي في حين ان الثقافة السياسية تنطوي على مجموعة من القيم والمعتقدات والعواطف. وهي تتألف من عناصر ادراكية هي المعرفة وعناصر تقيمية هي القيم. والثقافة السياسية هي في وقت واحد مانعرفه وكل مانشعر به وكل ما نعتقده بشان السياسة. غير ان هذا التحديد عام جدا بحيث ينطوي على توجه يتعلق بالسياسية، ولذلك فان هناك من يقصد الثقافة السياسية فقط على التوجهات نحو المؤسسات السياسية الوطنية، اي توجهات الناس ازاء السلطة القائمة والنظام السياسي القائم اعتمادا على قيم ومعتقدات شائعة تستمد قوتها من اطار ثقافي موروث او وافد، وهنا تكون الثقافة عبارة عن اختزال مفهومي للمشاعر والافكار والسلوكيات التي نلاحظها من خلال مراقبتنا الناس وهم يعيشون حياتهم اليومية المدنية. ومقابل ذلك فان النظام السياسي القائم والقوى السياسية المتصالحة معه وكذلك المتعارضة معه تعمل هي الاخرى على بلورة وعي بشكل قيم ومعتقدات ورموز تنسجم مع اتجاهاتها واهدافها السياسية .وهنا سنجد انفسنا امام ضروب متنوعة ومتعارضة في اكثر الاحيان من الثقافات السياسية.

س:—هذا يعني ان هناك انواعا للثقافة السياسية في المجتمع؟

ج:— نعم ... هناك ثلاثة انواع رئيسة من الثقافات السياسية في كل مجتمع معاصر . وتلك الثقافات يتم تقسيمها بناءا على تطورات المجتمعات، وهي الثقافة السياسية الموروثة وثقافة الخضوع والثقافة المساهمة.

فالثقافة السياسية الموروثة تنسجم مع بنى سياسية تقليدية غير ممركزة، بينما تتلائم الخضوع مع بنية سلطوية ممركزة، واخيرا تتلائم ثقافة المساهمة مع بنية سياسية تعددية وديمقراطية. والجدير بالذكر ان هذه الانواع الثلاثة من الثقافات لاتوجد بصورة خالصة ومستقلة عن بعضها، بل هي متداخلة فيما بينها. ولكن قد تبدو واحدة فيها مهيمنة اوقد تبدو بعضها متعايشة مع البعض الاخر حسب المستويات الثقافية والحضارية للسكان في المجتمع، وتلك المستويات لاتنفصل عن مستويات التطور الذي يعيشه المجتمع.

س:—في العراق المعاصر هل يشير المشهد الثقافي الى وجود مثل هذه الانواع من الثقافات السياسية؟ واذا كان الجواب نعم، فماهي حدود العلاقة بين الثقافة السياسية وانواعها انفة الذكر وبين النظام السياسي السابق قبل سقوطه.؟

ج:— لقد عملت السلطة الحاكمة في العراق ولاكثر من ثلاثة عقود على اغراق الشرائح الاجتماعية بطوفان من الغرائز الفطرية وتوظيفها واضفاء هالات القداسة عليها. فالوطن تحول فعلا الى مفهوم مجرد تماما كذلك الامة والنظام تحول الى وثن يستلب الانسان العراقي اي قدرة على مناقشة اوضاعه وحتى مصالحة. فأصبحت المطالبات السياسية من المحرمات على الجموع الشعبية وقواها السياسية. واصبح البناء العام للمجتمع العراقي يقوم على افتراض واحدي متعسف يمثل انتكاسة للافكار التعددية لتصبح السلطة الحاكمة هي وحدها مالكة حق تفويض نفسها للتعبير عن الكل، وليصبح فكرها هو ايديولوجية الجميع في واحد وفي حدود ثقافة الخضوع المهيمنة على بقية انواع الثقافات السياسية في العراق اجبر المواطن العراقي على وحدانية السلوك والتفكير، وبالنتيجة كانت العلاقة بين الحاكم والمحكوم علاقة تنزع الى

خلق جمهور يكرر مانقوله السلطة الحاكمة.. جمهور يجهل علاقة كل مسألة بالفكر . اما الهيمنة والخضوع على صعيد الفكر والثقافة فسوف تتمثل بالمثقف الممتثل. وليقوم العمل المسموح لهذا المثقف على مبدأين هما(مبدا عبادة الفرد المستبد ومبدا عبادة الثابت المألوف). فالسلطة وفق هذا الفكرة وتلك الثقافة هي كمال مطلق ونقدها خروج وزندقة، كما يجب ان يتضمن هذا الفكر المتمثل ايضا ضرورة الترديد والتكرار الالين والاعادة الببغائية لما يقوله السلطان الحاكم دون نقد ودون تقويم ودون حذف ولااضافة. اما منطق التكرار في ثقافة الخضوع هذه فهو منطق الصمت والسكوت والقبول بواقع الحال وفي ظل ثقافة الخضوع تلك ظلت السلطة هي الناطق والمواطن هو الساكت، وبذلك انتفى كل جديد ومبتكر وابداعي، واصبحت ثقافة الخضوع منحطة لاتعرف السؤال ولاالجواب، لانها ثقافة(نعم) فقط.

كما انها ثقافة مكرسة لهزيمة الانسان ومبادرته، ولهزيمة الفكر والغاء حركته، ولهزيمة الوطن وجره الى اكثر اشكال الجهل والظلامية.

وعليه فان ثقافة الخضوع التي هيمنت على الثقافات السياسية الاخرى في ظل النظام السياسي المنهار لم تعسف الوطن والمواطن انها ساهمت في اقصاء ثقافة المساهمة.

س:- اذا كان النظام السابق قد اقصى ثقافة المساهمة لصالح ثقافة الخضوع فما هي متطلبات اشاعة ثقافة المساهمة في عراق اليوم؟.

ج:- اذا كان النظام السابق قد قمع ثقافة المساهمة لصالح ثقافة الخضوع فانه لم يتمكن من الغاء وجود ثقافة المساهمة المتنوعة في الداخل. فبالتداخل مع هيمنة ثقافة الخضوع كنا وماولنا نتلمس ملامح ثقافة المساهمة في عراق الامس واليوم. وان من اساسيات ما تتطلع اليه هذه الثقافة الوليدة في عراق اليوم هو ان يكون المواطن العراقي على مستوى عال من الوعي في الامور السياسية ويقوم بدور فاعل فيها، ومن ثم يؤثر في مجريات الحياة السياسية بطرق مختلفة كالمساهمة في الانتخابات والمظاهرات وتقديم الاحتجاجات فضلا عن ممارسة نشاط سياسي من خلال عضوية حزب سياسي او عضوية مؤسسات المجتمع المدني الاخرى.

ولابد من توافر ركيزتان لانضاج ثقافة المساهمة تلك. وهما ركيزة حقوق المواطنة وركيزة المشاركة المجتمعية في صنع القرار السياسي. وفي الحالتين لابد من احترام حقوق الانسان. وفي ظل العمل على نشر ثقافة المساهمة يفترض ان يكون لجميع المواطنين على السواء حقوق المواطنة المتساوية وفي ذلك فان ثقافة المساهمة ستكون الثقافة المدافعة عن المواطن والقيم الانسانية والوطنية معا، وستكون ايضا بمثابة الراية المبشرة بالعقلانية واحترام العقل. وذلك العقل سيدافع بدوره عن الاستقلال الوطني والتحرر الاجتماعي ويتصدى لكل اشكل الثقافة الكولونيالية والغيبية. وذلك العقل الذي يمتلك ثقافة لاتهرب الى تاريخ تواري ولا الى مستقبل لم يأت.

اجرى الحوار :-سعدون هليل المنشد
استاذ الفكر السياسي المعاصر كلية العلوم السياسية
جامعة بغداد

نـــدوة

الثقافة العراقية والمتغيرات الاجتماعية

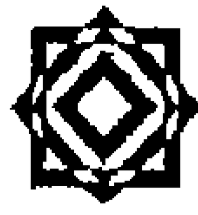
أقام ملتقى الجماهير الإبداعي جلسة حوارية بعنوان (الثقافة والمتغيرات الاجتماعية) حضرها الأستاذ مفيد الجزائري والأستاذ رائد فهمي رئيس تحرير مجلة (الثقافة الجديدة)، وجمهرة من الأدباء والمثقفين.

قدم الجلسة الناقد مؤيد البصام، فرحب بالجميع ثم ابتدأ بورقة سماها (وقائع الواقع في إثبات المطلوب) وتحدث عن محاولة تأسيس جماعة أدبية عام ١٩٩٨ باسم (جماعة العشرين)، وبعد جلسات متعددة، أخذت ما يقارب الستة أشهر، لم تستطع الجماعة أن تظهر بسبب الخوف من أن تعتبرها السلطة ذات اتجاهات مناهضة، وعلى الرغم من كل محاولات التاكيد بأن ما تقوم به شأن ثقافي قد يتحول بمرور الزمن إلى عملية اقتصادية من أجل إيجاد فرص عمل للأدباء وكذلك نشر نتاجاتهم، ظل بعض أفراد المجموعة على خشيتهم من أن نتهم بأننا نقوم بعمل تنظيم مضاد. و هكذا انتهى المشروع. بعد سنة طرح مشروع إقامة جلسات وندوات بعيداً عن اتحاد الأدباء، الذي أصبحت ندواته حكراً على المناسبات واتخذ من الشعر وسيلة للمديح، لهذا بدأت القصائد وأصحاب القصائد تنكر وجوههم وشعرهم، حتى باتت الكلمات والجمل تتكرر في قصائدهم، وفقدت ارتباطها بالإحساس الجمالي للغة. فكان التفكير منصباً على إيجاد منفذ يفعّل الحركة الثقافية، فتدارسنا الأمر مع الإخوة محمد سلطان وداود سالم، واتفقنا أن نقيم جلساتنا في المقهى، وهو مكان لا يثير حفيظة أحد، فبدلاً من أن نجلس أربعة، ستكون الجلسة من ثمانية أو عشرة من رواد المقهى الذي يتردد عليه الأدباء والصحفيون .و بعد أن وزعنا الكتاب الذي نريد مناقشته اقمنا جلسة عن نص (متون الأهرام) لجمال الغيطاني. ثم بدأت الجلسات الأسبوعية كل يوم ثلاثاء تأخذ أبعادها بالحضور وفي سير المناقشات والحوارات التي كانت تدور. فاستقطبت العديد من الأدباء والمثقفين. وبالمقابل، كان الكثيرون يغادرون المقهى عندما تبدأ الجلسة صرحوا لنا بأنهم يخشون السلطات، فلم نلومهم، فهذا حقهم. ولكن المسألة أخذت أبعاداً أخرى حينما نوقشت في جلسات اللجنة التنفيذية لاتحاد الأدباء وأصرّ رئيسها على القول (إن هؤلاء يعرفون ما يفعلون، فالأحزاب والثورات تنبثق من المقاهي) وهكذا أبلغنا من جهة أمنية بوقف الجلسات..

لم ننثنِ، بل حاولنا أن نتخذ من الأماكن ذات الصفة المعنوية مكانا لإقامة جلساتنا، وكلمنا الأستاذ قاسم السبتي صاحب قاعة حوار فرحب الرجل بذلك، ولكنه قال : عندما

تهدأ الأمور أهلاً وسهلا. وجاءت الحرب لتجسم أمر النظام ، فعاودنا إقامة الجلسات بعد عشرين يوما على سقوطه.

أهمية ملتقى الجماهير إنه يلغي الشكليات والرسميات ويشكل حلقة حوارية فيها شيء من الحميمية، إضافة إلى أنه يتيح الفرصة للتعبير عن الرأي بدون حدود للوقت مع عدم الخروج عن الموضوع. ما يناقش من أعمال هو ضمن اقتراحات المحاورين، وليس مفروضا عليهم، فيقترح كل مرة مادة للحوار بعد أسبوعين حتى يتاح الوقت للقراءة والاطلاع. وهذا شكل تجديدا وروحية متحركة ومتفاعلة. بعد سقوط النظام الشمولي، بدأت أعداد المثقفين والادباء بالتزايد، وأخذت المناقشات طابعا صريحا وواضحا، ليس فيه ترميز وإخفاء بعد أن كان الواقع يفرض الضغط والرأي الواحد والشمولي . مع ذلك كانت تتحرك مجموعة من الناس لتغيير هذا الواقع بفتح منفذ يطلون بـه على عالم المعرفة. أن ملتقى الجماهير لا يدفع مكافأة، و الجالس هو الذي يدفع سعر كأس الشاي، ولكنهم كانوا يأتون مندفعين من اجل تغيير واقع ثقافي. الحالة الثانية نعيشها بعد سقوط النظام، ظهر واقع جديد أزاح حالات الخوف والتوجس، ترك بصماته على جلسات الملتقى في أعداد القادمين أو في الحوارات والنقاشات التي انفتحت لتتحدث بحرية وطلاقة. وهكذا نجد ان للتغيرات الاجتماعية، آثارها الكبيرة والواسعة على الفكر والثقافة واتجاهاته ومساراته. وهذا ما نجده الآن بعدد الأحزاب والجمعيات والمنتديات التي أقيمت والتي تقام، وإن كان هناك بعض المبالغة، ولكنه سيصفى بفلتر العلاقات الاجتماعية وتغيراتها، ليفرض واقعا مغايراً لواقع النظرة الأحادية للحياة، وشمولية الطرح، لتسود تعددية الآراء وروح البناء من خلال الحوار .

نسق الثقافة والمتغير الثقافي
محاولة في نقد المفارقة

محمد خضير سلطان(*)

مدخل

تسعى هذه الدراسة الى تحليل "المكوّن الثقافي" في الفضاء الاجتماعي على ضوء أنساقه الثابتة فضلا عن أنماطه الاجتماعية. إن المكوّن الثقافي من الوضوح في المجتمعات المتماسكة بحيث لا يحتاج إلى تحليل وفق متغيرات، كما أن النسق الثقافي لا يمكن انتزاعه وفصله عن المكوّن الإيديولوجي والاقتصادي للمجتمع الزراعي والبدوي والرعوي إلا بالقدر الذي يؤكد تكامله الوثيق مع المكونات الأخرى.

إن هذه الملاحظات تعني الأنماط التحولية لدخول المجتمع المدني وتأثير النسق الثقافي للعالم (الخارجي) وتجاوز التخلخل بين نظامين عبر جميع الأبعاد ومجتمعنا العراقي يعد كذلك فهو المجتمع (المشروع) نحو التجاوز والتكامل.

الأنساق المكوّنة

لابد من توضيح فكرة الأنساق المكونة للنظام الاجتماعي وأنماطه التاريخية على ضوء تحليل النسق الثقافي. ولو كان البحث يعد النسق الاقتصادي مدخلا وإطارا لاختلف الأمر وصار شأنا اقتصاديا صرفا.

إن النسق الثقافي أحد الأنساق الثلاثة المكوّنة الثابتة التي يشتمل عليها النظام الاجتماعي. وإن النسقين الآخرين هما الإيديولوجي (الفكر السلطوي العملي) والآخر النسق الاقتصادي.

والنسق الثقافي لابد أن ينطوي على تشكله التداولي ومحموله الإنتاجي من سياق النسقين الآخرين (الإيديولوجي والاقتصادي) مثلما ينطوي أي نسق من الأنساق الثلاثة على اغتنائه واكتفائه الذاتي وطاقته الحيوية في الزمان والمكان والحدث وتوازنه مع الأنساق المجاورة.

إن الأنساق تتحرك في خط مشروع واحد متماسكة مع الحدث منذ أول إيماءة واكتشاف للكلمات والأشياء والعمل، الحركة والاسم والمسمى وأية نظرة إلى موقعك في المكان.. أي مكان، سوف يتحدد جمع من الإشارات والصفات التي تكشف عن اللغة والطراز والمستوى الاقتصادي بما تشتمل عليه الأنساق الثلاثة المكونة لهذا الموقع من المكان.

وعن هذا النحو فإن فحص وتحليل أي نسق هو كشف أستار وطبيعة الأنساق المجاورة وعلاقاتها في البنية الموحدة مثل عمود الخيمة وعمود الشعر العربي وإيقاع الامتداد الصحراوي... يجعل من الحياة مختزلة في قصيدة وتغدو القصيدة جزءا من الحياة وتجمع وحدة الأنساق على خط مشروع واحد وبالدقة البالغة التي لا يتخلف أو يتقدم فيها نسق على آخر.

إن الزخم الإيقاعي متساو ومتوازن في كل الأبعاد مثل الحركات اللغوية في شكل الكلمة العربية وشكل الأوابد في مرابط الدواب.

إن أي نسق يحمل وجهين آخرين على محيطه المركزي وتنتقل الوجوه في مواقع منتظمة

بحسب تمركز الأنساق الثلاثة [فالمستوى الاقتصادي يعبر عنه بنسق ثقافي (كاللغة والإعلان، الصورة، البوستر، الوثيقة) ويمثل مستوى من الرؤية الإيديولوجية السائدة في نمط تاريخي مثلما النسق الإيديولوجي يحتاج إلى الكلف الاقتصادية والتعبير الثقافي والأمر متماثل مع النمط الثقافي في إطار إيصاله الاقتصادي والإيديولوجي.

كسر النظام البنيوي للنسق

يستثمر النسق الثقافي أقصى طاقته الوظائفية والدلالية على نحو متنافذ ومشترط ومحايث في اتصاله بطاقة وحيوية الأنساق الأخرى كما ليس بوسعه أن يخرق نظامه البنيوي في المجتمع المتماسك، مثال على ذلك فإن النسق الاقتصادي في الفضاء الرعوي لا يستطيع أن يخرق أسلوبيته في العمل والإنتاج تجاوراً وتوازياً مع تأملاته الكونية في الوصف والرؤية وتنافذهما.. من المستحيل انتزاع النسق من سياق المكونات في المجتمع المتماسك بغض النظر عن تخلفه أو تقدمه لأن النسق لا يفوق نظامه البنيوي.

وتبعاً لذلك فإن أي اختلال في منظومة الأنساق هو نوع من التعسف البنيوي على الشكل تمارسه السلطة القمعية في توجيه غير طبيعي للأنساق في الفضاء الاجتماعي ولن يحدث هذا الاختلال إلا إذا تم خرق النمط الاجتماعي من خلال النمو المشوّه والتحول المباشر في ظروف صادمة تختلط فيها عوامل الانكفاء والنهوض وتتخذ شكلاً جديدا كما حدث للنظام العربي ودوره في الاندماجية الحديثة بالعالم المعاصر إذ عمدت سلطة النظام العربي إلى تغليب النسق الإيديولوجي والهيمنة على الأنساق الأخرى ليس بسبب عدم استيعاب البعد التكويني والتحوّلي للمجتمع العربي ولكن من أجل التشبث بسدة الحكم وارتكاس الأشكال القديمة والحديثة، رفع رايات العشائر على سارية العالم المعاصر.

المجتمع المشروع

لا ريب أن المجتمع العربي والعراقي على وجه التحديد، يعد نمطاً تحولياً وبالتالي متخلخلاً في نظام مكوناته الثقافية ومن جانب آخر فهو المجتمع (المشروع) من أجل تأصيل المكوّن الثقافي بين الراية والسارية (العالم والمجتمع)، بين النسق الثقافي المحلي والنسق الثقافي العالمي وتجاوز هذا التخلخل في كافة أبعاده.

كان النسق الثقافي السلطوي قد استفاد كثيراً من تخلخل إيقاع المجتمع مع العالم فعمل على دمج هذه الخلخلة قصدياً في جهازه التعبيري والتقني ويكشف عنها في السياق اللساني والوظائفي المحكوم بالنسق الموجّه في حالة من تبرير القمع وكبح الطاقات الاقتصادية والفكرية وترسيخ الذات على نحو زائف فضلاً عن عتمة المكونات الأخرى وضمورها الذي يقابله تضليل معلوماتي وعلى مستويات متعددة.. كانت شركات كبيرة ترسل منتجاتها إلى العراق في التسعينيات من القرن الماضي ولا أحد يعرف شيئاً عن تلك الشركات سوى مواقعها تحت البحار بالقرب من الموانئ الأطلسية أو في عنابر السفن خارج التفتيش الاقتصادي، فالناس لا تعرف شيئاً عن تدفق السلع والبضائع بالقدر اللازم حتى يغدو الأمر تدليساً ثقافياً يقع في شراك التدليس الذي يوجه الجريمة الاقتصادية.

يشير عالم الاجتماع العراقي عصام الخفاجي إلى انهيار الطبقات قبل أن تستكمل أدوارها

العليا في مجتمع العراق التسعيني من خلال استحواذ العائلية الدكتاتورية ذات الجذر العريق في تجارة التهريب، على النظام الاقتصادي برمته فصارت ترث الدولة و القطاع الخاص على خلاف الأنظمة الدولية المعمول بها وجعلت كل الطاقات التجارية والاقتصادية والمكاتبية تعمل على خدمة العائلية مثل حاشية وخدم ووسطاء وعتالين وحرس أموال ضخمة وكل الملايين من الدنانير المطبوعة هي مصروف جيوب ضخمة تابعة للقطاع الخاص والدولة ولكن لا يستثمرها أحد ولا تتأسس عليها قفزة اجتماعية إلا في حدود خصخصة الطمر الصحي مما يدفع النسق الثقافي في مجتمعنا إلى تبني فرضية جديدة إزاء هذا المتغير وتحرك مفهوم العائلة (الدولة + القطاع الخاص) وسقوط الطبقات قبل أن تستكمل أدوارها العليا.

ولا يخفى على الجميع بأن السلطة المهيمنة في المجتمع العراقي قد حافظت على القدر المناسب بين أدوارها التسلطية والقمعية وبين النظام المؤسساتي الذي تعمل عليه قدام المنظمات والهيئات الدولية بل إن تلك المنظمات والهيئات تعمل في إطار من حيرة الفهم والعجز عن اتخاذ القرار حتى غدت مثل بيادق في رقعة النظام العراقي إزاء مسؤوليتها في الاقتصاد وحقوق الإنسان وإطارها السياسي العاجز عن إتيان الحل والخروج من المأزق في نظامها الداخلي.

نقد المتغير الثقافي

يبدو أن المتغير الثقافي يتصل بنوع الخرق في المجتمع التحولي وردة الفعل في التواصل مع العالم لدى الإدارات والسلطات القائمة وبهذا القدر من ردود الفعل تتبنى العلاقة مع الفضاء الاجتماعي وأنساقه الثابتة والمتحولة.

إن نقد النسق الثقافي سوف يلقي رؤية على تحولاته في المتغير داخل النمط الاجتماعي وداخل وجوهه الأخرى الاقتصادية والإيديولوجية.. إنه محاولة في كشف الحجب وتراكم العتمة عن أبعاد كثيرة مغيبة ومتداخلة داخل النسق نفسه وفي حركته عبر السياق الوظيفي والدلالي، كما أن النقد يعد محاولة في تأصيل المكوّن الثقافي في النظام الاجتماعي وتأشير آثاره الخارجية المؤثرة وضبط عملية التوازن بين الرفد الثقافي والاقتصادي والإيديولوجي وبين فعالية الأرضنة والتبيؤ.. إن كل القرارات منذ نشوء النظام العربي تؤكد حالة التوازن السلبي بين المكوّن الثقافي الداخلي لنظام المجتمع العربي وبين النسق الثقافي العالمي الذي يحمل مكوّنه الأرضي والبيئي والإنساني ثم يرقى إلى أن يكون صالحاً لأية بيئة إنسانية ولكن باشتراط جديد عبر تكاملية أنساقه في البيئة المنقول إليها، وعلى سبيل المثال فإن الذاكرة الرافدينية العراقية، ليس من السهل استرجاعها على ضوء الخطى الاستشراقية، فهي في أجلى صورها تمثل النسق الثقافي الغربي الذي يتصل بالمركزة الغربية للثقافة ويشكل عمقاً للذاكرة الإنسانية التي كانت قائمة على الذاكرة اليونانية أي أن الذاكرة الإنسانية الجديدة المكتشفة تحل موقعاً جديداً عبر الموقع اليوناني فيما نرى بأن بضاعتنا ردت إلينا وتغفل الأنساق الأخرى الحية ونكتفي بإطلاق الأسماء الرافدينية القديمة على مدننا الناشئة في القرون الوسيطة دون أن ندرك بأننا شطبنا على جزء كبير من تاريخ المدن التي كانت تحمل أسماء قديمة منسجمة مع البناء الاجتماعي والتاريخي والحديث كما في العهد الملكي العراقي إلا أن النسق الإيديولوجي (السلطوي) لقراءة الاستشراق، قام على

الانطلاق منه نحو مسميات الخارطة قبل دراستها على نحو اجتماعي دقيق ومتكامل الأنساق إذ جعل النظام الديكتاتوري في السبعينيات من القرن الماضي يعمد إلى تحويل هذه المدن إلى وحدات إدارية أوسع ويطلق عليها الأسماء السومرية والآشورية والبابلية، وتعد هذه الأسماء أكثر انسجاماً مع النسق السلطوي في إدارة النظام من السياق الاجتماعي والتاريخي كما لو أنه أراد أن يسقط رهانه على وحدة الأرض العربية ويسعى من خلال الاستفادة من درس الاستشراق إلى تبعيث الأقوام القديمة التي سكنت وادي الرافدين.
وتبعا لذلك أو غيره فإن الذاكرة الرافدينية تحتاج منا إلى اكتشاف جديد في الثقافة المحلية الحية التي تتواصل مع الواقع اليومي لا المتحفي أو الأكاديمي وهو اتجاه متحقق ومتصاعد في أعمال بعض الفنانين والأدباء والباحثين وسوف تسهم إلى جانب ذلك في تأصيل المكوّن الثقافي الجديد.

المفارقة المعرفية

نخلص إلى أن المتغير الثقافي في المجتمع التحولي هو تقاطع نسقين من الثقافية، الأول: نسق الثقافة المعاصرة (الخارجي) والثاني: نسق الاندماجية مع العالم المعاصر (الداخلي) وكانت السلطات في المجتمع العربي القمعية والأقل قمعا قد عملت على اتجاهين متماثلين مهما اختلفا.. الأول يفتح الباب على مصراعيه لاستقبال الأجيال التكنولوجية والخدمية، لتنزلها الشاحنات على رمال الشرق تبعا لتوفر الأموال الوطنية اللازمة؛ والثاني يجعل الباب مواربا أو مغلقا ويسعى إلى التكيف مع المناسب من أفكار وتقنية وافدة. ويكون تماثل هذين الاتجاهين في عدم استيعاب وتمثل البعد التكويني والتحولي للنسق الخارجي مما جعل المكوّن الثقافي يقع بيد النسق الخارجي (الطرف المصدّر). ومثال على ذلك فإن برامج الدول المصدّرة ذاتها تعمل من خلال الاتفاقيات المبرمة على بناء الأسس والإجراءات التي تؤمن لحاق الدول المتخلفة (المستوردة) بالعالم التكنوإلكتروني وتنمية المراحل التحويلية الكبرى في خطط ذات مديات قصيرة وطويلة ولكنها تؤمن النهب الاقتصادي والتنافس التجاري بواسطة تحويل هذه المجتمعات إلى أسواق استهلاك مثلما تؤمن الطريق لغطاء السلطات على مختلف أنماطها في المجتمع.
إن ثبوت النسق الثقافي مع منظومته الاجتماعية يكشف باستمرار عن لعبة السلطة، لأن بناء السلطة القمعي قائم على طمس حيوية العقد الاجتماعي، ومع ذلك فإن تحليل النسق مع متغيره السلطوي، سوف يدخل (المكوّن) الاجتماعي في مفارقة معرفية تحدد اتجاه السلطة المهيمن مثلما تحدد النسق الثقافي (الكامن).
في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي، حصل المجتمع العراقي على مكتسب مدني عمل على نشوء الملكية الفردية من خلال توزيع سندات الأرض والطابو من قبل العثمانيين فساعد على تكوين طبقة الملاكين العقاريين والتجار، استكملت نضجها النسبي لتكون مهيأة للاحتلال الإنكليزي بعد دفاعها الفاشل عن مصالحها العثمانية السابقة واستثمرت هذه الطبقة علاقاتها شبه الإقطاعية والبورجوازية لكي تستمر في السياق الثقافي حتى الوقت الحاضر.
تكمن المفارقة هنا في تاريخ وذاكرة الطبقة العراقية الثقافي أكثر من حضورها الاقتصادي والإيديولوجي وهو تراكم ناجم عن المجتمع المشروع الذي يسعى إلى تأصيل (المكوّن

الثقافي) في بذرة الطبقة وليس في أسسها.
ثمة مفارقة معرفية أخرى تجعل من النسق الثقافي الكامن خارج السلطات متحركاً في المكونات الثقافية مثل ثيمة السفر واكتساب الثقافة والعودة. رحلة الشاعر الزهاوي لا تمثل مفارقة لأن بوابة النسق الخارجي للثقافة العراقية في نشأتها كانت مشرعة من اسطنبول باتجاه بغداد واسترجعت من خلالها بغداد نهضتها الخطبية والزخرفية حينذاك، إلا أن رحلة حسين الرحّال إلى الهند في العشرينيات من القرن الماضي وعودته محملاً بالأفكار الماركسية بعد لقائه بسكرتير الحزب الشيوعي الهندي هي بوابة جديدة للخروج من النسق العثماني إذ كانت الثقافة العراقية تُرفد من هناك، بل إن الإلماحات البلشفية التي دعا إليها الرصافي كانت في سياق الخطاب الثقافي العثماني، وكانت أفكار الرحّال وزميله محمود أحمد السيد الماركسية قد أخذت منبتها في الأوساط الفكرية قبل الإطار التنظيمي الذي أدخلت فيه العراق عن طريق الإرساليات الأممية، ولعل ذلك يقود إلى تأمل عميق في الدوافع التاريخية وراء انطلاق هذه الأفكار من معقلها الرأسمالي في إنكلترا وتأسيس شركة الهند الشرقية الاستعمارية. ويذكرنا بتعليق ماركس الشهير على ذلك بأن النول الإنكليزي يعمل على نسيج الشرق. وقد يصح القول بأن ماركسية حسين الرحّال هي نسيج شرقي على نول رأسمالي.
مفارقة أخيرة.. تؤكد أن المجتمع العراقي (المشروع) يصل الآن بعد تحرير العراق من ربقة الديكتاتورية إلى خط الشروع التعددي بمختلف قواه وتياراته الإسلامية والوطنية، العريقة والمتشكلة حديثاً.. أن الشارع العراقي الآن مجموعة كبيرة من التظاهرات ورايات متعددة ولكن لو ننظر وراء هذا النسق المتجاور التعددي الذي ينطبق تماماً مع النظام الاجتماعي الآن، لننظر إلى العقود الماضية من الزمن نرى الأحزاب والتيارات والقوى. ليست بمثل هذا الظهور الجماعي الحق، فكانت متعاقبة وجيلية، تظهر في عقد وتضمر في آخر، فالشارع الستيني الذي ظهرت فيه القوى الجماهيرية الكاسحة للحزب الشيوعي العراقي لم تكافئه قوى أخرى والشارع في نهاية السبعينيات الذي ظهرت فيه القوى الإسلامية وفيما بعد في بداية التسعينيات في جنوب العراق يشكل ظاهرتها الزمنية والسياسية.
نرى الآن أن النسق الثقافي يتحول من الكهف إلى السطح الاجتماعي مما يدفع أيضاً إلى تبني فرضية ثقافية في العمل السياسي أمام اصطفاف جميع القوى على خط شروع واحد ولا يمكن إثبات هذه الفرضية إلا من خلال دراسة النسق الثقافي الذي يقود إلى المتغيرات ونقاطها على الخارطة الزمنية والاجتماعية ومن ثم تأمل المكوّن الثقافي على الأرض والبيئة.
فالمجتمع العراقي لا أحد سوى هو.
والقوى السياسية كلها هي وحدته على طريقه الجديد.

(*) محمد خضير سلطان: قاص وناقد (١٩٥٨)، أصدر مجموعته القصصية الأولى (ما يشبه الأثر) عام ١٩٨٩، له مجموعة قصصية جاهزة للطبع، له مخطوط رواية تنتظر الطبع، كتب العديد من المقالات والبحوث في الشأن الثقافي.

تحولات حول الحرية والثقافة

أحمد سعداوي

لا نستطيع الحديث عن الحرية إلا باعتبارها مخلوقا ثقافيا، خضع للتعديلات والتكييفات على مر التجربة الإنسانية، هذا المخلوق الثقافي قد لا يحيل في بعض الأحيان إلى معطيات الشعور والتجربة الذاتية الخاصة، وقد يتقنع أحياناً بأغراض وغايات هي في الضد من جوهره.

إن الحرية التي يلهج بها على سبيل المثال شاعران كلوي أراغون ونزار قباني مختلفة في الدلالة.. فإذا كانت تعني لدى أراغون التحرر الوطني من الاحتلال.. أو التحرر الأممي العالمي.. فإنها تعنى لدى قباني التحرر من قيود التخلف الشرقية أو التحرر من سلطة الاستبداد الديكتاتوري.

ان الطاغية يمسك بحريته، لهذا فهو طاغية، والعبد يحلم بها، لذا هو عبد. أما الحرية المطلقة فشيء لا تتمتع به سوى الآلهة، فهي حرة مثلاً حتى في أن لا تغدو آلهة. لكن الإنسان يظل مشغول الفكر بممارسة الحرية بقدر انحسارها عنه. وهذا ما يولد ما أسميه عادة ميتافيزيقيا الحرية. إن الحرية هي المخلوق الثقافي للعبد والأسير، وهي براءة اختراعه تاريخيا. إنها ميثولوجيته وذلك الجزء من ذاته الذي يسميه الروح، والذي ينشد الانعتاق من الجسد، مادام هذا الأخير هو وثيقة سجنه وأرشيف اضطهاده وعبوديته.

من هذا الباب وحده، يمكن اعتبار الموت هو الانعتاق الأخير، والتجسد الكامل للحرية. ولكن الحرية من خلال الموت هنا ستغدو لمن؟ للإنسان أم لوهمه؟! إن الحرية كموت (انتحار) والموت كحرية (استشهاد) قراءتان لنفاد الحرية من الحياة. أو صورتان متعارضتان شكلياً ومتطابقتان مضمونيا لهيمنة ميتافيزيقيا الحرية.

ولكن، هل لنا أمل بإمساك دلالة حقيقية وكاملة للحرية، في إطار كونها هما ثقافيا وتجربة عملية؟ أم أننا محكومون ــ كما تثبت العلوم الاجتماعية المعاصرة ــ بالارتحال في صيغها الميثولوجية المتحولة؟

ليست هناك حرية مجردة. دائماً الحرية باتجاه شيء. أو من أجل شيء أو هروباً من شيء. وبذلك فقط تخلق نسقها الخاص وتأخذ قيمتها من خلاله.

وفي المجال الثقافي، يكتسب النص الإبداعي تاريخياً أسبقية في العلاقة مع الحرية، أو تعبيره عنها، حيث دوام العقل الإيديولوجي عبر التاريخ على تقصي تلك المساحات النافرة والمنفلتة في النص الإبداعي عن جهازه التفسيري، وغير القابلة للامتصاص إيديولوجيا، من أجل إفنائها أو تجريبها. أو وهماً وخيالات مرضية أو تحذيراً وغيبوبة. ولا واقعية وكذبا وتخريبا.. حسب لائحة اتهام العقل الإيديولوجي والاستبدادي. وإن عدم افتراض الوعي الإبداعي لعالم مكتمل وجاهز أو حقيقة ناجزة، سابقة على النص الإبداعي.. هو ما يكثف الحرية كسلوك تعبيري داخل الثقافة. أو الوعي الإبداعي ينتج معرفية عن العالم أو يتمثلها كميثولوجيا، ولا يتعامل معها على أنها حقيقة نهائية وقاطعة أو يتجاهل الطابع الميثولوجي لممارسته المعرفية كما يفع العقل الثبوتي والإيديولوجي.. وهذا مصدر اتهام العقل الإيديولوجي والثبوتي للإبداع بكونه وهما.. وهذا نفسه مصدر تجسد الحرية لدى الوعي الإبداعي أيضاً.

إن النص الإبداعي بهذا الوصف غدا روحاً ترجو الانعتاق لدى الكائن/ العبد والمأسور في عالم تحكمه الثبوتيات والقدريات ووصفيات العالم والوجود الجاهزة والمتعارضة. غدا حرية

في عالم يكتسب معناه أصلاً من عبودية الكائن.
إن الاحتمالية والتعدد الدلالي في النص الإبداعي تربي الكائن على الحرية، وتمنحه فضاء تصورياً لإمكانياته اللامحدودة ككائن. وأحسب أن التجربة البشرية قد تشعبت بذلك بشكل كبير حتى آل الأمر في النهاية إلى تمثل المعارف الاجتماعية لهذه القيم، فتقرر مثلاً تلك الإشارة التي احتواها الفن عبر تاريخه.. ألا وهي الطبيعة الميثولوجية للمعرفة، ومحتواها التساؤلي غير الثبوتي، والفهم العميق لتلك التكسرات والثلمات التي هي جزء بنيوي أساسي في المعرفة، والثقافة البشرية تفصح عن حرية المعرفة إزاء لعنة الاكتمال. وعن الحرية التي تتجسد بهذا الصبو الأزلي والدائم نحو الاكتمال.

الإبداع.. نقطة ضوء ثقافية

داود سالم (*)

أولا لابد أن نبدأ من خصوصية الواقع الراهن الذي نعيش فيه، من إشكالاته ومن أسئلته الملحة التي يفرزها، ليكون الوعي بحركة الواقع الحي هو البدء والمضي في هذا الاتجاه.
ولكون الواقع الحي متصل بالماضي، وأحياناً الماضي مستمر فيه، لذا فإننا لا يمكن أن نتعامل مع الحاضر بكفاءة في الوقت الذي نرى فيه التراث على أنه "كراكيب قديمة في غرفة مهجورة"(**)، إذن لابد من قراءة التراث قراءة جديدة وإعادة صياغة سؤاله بما يدفع إلى الأمام وليس إلى الخلف، بما يدفع إلى الابتكار والتمرد والإبداع والفعل الخلاق، وهذا يعني أننا نعود إلى التراث باستمرار بوصفه فعلاً إنسانياً لا دينياً، فالكتب السماوية (التوراة، الإنجيل، القرآن) كتب إلهية منزّلة وليست من صنع البشر، وهي خارج التراث وتعمل ضمن موجهات التراث باعتبارها مقدسة، لذا فإن التراث من صنع أسلافنا، وهو ليس مقدساً.
وهذا يعطي حرية الاختيار، وإعادة النظر فيه، وإعادة إنشائه.. والواقع الراهن ليس جزءاً منفصلاً عن العالم أو مستقلاً استقلالاً تاماً عنه.
وإن حركته هي في إطار حركة عالم ممتد، وعليه فإن التطورات التكنولوجية والمتغيرات الكبيرة لابد أن تشمل الجزء ولابد من التناغم مع تلك المتغيرات، فالثورة التكنولوجية وثورة المعلومات جعلت العالم يقع ضمن إطار ما يسمى بالقرية الصغيرة، وقد اتضح حقاً أن العالم كله والبشر جميعاً ينتمون إلى كوكب واحد ولابد إذن من إيلاء أهمية كبيرة للترجمة والإنترنيت، لابد من التزاحم مع الآخرين وليس الانعزال عنهم، وتبرز أهمية هذا الأمر على نحو جلي في كثير من الأمثلة. فلولا بيت الحكمة في عهد المأمون ما كانت الحضارة الإسلامية ــ التي استفاد منها العرب ــ قد وصلت إلى ما وصلت إليه وكذلك الأمر بالنسبة إلى مصر في عهد محمد علي والنهضة الثقافية التي حصلت فيها نتيجة الترجمة والاتصال مع الآخر، وهنا يبرز دور الوعي النقدي في إدراك أسئلة الواقع الحقيقية وإيجاد حلول مناسبة لها... بعيداً عن النقل الأعمى أو الفعل المقلد الخالي من الابتكار والإبداع.
وهناك أمر يواجه المشهد الفكري في العالم الآن، ولابد من تسليط الضوء عليه، ذلك هو محاولة اختزاله في تيار واحد هو ما يدعى بالعولمة أو النزعة الكوكبية، كما يسميها الدكتور جابر عصفور والدكتور إسماعيل صبري عبد الله. وهي في الحقيقة اختزال مخل، وهي في معناها الأورو ــ أمريكي تهدف إلى توحيد العالم بمعنى تحويل العالم إلى سوق مشترك

مفتوح، ولا معنى لحدود الدولة الوطنية التقليدية إزاء الحركة الاقتصادية الرأسمالية للشركات متعددة الجنسية، وهو مفهوم مبني على أساس الهيمنة، وتأكيد مفهوم المركز الواحد، المركز الذي يعني المخ الموجّه للأوامر إلى كل التشعبات، وهو يرسي عملية توحيد على مستوى الثقافات، كأنه يبحث عن قاسم مشترك مما يقلل من شأن "الهويات الثقافية" والخروج بثقافة واحدة تسمى الثقافة الإنسانية، إنه مفهوم أكثر بريقاً ونعومة وأكثر اتصالاً بالتكنولوجيا.. الإنترنيت، الميكروشيبس، ثورة المعلومات.. وغيرها.

وهناك مشروع ثقافي مضاد من خلال الطروحات الضعيفة للأمم المتحدة وفروعها، اليونسكو مثلاً، يسمى مشروع "التنوع الخلاق" القائم على الحوار والتبادل الثقافي وحوار الحضارات دونما هيمنة ودون إلغاء الهوية الثقافية لبلد ما. وبما أننا نعيش في هذا العالم، فلا يمكن أن نلغي أسماعنا وأبصارنا علىّ ما تطرحه العولمة ولابد من وضعها موضع المساءلة لنعرف أين هي مواقع الهيمنة؟

لنفرق بين هيمنة الشركات المتعددة الجنسية وتدمير الحدود الوطنية وبين استخدام الإنترنيت.. وسؤال أخير يظل ملحاً.. أين يقع المبدع من دائرة التصنيفات؟ ففي العراق وغيره من البلدان العربية على وجه الخصوص هناك عدة تصنيفات سياسية (يساري، يميني، رجعي..) وتصنيفات دينية (داخل الدين، خارجه، ملحد) وتصنيفات نقدية (كلاسيكي، رومانتيكي، واقعي، رمزي). يقول الدكتور جابر عصفور ان الكاتب الذي يقع ضمن هذه التصنيفات إنما هو كاتب من الدرجة الثالثة، أو الرابعة، أو الخامسة. والمبدع لا يمكن للصفة المذهبية أن تنطبق عليه إذ تجد دائماً عنده مناطق للتمرد على الأطر السياسية والنقدية والدينية والفنية. وإن جرثومة الإبداع هي فعل مستمر من الكشف مما يجعله في حاجة إلى الكشف والتمرد الدائم على التقاليد، ولا يوجد مبدع كبير يمكن حشره في مدرسة معينة، وفي الفترة التي طغى فيها الفهم الإيديولوجي تم رفض الكثير من الكتب المهمة لأنها لا تتفق وأدلجتنا كما هو الحال مع كتاب (ضرورة الفن) لأرنست فيشر مثلاً، لأن فيشر كان يقول إن الفن ضرورته التمرد.

وأخيراً فإن الإبداع في نهاية الأمر هو المحاولة المستمرة للإنسان في التمرد على مستوى الضرورة وبالتأكيد فهو ليس تمرداً جاهلاً عشوائياً، إنه فعل خلاق ينقل الإنسان من مستوى إلى مستوى أخر وليس ثمة مدى ينتهي إليه هذا التمرد، فحين يتوقف الجهد الإبداعي الخلاق عند نقطة محددة يتحول الإنسان إلى تجسيد للضرورة القائمة وينتهي الإبداع.

(*) قاص وشاعر نشر العديد من القصائد والقصص والمقالات النقدية، يعكف على إنجاز المجموعتين الشعرية والقصصية خلال شهر تشرين الأول ٢٠٠٣.

(**) "كراكيب قديمة في غرفة مهجورة" استعارة من وصف الطيب صالح في قصور النظر إلى التراث.

مستقبلَ الثقافة في العراق

قاسم السومري



بعد كل نازلة تحلّ بالعراق أو بمحيطه العربي والإسلامي، ينبري المثقفون إلى طرح تساؤلاتهم، التي تتسم في غالبها برد الفعل العاطفي والمنفعل. أين نحن مما جرى؟ أين نحن من المستقبل؟ مرة بصيغة جمعية كونهم شريحة من مجتمع واسع، ومرة بصيغة أكثر تحديداً، تختص بمجال اشتغالهم الثقافي والفكري. وتبقى الإجابة معلقة بانتظار نازلة أخرى ليعاد طرح هذه التساؤلات ولكن بصيغة أكثر حداثوية. إن تكرار دورة الأسئلة هذه أفرزت سلوكا ثقافياً مازوخياً، لا يتعايش إلا مع الأزمة ومع سوط جلادها. لتنتج خصائص لثقافة سائدة تنقسم بين ثقافة التصفيق والتبرير، وبين ثقافة القهر والاضطهاد. وبين هذه الثقافة وتلك، يتلاشى دور النخب الثقافية في دراسة ونقد وتحليل معطيات الأزمة بشكل موضوعي لاستشراف آفاق المستقبل، هذا الدور الذي مارسته النخب الثقافية الأوروبية في تأسيس وقيادة التطور التاريخي الحديث لمنظومتها الحضارية، أين العلة؟

لا يمكن الحديث عن مستقبل للثقافة العراقية بمعزل عن الغور في جذورها، وعن معيقات تكيفها وتطورها كجزء من منظومة حضارية إسلامية، مهيمنة وفاعلة في الشخصية العراقية، همشت إن لم تكن غيبت الإرث الرافديني الرائد في هذه الشخصية، وصادرت في المراحل اللاحقة من تطورها، حينما ارتبطت بمفهوم القومية العربية، الحقوق الثقافية للأطياف القومية والدينية والمذهبية التي يتشكل منها المجتمع العراقي. إن هذه المنظومة تعاني من أزمة مستديمة تتعمق مع كل تطور حضاري يشهده العالم. وإن هذه الأزمة البنيوية تمد جذورها في عمق التاريخ الحضاري لهذه المنظومة. فإذا ما أردنا النهوض بثقافتنا ومجتمعنا فإن هذا الأمر يفرض علينا أن نعالج هذه العقدة المركزية بعلاجات نستخلصها من بيئة هذه المنظومة وليس باعتماد وصفات علاجية خارجية جاهزة، قد تساعد في العلاج، ولكن اعتمادها كعلاج رئيسي ينتج أضراراً بليغة وقبل البحث في العلاجات علينا أن نبحث في أسباب العلة.

يقول (إدوارد هيرو): الثقافة هي ما يبقى عندما يتم نسيان كل شيء ــ وإن ما تبقى من الحضارة الإسلامية العربية بإشراقاتها وانكساراتها هو "العقل" الإسلامي العربي الذي يمثل خلاصة ثقافتها وتأثيرها. هذا العقل الذي صيغ في القرون الهجرية الثلاثة الأولى من خلال النص القرآني والسنة واكتمل بناؤه على يد الفقهاء واجتهادات المفسرين "وعندما اكتمل البناء في اللغة والتشريع، لم يعد هناك مجال للمزيد، فأصبح هذا ــ العقل ــ سجين هذا البناء الذي طوق نفسه به. فلم يكن من الركود مناص ولا من التقليد مفر" كما يقول محمد عابد الجابري: يتصف هذا ــ العقل ــ بمجموعة من الخصائص يمكن الإشارة لأبرزها:

1-إذا كان مفهوم العقل في الثقافة اليونانية ــ الأوروبية الحديثة والمعاصرة يرتبط بـ(إدراك الأسباب) أي بالمعرفة، فإن معنى (العقل) في اللغة العربية وبالتالي في الفكر الإسلامي العربي يرتبط أساساً بالسلوك والأخلاق.

2-النظرة المعيارية للأشياء، والمقصود بالنظرة المعيارية، هي ذلك الاتجاه في التفكير الذي يبحث للأشياء عن مكانها وموقعها في منظومة القيم التي يتخذها ذلك التفكير مرجعاً ومرتكزاً له، هذا في مقابل النظرة الموضوعية التي تبحث في الأشياء عن مكوناتها الذاتية وتحاول الكشف عما هو جوهري فيها. فهو عقل تعيين الحاضر والمستقبل على الماضي دون تدبر للخبرة والتطور، بل إن الحاضر والمستقبل أصبحا في نظرها رمزين للأغلال والانحطاط.

3-تبنت الدراسات اللغوية الأطروحة القائلة بأن منظومة لغوية ما "الشــيء الذي يعني ليس فقط مفرداتها بل أيضا نحوها وتراكيبها" تؤثر بطريقــة رؤية أهلها للعالم، وفي كيفية مفصلتهم له، وبالتالي في طريقة تفكيرهم، إننا نفكر كما نتكلم ــ الشــيء الذي يعني أن اللغة التي تحــدد قدرتنا على الكلام هي نفسها التي تحدد قدرتنا على التفكير ــ كما يقول (آدم شــاف) ــ واللغة العربية التي استمرت قدسيتها من كونها لغة القرآن لم يجر عليها تجديد وتحديث طيلة أربــعة عشر قرناً ــ وضعت المثقف في إشكالية معرفية بين لغة أدبية تعتمد العربية وسيلتها في التعبير وبين لغة أجنبية للتعامل مع معطيات الحضارة المعاصرة وبين لغة محكية للتواصل مع محيطه الاجتماعي.

4-يختزل هذا "العقل" الزمن ويكثفه في بــؤرة نصية، فالماضي ليس إلا ماضي النص الذي أعاد تشكيله وفق صيغة استرجاعية وكذلك هو الحاضر والمستقبل اللذين ينسحــب زمنهما إلى زمن النص الذي رسمت خطوطه بين بدء مطلق ونهاية مطلقة وما منحــنياته إلا تعبــيراً عن صراع الخير والشر في شخصية الإنسان. وإن الفهم للزمن ولد خلطاً بين الحضارة التي نتجت عن الإسلام والتي تخضع لاشتراطات التاريخ الإنساني المتغير (النسبي) وبين الإسلام كعقيدة دينية ثابتة (مطلقة).

5-أنتج عن هذا الخلط (النسبي) و(المطلق)، العقــلية الدوغمائية أو الصرامة العقــلية التي يعرفها (مارتن روكيش) بأنها "عدم قدرة الشــخص على تغيير جهازه الفكري والعقــلي عندما تتطلب الشروط الموضوعية ذلك، وعدم القدرة على ترتيب أو تركيب حقل ما تتواجد منه عدة حلول لمشكلة واحدة وذلك بهدف حل هذه المشكلة بفعالية أكبر". ويعتبر (روكيش) ان العقــلية الدوغمائية ترتكز أساســا على ثنائية ضدية حــادة هي نظام من الإيمان والعقــائد ونظام من اللاإيمان واللاعقائد، بكلمة أخرى أكثر وضوحاً فإن العقلية الدوغمائية ترتبط بشدة وبصراحة بمجموعة من المبادئ العقائدية وترفض بنفس الشدة والصراحــة مجموعة أخرى وتعتبــرها لاغية لا معنى لها. ولذلك فهي تدخل في دائرة الممنوع التفكير فيه أو المستحــــيل التفكير فيه وتتراكم بمرور الزمن والأجيال على هيئة لا فكر فيها.

6-إن اعتماد القياس والجماعة واحداً من مصادر التثبت المعرفي في المنظومة الإسلامية قد فتح المجال واسعاً لمصادرة الحقــوق الفردية وتجييرها لصالح الجماعة، هذه المصادرة التي جعلت من أفراد المجتمع نسخاً كربونية مشوهة لصورة أصلية رسمها السلف. وإن من تداعيات هذه المصادرة هو قمع الحــوارز و هذه الصفة ملازمة لها ومعمقــة لفاعليتها في المجتمع مما انعكس سلباً على المنظومة الاجتماعية وعلى كل البنى التحتية والفوقية المكونة لها، مما سلبها روح التفاعل داخل منظومتها ومع المتغيرات العالمية.

يوصي غاندي، نهرو "بأن لا تحاول أن تقنع أحداً بتغيير عاداته وأفكاره، وأقصى ما تستطيع فعله هو أن تقنعه بأن يبدأ في مراجعة العادات والأفكار، إذا فعل ذلك فإنه هو الذي سيغير وليس أنت" وبدلاً من البحث في حلول جاهزة لمشاكلنا ومحاولة فرضها، علينا قبل ذلك أن نوفر البيئة والمناخ المناسب لعملية التغيير من خلال ما يلي:

1-تحديد هويتنا العراقية من خلال إدامة الصلة بإرثنا الرافديني القديم وإعادة قــراءة الإرث الحضاري الإسلامي والعربي وفق منهجية نقدية تحليلية تتسم بــالجرأة والانفتاح على المعطى الحضاري الإنساني والتفاعل معه. بالإضافة إلى الاعتراف بالمكونات الحضارية والاجتماعية والثقافية التي يتشكل منها هذا المجتمع.

2-الفرد قيمة عليا في المجتمع علينا أن نقر ونصون هذا المبدأ بصياغة دستورية وقانونية، لأنه يشكل معولاً في تحطيم المنظومة السياسية والاجتماعية التي جعلت من الأفراد قطيعاً تنتظر كلاب الراعي لترشدها إلى الطريق، كما أنها تفتح سبلاً رحبة للمشاركة الحقيقية في بناء المجتمع.

3-فصل الدين عن السياسة. إن هذا المبدأ يسهم في إقامة مجتمع عصري يتفاعل داخل منظومته الحضارية التي يشكل الإسلام الجزء الفاعل في ترتيبها ومع المنظومة الحضارية الإنسانية الأخرى.

4-الديمقراطية، هذه الوصفة السحرية التي جعلت من المنظومة الأوروبية دائمة التجدد والتطور، هي الضمانة الأكيدة لمجتمعنا المتنوع الأطياف لأداء دوره الحضاري.

5-تأكيد دور المرأة، التي تشكل إحصائياً نسبة ٦٠% من مجتمعنا، وتأثيراً ١٠٠% لأنها الجزء الفاعل في صياغة الإنسان وتحديد فاعليته في المجتمع.

6-إعطاء الأولوية والدعم اللامحدود لأجهزة التربية والتعليم، وتحديث مناهجها وأساليب عملها وفق طرائق علمية وتربوية صحيحة، وكذلك تشكيل ودعم قطاعات غير حكومية سائدة تهتم بالطفولة ..

قيامة الثقافة العراقية

أو طوطم (الحنّديري)

نصيف فلك(*)

يقف المثقف على منبر النص، ويبدأ خطبته على جمهور يعرف سلفاً ما سيقول، ويشحذ كفيه للتصفيق الإيديولوجي أو الحزبي، بحيث يكون هذا المثقف على مقاس الجمهور في لباسه الفكري والجمالي، ويكون الجمهور أوعية لثقافة الأواني المستطرقة، ومثقف كهذا يضع (الحنّديري) ــ في اللهجة العراقية تسمى السيور الجلدية التي توضع على جانبي عيني الحصان لكي لا يرى إلا أمامه فقط بالحنّديري ــ على عقله وعلى عقول جمهوره فيؤدي إلى:

1-شلل نصفي في الثقافة لأنه حذف المتلقي، شريكه في النص عندما كتب شفاهياً إلى جمهور يسمع قراءة؛ لأنه جعل نفسه خطيباً لا كاتباً ولا مثقفاً.

2-هذا المثقف يكتب في الزمن الضائع، خارج لعبة الحياة، ربما كان يخاطب جمهوراً في كوكب المريخ أو عطارد ونحن لا نعلم، لأن زمنه الثقافي راكد، لا يبرح مكانه الإيديولوجي أو الحزبي حين يكتب في المعلوم عن المعلوم، دون اقتحام المجهول والمغامرة في إضاءته، وهو يجيب لا يسأل ويذهب فيما وراء سؤاله، وهو بالتالي ولاد لثقافة سجينة أو روبوت جمال فلزي ينتج ثقافة معلبة.

3-هذا المثقف براغماتي في لاوعيه ، لأنه يعرض بضاعة نصه في سوق السياسة ــ والسياسة كما يعرفها المستنيرون آفة الفن والأدب والمعرفة ــ حيث تأخذ البضاعة طريقها المعهود إلى محارق زبالة التاريخ.

4-هذا المثقف يأكل معنى اللغة، فتبقى مجرد قشور تتطاير وتتبعثر في أول نفخة نقدية، لماذا؟ لأن اللغة بالنسبة له جاهزة، معدة، مبوبة ومنسقة في مجارير أفقه الإيديولوجي أو الحزبي، هي وسيلة له لأنه طيب وليس كاتباً، ولأن زمنه الثقافي راكد لا متفجر، ولأنه مطية للسياسة، ولأنه يراوح في منطقة المعلوم والمكتسب، ولأنه أخيراً يفتقد إلى ثقافة وجوده كذات وكإنسان، لا حيلة أو ميزة تضاف وتكمل وجوده.

إذن هي ثقافة ضد الإنسان وضد المجتمع وضد الحياة، هي ثقافة معوقة عكازها السياسة ــ عكاز ضلال يقود إلى قبح وتخلف ــ أما لماذا هي كذلك، فلأنها ثقافة (حنديرية) انحدرت إلى أعمق درجات الانحطاط في عهد الطاغية صدام، وبلغت حد الفصام أقصاها:

1-فصام بين الثقافة والمجتمع.

2-فصام بين المثقفين أنفسهم.

3-فصام المثقف مع ذاته ونفسه. وهنا فقد المواطن العراقي هويته: أ- هويته كإنسان.

ب- هويته كانتماء لبلده العراق الذي فقد هويته هو الآخر وضاع بين فكي العروبية التي علسته إلى آخر غضروف ينتمي للعرب، وضاع بين تنوع ثروته وفرتها التي ينوء بها فقد حطمته أكثر مما أفادته، وضاع بين تركات حضاراته التي ظل يرزح تحتها ولا يستطيع النهوض وظل متخلفاً يكابر ومن شدة تخلفه يرعد ويزبد ودائماً يصيح: (أنا مهد الحضارات، أنا عاصمة الكون، أنا معلم العالم) والجميع يتفق بأن الفتى لبس من قال كان أبي/ المثقف من قال هاأنذا.

لذلك محنة المثقف العراقي عويصة لحد القنوط، فلا يسعفنا نبوخذ نصر، ولا يخرجنا من ورطتنا حمورابي، ولا ينصرنا خالد بن الوليد، ولا يحررنا صلاح الدين الأيوبي مطلقاً، ولا منادمة هارون الرشيد في حانة الدولة العباسية. ونبقى هكذا في أبشع السجون ضراوة، طبعاً سجن التاريخ الذي هو أكثف ظلامية ونتانة من تاريخ أكلة لحوم البشر ولكن الأشرس منه ظلامية بل هو سيد الظلمات والوريث الأوحد لهذا التاريخ الأسود هو صدام.

هل الثقافة العراقية بخير وهي في متاهات (الحنديري) عبر التاريخ وحتى متاهة (هنا) و(الآن)؟ هل ننفض أيدينا يائسين من احتضار الثقافة العراقية ونردد مع ببغاء اللاجدوى: إلى القبر وبئس المصير؟

إلى من يهمه العراق وأهل العراق وثقافتنا، إلى من يهمه الخروج من رماد الحضارات وظلامية التاريخ: الاعتراف، الاعتراف بأننا نعيش في أمية ثقافية يستحيي منها الجهل، وينكمش من عارها الورق الأبيض.

·فإذا لم نخلع (الحنديري) أي حنديري كان، خاصة الإيديولوجي والحزبي، وطرد السياسة نهائياً من حقل الثقافة العراقية، لا أمل للقيامة من موتنا أبداً. ثم محاكمة أنفسنا بعد الاعتراف، وهذه المحاكمات تكون علنية في قاعات الأدب والفن والمعرفة، فهي ستقودنا إلى محاكمة التاريخ بلا رحمة ولا شفقة، حيث نتخلص في تلك المحاكمة من صفة التقديس والتدنيس، نكون قد اجتزنا كل الفخاخ والكمائن إلى حكم بريء من التعصب والتطرف، ومن التهور والمجانية، حكم يليق بمثقف جلّ همه أن يكشف للإنسان إنسانيته ويعيده إلى وطنه العراق محباً مخلصاً، ويعثر على هويته الضائعة ليندمج مع إخوته بشر العالم، عندها يتفجر الزمن الثقافي ويتصاعد اقتحامه للمجهول في مغامرة الكشف والتقصي في لذة تكتنز فيها كل اللذات، ولا يفكر في منفعة إلا وهي منفعة للوطن وللعالم وللكون. وهنا تستعيد اللغة عافيتها في التوالد توأم، توأم لمعاني قشيبة وجديدة من رحم وجوده الثقافي. هذا الوجود وحده يستحق أن نطلق عليه كلمة حضارة، فهل هذا أوان قيامة الثقافة العراقية من برزخ العقم؟

(*) شاعر عراقي له (النهر الهارب).

نهج وزارة الثقافة وخطة عملها

هاتان الوثيقتان اللتان طرحتهما وزارة الثقافة هما حصيلة مساهمة جماعية لعدد كبير من مثقفي شعبنا ومبدعيه. لغرض تعميم الفائدة وتوسيع مجال النقاش حولهما، ننشرهما في هذا العدد.

الثقافة بوصلة نزوع المجتمع للارتقاء بوجوده وتغيير محيطه. وهي لاتزدهر الا في مجتمع ديمقراطي، وهذا الاخير لايجد ركيزته الراسخة الا في ثقافة ديمقراطية.
ان لبلدنا خلفيات حضارية تغوص في الذاكرة الجمعية، وعلى تلاقح هذه الذاكرة الموغلة في القدم نعول اليوم في تشكيل هوية معاصرة تربط الماضي بالحاضر وتعبر بنا الى محيطات ثقافية كونية جديدة. اننا ندشن اليوم افقا تاريخياً واعداً، لقد سقطت اسوأ النصب اسوأ الرموز، اسوأ فترات الاستبداد، اسوأ الافكار العنصرية. سقطت ثقافة المقابر الجماعية، والحروب العشوائية والانقلابات والابادة الجماعية وتصفية الخصوم واجبار المثقفين على الاذعان في الداخل او الهجرة خارج الزمن، حيث الوحدة والاستلاب والموت الروحي والجسدي بعيدا عن الوطن. نحن اليوم امام متغيرات العصر، امام ابهى انجازات الانسان في مجالات الحقوق والمعرفة وثورة التكنولوجيا، وامامنا مسؤولية قلب كل الشروط التعسفية التي قيدت رؤانا وارادتنا، والانتقال نحو مباهج الفعل الاجتماعي الخلاق المتجسدة في المنجز الجمالي المشروط بالحرية والتنوع واحترام القيم الانسانية. ونعتقد ان فرصتنا حانت لطرح البدائل وتغيير الثقافة وتحويلها الى ظاهرة اجتماعية وفنية تعم البلد من اقصاه الى اقصاه. فلا يمكن تحرير المجتمع دون تغيير بنيته الثقافية لتشمل الطفل والمرأة والرجل، وتلك مهمة تتطلب ربط البنى المنتجة للثقافة ببعضها، وهي هنا وزارات الثقافة والتربية والتعليم العالي وكذلك المكتبات والمسارح ووسائل الاتصال السمعي والبصري وكل مجالات المعرفة النظرية التطبيقية. فليس غير الثقافة الديمقراطية ما يجعل المجتمع يرى ويسمع ويدرك بشكل افضل، ويساهم في البناء اكثر، خاصة في مواقع التقاء النص الثقافي الاصيل معه. ان وزارة الثقافة وهي تمارس دورها في هذا العهد الجديد تجابه ركاماً هائلاً من ارث ثقافية صنعها النظام السابق على غرار حروبه وقمعه وحصاراته وفساده المادي والروحي. وهذا يضعها امام تحديات البحث عن الطرق الكفيلة ببناء ثقافة تمتثل للحقيقة والجمال والخير، وتقوم على الحرية والاستقلال والتعدد والقبول بالاخر. ان مجتمعنا وهو يخرج من عزلة قسرية طويلة فرضت عليه لاكثر من خمس وثلاثين سنة، ينبغي ان يأخذ باسباب التحديث والتفكير العلمي، ويسعى لارساء نظام انتاج معرفي راسخ في دعائمه مرن في معاييره. تدرك الوزارة انها لاتستطيع النهوض بمهمتها هذه الا بمشاركة المثقفين والمبدعين العراقيين المتطلعين للتغيير، وسيكون دورها التشجيع والاسناد والسهر على حسن توزيع ثمار العقل والروح لتشمل جميع شرائح شعبنا، وفي مختلف انحاء العراق. وتدرك ايضاً مضار اي توجه ايديولوجي مغلق لثقافتنا، آخذة بسمة العصر المتجلية بتعدد الثقافات، وتعايش الرؤى والاتجاهات الفكرية وتفاعلها بالحوار والتأثير المتبادل. وهي اذ تحرص على تأكيد حق الاختيار وتكوين القناعات دون وصاية او ضغوط، ستسعى لان يستفيد مجتمعنا من الجوانب الايجابية لظاهرة العولمة والثورة المعلوماتية. تحترم الوزارة حقيقة ان الدين الاسلامي يساهم في التكوين الروحي والثقافي

لمعظم الناس في بلادنا، تتعايش الى جانبه بسلام و محبة المسيحية و المندائية و اليزيدية و اليهودية.. هذا التنوع الديني مصدر غنى وقوة لمجتمعنا، وستعمل الوزارة على دعم البحوث و الدراسات و الحوارات و الفنون التي تظهر ان جوهر الاديان هو التسامح و الحرص على الحياة و الخير ورفض الظلم و التطرف و الارهاب. و اذ يتكون مجتمعنا من العرب و الكورد و التركمان و الكلدان و الاشوريين، حيث لكل ثقافته وتراثه، فأن ثمة روحا و أحدة تجمعهم على حب هذه الارض ومنجزها التاريخي الحضاري. وتجد الوزارة نفسها مسوولة عن رعاية ودعم ثقافة كل قومية او جماعة على حدة، و الحفاظ على كل ماهو مشترك و اصيل بينها. من خلال ذلك فقط تتأكد الهوية العراقية لثقافتنا التي نريدها ان تكون منفتحة ومتواصلة مع العالم. تقدر الوزارة قلق المثقفين و الشعب على مصير بلادنا وتطلعهم لانهاء الاحتلال واستعادة استقلالنا وسيادتنا الوطنية باسرع وقت ممكن، وخشيتهم من الاعمال التخريبية. ان الارهابيين و المخربين لايريدون شيئا سوى العودة ببلادنا الى كوابيس العهد السابق وظلماته، و هم اعداء لقيمنا الثقافية و الروحية. ورغم الموقف المؤسف للعديد من المنظمات الثقافية الرسمية و المهنية العربية من قضية شعبنا، الا ان الوزارة سوف تعمل على مد جسور التواصل مع المحيط الثقافي العربي، وتطوير علاقاتها مع المنظمات الثقافية الدولية، خاصة منظمة اليونسكو. ان الوزارة اذ تسقط ما انتج في ظل العهد المندثر من ثقافة مخزية تمجد الحروب و العنف و القمع و عبادة الفرد وتشيع اجواء الكراهية و الزيف و القبح فأنها حريصة على التمسك بما انتج الى جانبها من ثقافة عبرت قدر استطاعتها عن القيم الانسانية و الجمالية، و اصبحت جزءا من تراثنا الابداعي. كذلك فأن ما حققه المبدعون العراقيون من نتاج ناضج ادبي وفني في المنافي هو جزء من الثقافة العراقية. وينبغي الا يوضع في تعارض مع ثقافة الداخل، كما ينبغي النظر الى مكونات الحالة الثقافية و الاجتماعية السائدة مقترنة ليس فقط بظروف وضغوط الفترة العصيبة السابقة، بل وبافاق المستقبل. وستعمل الوزارة على تغير النظرة للمرأة، ودعم الثقافة التي تنتجها او التي تدعو لمساواتها مع الرجل في الحقوق الانسانية و القانونية، وتنشيط دورها البناء في المجتمع. بموازاة ذلك ستعمل على الاهتمام بثقافة الطفل و الحدث وحاجتهما الجمالية و المعرفية. وتدعم نشر ثقافة البيئة و الحفاظ عليها كحضانة للتراث و الجمال و الالهام. ضمن صلاحياتها ستلتزم الوزارة بتعزيز استقلال الاعلام عن اي تدخل حكومي وجعله اعلام الاصوات المتعددة وليس اعلام الصوت الواحد، وتتطلع الى مواكبته في المستقبل بقنوات فضائية، تلفزيونية و اذاعية، تختص بحقول الثقافة و الفنون. تريد الوزارة لثقافتنا ان تتفتح وتزدهر مغمورة باكبر فيض من النور، مستندة على حقائق الانسان و الوجود و العلم و الحداثة، ومتطلعة الى افقها البعيد دون ان تنسى جذورها ومنابعها و المشرق من تراثها وتاريخها. لذا ستكون كل النوافذ مشروعة امامها للتواصل مع ذاتها في مختلف تقلباتها و اطوارها ومع الثقافة العربية و الانسانية، ناشرة بين الناس عطاءها الناضج، لا رقيب عليها غير عقلها المبدع وضميرها العادل. الصعاب، كما نرى وترون كثيرة، لكننا نثق ان مثقفي شعبنا ومبدعية مؤهلون لتحديات ترقى عبرها ثقافة الجمهور الواسع الى مستويات حكمائه ومفكريه وفنانيه و الى تحقيق منجزات ثقافية رائعة.

معاً اذن الى عملية تثقيف متواصلة توقظ فينا الامل وتعيد انتاجه.

خطوات تنفيذية!

ان اهم ماينبغي ان تركز الوزارة على تنفيذه وباسرع وقت هو :

1- مواصلة تطهير اجهزة الوزارة التنفيذية والادارية من العناصر التي مارست ادوارا شائنة في الترويج لثقافة العهد المندثر بكل ماكانت تحويه من بشاعة وانحطاط. والعناصر الهزيلة والكسولة، وفتح مراكز ومواقع للكفاءات الجيدة النظيفة والجادة في بناء ثقافة جديدة وناصعة في بلادنا!

2- العمل على تحسين سلم الرواتب والمكافآت والحوافز، وتحسين ظروف حياة العاملين فيها وبما يتناسب ومهماتهم الصعبة واوضاع مماثليهم في البلاد المجاورة والعالم. ويسهم في بناء مؤسسة جديرة ببناء وادارة ثقافة متطورة.

3- انشاء مجلس استشاري، أو مجلس أعلى للثقافة من خبراء في شئون الثقافة والمثقفين يعنون في متابعة تنفيذ برنامج الوزارة الثقافي والعمل على تطويره واغنائه.

4- دعم النقابات والاتحادات الخاصة بالكتاب والادباء ماديا ومعنويا وضمان استقلالها ونزاهة انتخابها وحمايتها من التدخلات الحزبية والحكومية. ودعوتها لمشاركة أكبر في البناء الثقافي. على صعيد الاستشارة أو المبادرة العلمية.

5- ايلاء الادباء والكتاب والشعراء والفنانين رعاية كافية باصدار قوانين تمنحهم حقوقهم، واشكالاً من التفرغ لمهماتهم الصعبة، والمساعدة في تأمين السكن اللائق لهم ومنحهم الجوائز التي يستحقونها، ومساعدتهم عبر السفرات الاستطلاعية أو الدراسة للوقوف على تجارب الشعوب والمجموعات الثقافية التي خرجت من نير النظم الفاشية والدكتاتورية كتجارب المثقفين الالمان والايطاليين واليابانيين مثلاً.

6- توسيع العلاقات الثقافية من المنظمات والاتحادات العربية والعالمية وتعميق التبادل الثقافي والادبي والفني معها.

7- العمل على تنشيط نشر كتب المؤلفين العراقيين وتنشيط الترجمة خاصة الكتب العلمية والفكرية، وتلك التي تعكس تجارب شعوب عانت من ويلات الدكتاتورية والحروب، واصدار المجلات والدوريات المتنوعة والمتخصصة!

8- تأهيل القطاع الاهلي لأحياء عملية النشر والانتاج الثقافي المشترك وتنظيم خطوات الشروع بالعمل لتأسيس مجلس مشترك بين اداريي الوزارة وجماعة الناشرين.

9- الاهتمام بالرواية والمسرحية والشعر وفتح ورشات عمل لها واستعادة تقاليد اللقاءات والمهرجانات الثقافية وعلى اسس ابداعية ونقية.

10- العمل على تخليص المسرح من الابتذال والتهافت التجاري، واعادته الى تقاليده الجادة وتراثه الاصيل الذي عرف به في اعوام الستينيات والسبعينيات. ودعمه وايصاله للمحافظات واقامة مهرجاناته النوعية. ورعاية العاملين به معنويا وماديا.

11- دعم السينما وتهيئة مستوى معقول من مستلزمات الانتاج وتأهيل السينمائيين

الشباب بالدورات و الزمالات لتعزيز خبـــراتهم وتطويرها و العمل على المدى المتوسـط لانشاء استديوهات متطورة بالمال الخاص أو شراكة الدولة، و الاستفادة من تجارب عربية و عالمية كالسينما المصرية و الهندية و العلمية و الاســتعانة بخبـــرات خارجية و العمل على انتاج افلام تمجد نضالات الشعب ضد الدكتاتورية، وتفضح ممارساتها و تساعد الناس على فهم حقائق تاريخنا الحديث، مع افلام ذات طبيعة انسانية و درامية.

12- الاهتمام بالفرقة السمفونية الوطنية. ودعم الفرق الموسيقـــية الجادة و العمل بـــجد لتخليص الاغنية من امراضها و ابتذالها و جعجعتها العسكرية، وتحبـــيب الموسيقـــى للناس و نشر الموسيقى الجادة العالمية و العربية، ودعم اسعار التسجيلات و الاقراص المدمجة.

13- دعم النشاط الفلكلوري، وتنشيط دور الازياء و مراكز الفن الفطري.

14- العناية بالمتحف الوطني و المتاحف الاخرى (خاصة الطبـــيعية و الزراعية) و العمل على استعادة الاثار و التحف المسروقة و مســـاندة اعمال التنقـــيب و ترميم الاماكن و المعالم الاثرية.

15- تطوير السياحة، وتوسيعها و تخليصها اجهزة و بـــرامجا من مفاســـد العهد المندثر، و الاهتمام بالعتبات المقدسة و جعلها مراكز جذب روحي و انساني.

16- الاهتمام بالفن التشكيلي و رعايته باقمة السعراض و الملتقـــيات العربـــية و العالمية. و تشجيع الكاليريات، و مكافحة الاتجار غير المشروع باللوحات و الاعمال الفنية العمل على استعادة لوحات الفنانين العراقيين المسروقة، و اعادة بناء المتاحف الفنية المدمرة.

17- تتطلع الوزارة لمواكبة الاعلام المستقل بقـــنوات فضائية تلفزيونية و اذاعية تختص بحقول الثقافة و بما يسهم في تطوير السينما و المسرح و الغناء و الموسيقى و بـــرامج التراث و السياحة.

18- دعم تعميم ثقافة الانترنت و استعمال الحاســـوب خاصة من قبـــل الكتاب و المؤلفين و العمل على توفيره لهم بشكل جماعي، او بشكل شخصي و باسعار مناسبة.

19- تعزيز دور دائرة الفنون و دعمها بالعناصر الكفوءة و النشيطة.

20- تأســـيس هيئة أو مجلس للتراث العراقـــي يرعى و يكتشـــف البحـــوث و المعاهد و المنشورات التي تعني بحماية تراث الوطن الثقافي في مناطق العراق المختلفة.

21- انشاء بيت ثقافات العراق ليتخصص في درس وتحليل الثقافة العراقـــية المتراكمة و يمكن ان يسمى بـــيت الذاكرة العراقـــية، و يمكن ان تكون احـــدى مهامه اســـتعادة الكتب المخطوطة و الوثائق التي نهبت من المكتبات أو بدائل عن اشـــرطة و تســـجيلات الاغاني و المسلسلات و الافلام الوثائقية التي احترقت خلال الحرب الاخيرة.

22- اقامة اسابيع متخصصة اسبوع للقراءة تشارك فيها الوزارة و الاتحـــادات و الورش للتمريس و اتقان معنى القراءة و دورها و يكون لثقافة الاطفال موقـــع اساســـي في انشـــطة القراءة.

23- تشكيل لجنة خاصة من وزارة الثقافة و وزارة التربية و التعليم العالي و البحث العلمي

للعمل و التنسيق سوية على تخليص النصوص و الكتب من ثقافة العهد المباد و القيام بفعاليات مشتركة لنشر الثقافة الجديدة.

24- العمل على عودة المثقفين و المبدعين العراقيين المنفيين في الخارج وتسهيل سبل سفرهم وسكنهم و عملهم في وطنهم و العمل على التعريف بنتاجهم ونشره وتكريم المستحقين منهم!

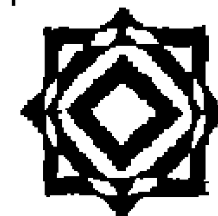
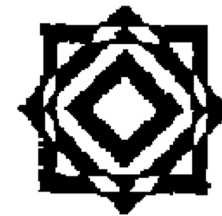
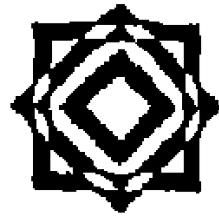
25- السعي للاحتفاء بكبار السن من الادباء و التشكيليين و المسرحيين و الموسيقيين و المغنيين ومنحهم الجوائز و الشهادات التقديرية.

26- تحويل عدد من قصور المسئولين السابقين الى قصور للثقافة، و اعدادها لفعاليات وعروض فنية خاصة او كدور ضيافة لوفود او شخصيات ثقافية زائرة.

27- جعل الاشراف الثقافي على المكتبات العامة من اختصاص وزارة الثقافة. وتنظيم ذلك بلائحة خاصة بالتنسيق مع الادارات المحلية.

28- ستهتم الوزارة بالثقافة الكردية و التركمانية من خلال تطوير دار الثقافة الكردية ومديرية الثقافة التركمانية وتأسيس مديرية للثقافة الكلدوآشورية، ونشر الكتب باللغة العربية عن آداب وثقافات هذه الشعوب وفتح المجالات الرحبة امام انشطتها الثقافية و الادبية و الفنية.

29- الاهتمام بالمواقع الاثرية وحمايتها من السرقة و التخريب، العناية بأعمال التنقيب وتنشيطها و الحفاظ على الاثار المكتشفة وتصنيفها و العمل على استعادة الاثار المسروقة، وتطوير العمل في المتاحف، وتنظيم متاحف لنا تتجول في بلدان العالم تعرف بثقافتنا وتاريخنا.

شخصيات

عبد الفتاح ابراهيم: شاهد على احتلالين!

جليل العطية

كم معدل اعمار العراقيين في عصرنا ؟:
سؤال لن تجد جوابا علميا له.. غير ان الرقم المتوفر هو : ستون عاما .. لكن هذا الرقم المتواضع تناقص كثيرا قياسا لاعمار ابناء الشعوب الاوروبية مثلا.. و لا حاجة لمعرفة الاسباب في بلد طحنته الحروب و الحصارات، حتى عجز العراقيون عن معرفة عدد المقابر الجماعية الموجودة في بلدهم!
رغم كل هذا فثمة استثناءات شملت عددا من الشخصيات العراقية، نذكر منهم السادة: -عبد العزيز بن الحسين الجواهري(الشاعر) الذي توفي في تموز ١٩٨٦م عن ٩٤ عاما (مولده في النجف ١٨٩٠)

-محمد بهجة الاثري(المجمعي) الذي توفي في ٣١ اذار ١٩٩٦ عن ٩٤ عاما -محمد مهدي الجواهري(شاعر العرب الاكبر) الذي توفي في دمشق في ٢٧ تموز سنة ١٩٩٧ عن ٩٨ عاما.
-عبد الرزاق الحسني(المؤرخ) الذي توفيَ في بغداد ٢٤ تشرين الثاني الاول سنة ١٩٩٧م عن عمر ٩٤ عاما.
-واخيرا صاحب(على طريق الهند) الذي توفي في بغداد في بداية اب ٢٠٠٣ عن ٩٩ عاما وفق(ارجح الروايات).
وبذلك كان الاطول عمرا ممن عاصرناهم من المفكرين و المثقفين العراقيين.
ولد(عبد الفتاح بن ابراهيم بن عبد الفتاح بن حميد بن ابراهيم ال وريد) في البصرة سنة ١٩٠٤م -وفقا لرواية الاستاذ مير بصري في كتابه (اعلام الادب في العراق الحديث)- في اسرة دينية معروفة.. كان ابوه وجده من ائمة المساجد ويحملان لقب المدرس. درس في البصرة وبغداد(١٩٢٠-١٩٢٤) ثم واصل دراسته في الجامعة الامريكية في بيروت (٢٤-١٩٢٨) حيث اختار علم التاريخ وكان الكتاب الاساسي الذي درسه(تاريخ اوروبا الاجتماعي السياسي) للكاتب الامريكي (هياس) ودرس(تاريخ اوروبا الحديث ١٨٧٠-١٩١٨ وغير ذلك من الكتب التي وسعت مداركه الفكرية ليتجاوز الاطار المحلي الضيق ليعتنق الفكر الاشتراكي ثم الماركسي.
قال عبد الفتاح ابراهيم(حصلت نقطة التحول عندي نحو الاشتراكية و الاتحاد السوفييتي خلال اعدادي لاحد البحوث الدراسية حول الثورة (١٩١٧). ولم يسبق اختياري لهذا الموضوع اي فكرة او دافع الدراسة والبحث .. اما سماعي بالاشتراكية فقد حصل لاول مرة من خلال دراستي لكتاب .. HEYAS فهذا الكتاب تناول الحركات السياسية والاجتماعية في اوروبا ومن ضمنها الحركة الاشتراكية. بالاضافة الى الثورة الفرنسية وما

رافقها من مفاهيم حول اندحار الاقطاع وانتصار الطبقة الوسطى والديمقراطية والدستور. اي انني تعرفت على الاشتراكية بشكل اكاديمي مدرسي).

غير ان المضامين الاجتماعية في تفكير ابراهيم لم تبرز فيها الاشتراكية بل برزت فيها الديمقراطية بمضمونها الليبرالي المعادي للسلطة، فيقول:

"كنت انظر ان المقدرة المالية لكل من الاقطاع والاغنياء بصورة عامة انعكست في سيطرتهم على الجهاز السياسي وبحكم عدائي للجهاز السياسي ودفاعا عن الديمقراطية دخلت المفاهيم الديمقراطية تفكيري.. وهذا كان قد نتج عن تاثري بالثورة الفرنسية التي اشبعت مفاهيمي السياسية بمضامين اجتماعية. ولتحقيق الديمقراطية لابد من التأكيد على الشعب والمطالبة بخدمته وتحسين احواله الاجتماعية والاقتصادية.. فأتخذ مفهوم الديمقراطية عندي مضامين اجتماعية....".

بعد عودته من بيروت مارس(عبد الفتاح) التعليم في الموصل والبصرة مابين ١٩٢٨-١٩٣٠ وتعرض لمضايقات من السلطة. في هذه الفترة قرا كتابا للبروفيسور MOON عن الاستعمار فصمم على ان يتتلمذ على يده يقول "قبل قراءة هذا الكتاب كنت افهم انني اكره الانكليز كانكليز فقط. اما بعده فأصبح مفهومي عن الانكليز وكرهي لهم كونهم استعمارا اقتصاديا استغلاليا".

سافر(عبد الفتاح) الى الولايات المتحدة ١٩٣٠ ليدرس على يد الاستاذ(مون) وبارشاد من استاذه اختار الكتابة في تشريح الاستعمار واساليبه في امتصاص الشعوب وقد سماه(على طريق الهند) وقد طبع لاحقا عدة مرات في بغداد ودمشق.

استثمر الطالب كل وقته في الولايات المتحدة لدراسة العلاقات العراقية- البريطانية. وعاد الى وطنه دون ان يتم دراسته، لكنه قرأ (راس المال) لكارل ماركس ودراسة عن الدستور السوفيتي وغير ذلك.

عندما عاد الى العراق عمل مترجما في ميناء البصرة ثم وزارة العدل في بغداد(١٩٣٢) وعاد الى التدريس، واصدر مع اخرين مجلة العصر الحديث(١٩٣٦) ثم عين استاذا مساعدا في دار المعلمين العالية عام ١٩٤٠ فمفتشا بوزارة المعارف (التربية) عام ١٩٤٣ واستقال من الوظيفة في السنة التالية فأسس شركة الرابطة للطبع والنشر وتولى ادارتها، واصدر مجلة (الرابطة) في اذار ١٩٤٤ وهي نصف شهرية لبث الثقافة القومية الديمقراطية. امن (عبد الفتاح ابراهيم) منذ مطلع شبابه بالاراء التقدمية والديمقراطية وحقوق الانسان ودشن مساهماته الفكرية بكراس عنوانه (مباديء الشعبية) الفه سنة ٣٠-١٩٣١ وهو الكراس الذي تبنته جماعة الاهالي قبل صدور جريدة الاهالي، وهو عبارة عن (صفحات منهجية بشكل كراس يعتبر اقدم وثيقة سياسية واقتصادية معروفة من تاريخ العراق، وربما في تاريخ المنطقة العربية تصلح لتكوين النواة التي تحمل كل شروط النمو من اجل تطور الحركة الاشتراكية والنظرة العلمية لها في العراق وما جاوره) كما يقول (عبد الغني الملاح).

واشترك (عبد الفتاح ابراهيم) مع (محمد حديد) و (علي حيدر سليمان) بوضع اربعة فصول من كتاب (الشعبية) الذي اتخذ في الشيء الكثير من مبادئها الاشتراكية مع اشادة بها وترغيب بمبادها معتبرا اياها المباديء الوحيدة التي يمكنها ان تخدم الطبقات الاجتماعية

المسحوقة، فاستعرض فيه تاريخ الفكر السياسي من اليونان حتى ثورة اكتوبر الاشتراكية ١٩١٧. من الواضح ان (الشعبية) كانت تمزج بين مبادىء الديمقراطية وبين مبادىء الاشتراكية العلمية، لكنها تختلف عن كل منها فقد اعترفت (الشعبية) بنظام الحكم الدستوري المبني على قاعدة التمثيل النيابي ودعت الى حماية حقوق الانسان. الا انها نادت بان تكون للدولة من حيث علاقتها بالافراد حق التدخل في كل ما يتعلق بتنظيم المجتمع وتبنت نوعاً من التجمعات الشعبية مؤكدة على الشعب كمجموع لا كافراد، وفي نفس الوقت رفضت الاعتراف بوجود الصراع الطبقي في المجتمع، كما رفضت اسلوب العمل الثوري لتغيير المجتمع، ومن ناحية اخرى اعترفت الشعبية بتنظيمات الاسرة والدين والوطنية. بعد صدور جريدة (الاهالي) في كانون الاول ١٩٣٢ انتقل (عبد الفتاح ابراهيم) الى البصرة ليعمل في الميناء وهناك واصل الاطلاع على الفكر فترجم كتابين: الاول (التربية والتعلم في الاتحاد السوفيتي) والثاني عن الزعيم الهندي (غاندي) لاعجابه به. ثم صدرت له سنة ١٩٣٥ دراسة بعنوان (مطالعات في الشعبية) تضمنت هجوما قاسيا على الفكر القومي جاء فيها:

"ان تاريخ القومية ملطخ بالدماء مملوء بالفضائح والمظالم محشو بالاخاديع والاكاذيب.. وان القومية كانت ولاتزال من الاساليب التي تستغل الشعوب بواسطتها لفائدة الفئات الحاكمة وحدها". وقد سببت هذه الدراسة -وغيرها- خلافات ونقاشات بينه وبين جماعة الاهالي، اما المفكرون القوميون فاتهموه (بالستالينية). ولعل من المفيد ان نثبت هنا شهادة الفقيد عبد الفتاح ابراهيم في كيفية توصله الى مفهوم القومية من خلال الحديث المباشر الذي اجراه واياه (عامر حسن فياض) في الثاني من اذار سنة ١٩٧٧: "بصورة عامة تكونت انطباعاتي عن القومية انذاك من خلال موقفين تاريخيين. من جهة -ان المانيا في زمن (وليم الثاني) اخذت تنمي وتطور علاقاتها بالدولة العثمانية فزار (وليم) تركيا وبعض اجزاء الامبراطورية وخاصة الاماكن المقدسة كالقدس -هذا الاهتمام الالماني جاء بدافع الاطماع الالمانية بممتلكات الامبراطورية العثمانية. احتضنت المانيا الحكومة العثمانية ورفعت معها علم الجامعة الاسلامية لبسط نفوذها على الشرق.. ومن جهة اخرى فان الانكليز ايضا بدافع اطماعهم في المنطقة ولمواجهة النفوذ الالماني ومقاومته رفعوا فكرة القومية العربية بوجه فكرة الجامعة الاسلامية.. ولكن هاتين الفكرتين لم تكونا مقطوعتين عن الجذور في الدولة العثمانية نفسها. بل اساسهما هو الاسلام من جهة والحركة الطورانية من جهة اخرى، فاستغل الالمان فكرة الجامعة. هذا الاحتضان للفكرتين من قبل الالمان والانكليز بالاضافة الى اطلاعي على اقتران مفهوم القومية الاوربي بالبرجوازية. كل ذلك خلق عندي ريبة من كلا الفكرتين، ومن الطابع القومي بالذات. زاد كرهي عندما بدأت ارى بان مفهوم القومية عند العرب انذاك مفهوم قبلي، وذو طابع فاشي!

بعد الحرب العالمية الثانية انصرف (عبد الفتاح) الى العمل السياسي فالف في نيسان ١٩٤٦ حزب الاتحاد الوطني واختير رئيسا له.. ثم اصدر جريدة (السياسة) فجريدة (صوت السياسة). وبعد قيام ثورة تموز ١٩٥٨، عين مديرا عاما لمصلحة مصافي النفط حتى اذار ١٩٦١ ثم واصل التأليف والترجمة. كان (عبد الفتاح ابراهيم) واحداً من رواد الفكر التقدمي، ومن اوال دعاة مكافحة الامية، واول من تنبه لخطورة تدخل الجيش في السياسة وعارض الانقلابات العسكرية! وعمل الكثير من اجل حرية الفكر وحقوق الانسان وحقوق المرأة.

اتاح له عمره المديد ان يشهد احتلالين: الاول تشرين الثاني ١٩١٤ عندما دخلت القوات البريطانية العراق.. وكان صبيا في البصرة. الثاني في نيسان ٢٠٠٣ عندما احتلت القوات الامريكية-البريطانية العراق. وكان يصارع الشيخوخة ويوشك على الاحتضار!

رحل الاستاذ عبد الفتاح ابراهيم دامع العينين في اوج حاجة العراق والعراقيين له والى امثاله ممن ناضلوا من اجل الديمقراطية وحرية الفكر والمعتقد وتحرير المراة واقامة مجتمع مدني.. حقاً انها خسارة فادحة تتطلب ان ينهض تلامذته ومحبوه الى جمع تراثه المطبوع والمخطوط في مجلدات باقرب فرصة وليأخذ مكانه اللائق في مكتبة التراث الديمقراطية.

قائمة باهم اثار الاستاذ عبد الفتاح ابراهيم:

1. الشعبية-بغداد-١٩٣٢
2. التربية والتعليم في الاتحاد السوفياتي (ترجمة)-بغداد-١٩٣٢
3. غاندي (ترجمة)-بغداد-١٩٣٢.
4. مطالعات في الشعبية-بغداد-١٩٣٥
5. على طريق الهند-ط١-بغداد-١٩٣٢
6. مقدمة في الاجتماع-بغداد-١٩٣٩
7. كلمة في وجهة المجتمع بعد الحرب-بغداد-١٩٤٢
8. مشكلة التموين-بغداد-١٩٤٢
9. وحدة الحركة الديمقراطية-بغداد-١٩٤٦
10. دراسات في الاجتماع-بغداد-١٩٥٠
11. معنى الثورة-بغداد-١٩٥٩
12. قصة النفط-بغداد-١٩٦٠

وغيرها.

<u>من مراجع المقال</u>

1. اعلام الادب في العراق الحديث لمير بصري (ثلاثة اجزاء)-دار الحكمة-لندن-١٩٩٤.
2. تاريخ الحركة الديمقراطية في العراق لعبد الغني الملاح-منشورات وزارة الاعلام-بغداد-١٩٧٥. ٣. تاريخ الحزب الوطني الديمقراطي للدكتور فاضل حسين-بغداد-١٩٦٣
4. جذور الفكر الاشتراكي والتقدمي في العراق لعامر حسن فياض-دار ابن رشد-بيروت-١٩٨٠.
.معجم المؤلفين العراقيين لكوركيس عواد (ثلاثة اجزاء)-بغداد-١٩٦٩.
6. الموسوعة الصحفية العراقية للدكتور فائق روفائيل بطي-بغداد-١٩٧٦.

ملف عن حسين الرحال ومحمود احمد السيد في الذكرى المئوية لميلاد رائد الماركسية في العراق حسين الرحال ورائد الرواية العراقية محمود احمد السيد ستنشر (الثقافة الجديدة) في العدد القادم ملفاً ساهم فيه عدد من الكتاب والاكاديميين العراقيين وذلك اسهاماً في ابراز دور المفكرين العراقيين في بناء العراق الحديث.

أدب وفن



حسب الشيخ جعفر ومحمد خضير

مُبدعان بلا جوائز .. مُبدعان بالجوائز كلها

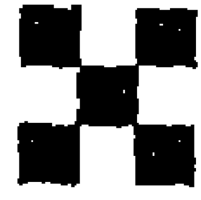
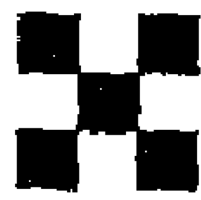
لاشك في أن حائزي الجوائز هم أقل عدداً من مستحقيها، إذ لايمكن لجائزة إن تستوعب كلّ مستحقيها، وهي في الوقت ذاته لاتمحو اثر المبدعين الغفولين عندها؟

(جائزة نوبل) حازها الكثير من المبدعين في مجالاتهم المختلفة، ولكن مبدعين آخرين لم تصلهم، فلم يقلل ذلك من شأنهم..وثمة حائزون حازوا شبهات بسببها.. وثمة من يسعى اليها ولاتصل اليه.. وهناك من لايريدها، وثمة من لاينتظرها.. وهناك من رفضها لقبا وقبل قيمتها المادية (جورج برناردشو)! وثمة من حازها ولم يسمح له بتسلمها (بوريس باسترناك)!

ان المبدعين الحقيقيين لاينتظرون الجوائز، ولايشغلون بالهم بها.. ولكنها، حين تأتيهم، تكون بمثابة التربيت على الكتف بعد رحلة طويلة وشاقة، ولكنها شائقة.. مثل رحلة الشاعر العراقي المبدع(حسب الشيخ جعفر)، ورحلة القاص العراقي المبدع (محمد خضير)، وكلا المبدعين هذين لم ينتظر ولاينتظر جائزة، سوى جائزة الاحساس بأنه انجز مايصبو اليه، غير ان مبدعينا (حسب) و (محمد) حازا جائزة (سلطان العويس) الاماراتية حيازة في وقتها المأمول...

نقول ذلك لأن هذين المبدعين في الشعر وفي النثر، هما مبدعان بالجوائز وبدونها.. والشكر لمن عرف قدرهما الابداعي والانساني، فنوّه بهما وبأبداعهما من خلال هذه الجائزة.

مهدي محمد علي

قفا نبك:

رثاء الامال وادانة بارونات الخراب

اقام (ديو ان الكوفة) في لندن امسية ادبية بمناسبة صدور (قفا نبك) و هو الديو ان الثامن للشاعر عبد الكريم كاصد، وذلك مساء يوم ٢٠ / ١١ / ٢٠٠٢، ساهم في الامسية الفنان فيصل لعيبي بمادة نقدية حول الديوان، وكذلك الدكتور رشيد الخيون، كما دعى الشاعر عبد الكريم للحديث عن تجربته الشعرية في هذا الديوان.. علما بان الفنان فيصل لم يحضر الامسية بسبب سفر طارئ.. في مايأتي نص المساهمات الثلاث.

فيصل لعيبي

كان الشعر قبل اللغة وسيظل كذلك، الشعر ليس اللغة وانما لغة داخلية لحدث ما، يجري وصفه بالكلمات و الاصوات، فاللغة ليست الشعر بل وسيلة للشعر . و الشاعر هو من يجعل اللغة تابعة له وليس العكس، لقد صرخ (ابو العتاهية) يوما في وجه خصومه قائلا: "انا اكبر من العروض" و الشعر بعد هذا ليس الوزن و القافية و التفعيلة و النثر و لا حتى البحور، فكل هذه الامور، ماهي الا وسائل لاظهاره و اشكال تعلن وجوده.

يعتبر (ارسطو) واضع اول بحث منظم حول الشعر في اوربا، وما جرى بعد ذلك هو اعادة تاويل النص الارسطي، وكانت اوربا في القرون الوسطى تعتمد على الشاعر (هوراس) في هذا من خلال كتابه (الفن الشعري)، لكن عصر النهضة اجبر النقاد و الشعراء معا على ضرورة قراءة (ارسطو) نفسه بدلا عن كتاب (هوراس)، خاصة في ايطاليا و اصبحت الماساة و الملحمة و من ثم الكوميديا من عناصر الشعرية فيها، اما في المانيا فقد ظهرت الشعرية من خلال (لوسين و هوردر) و بروز المذهب الرومانسي مع (الاخوة نوفاليس) و (هولدرين) ومع (كولدرج) و الرمزية، التي تمثلت في اعمال (ادجار الن بو) في بريطانيا و امريكا، ثم مع (مالارميه و بول فاليري) في فرنسا. الا ان كل هذه الجهود كانت تفتقر الى الاستقلالية التي ميزت ابحاث (ارسطو) و حيويتها النادرة. اذ كان شعر القرون الوسطى يعتمد على البلاغة و العلاقة بين العمل الادبي و الكون حسب النظرية الايمانية (mimetique) وظلت فترة عصر النهضة تصارع هيمنة الكنيسة فاختلط نتاجها بما هو لاهوتي و انساني معا، وفي القرن السابع عشر و الثامن عشر ركز النقد على العلاقة البراجماتية بين العمل الادبي و القارئ، و اهتمت الرومانتيكية بعبقرية المبدع وفرادته وشخصيته الغريبة و الغامضة، ومع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين اصبحت الابواب مفتوحة للافكار و الاتجاهات المختلفة، فظهرت (الشكلانية ١٩١٥-١٩٣٠ .formalism) في روسيا، متمثلة بجماعة موسكو و لينينغراد امثال: (رومان جاكوبسون، شلوفسكي، توماشيفسكي، بروب، ايخنباون، نينوكرادوف، نتيانوف، باختن، بريك، فولوشينوف) وفي المانيا برزت المدرسة (المورفولوجية ١٩٢٥-١٩٥٥ morphologie علم الهيئة) التي اهتمت بتراث (غوته) ورفضت التاريخانية، بتاثير من (كروتشه وهوسلر) حيث ركزت اهتمامها على انواع الخطاب الادبي و اشكاله اكثر من

اهتمامها على الاسلوب بينما افرزت حركة النقد الجديد في الادب الانكلو-ساكسوني، فسحة اوسع لاحتواء اكثر من نظرية او اتجاه نقدي، واظهرت قابلية للتأويل المتعدد والحيوي حول معنى الادب مع (أ. ريتشارد ودبل يو. امبسون) واشكالية السرد والسارد (الراوي) مع (ب. لوبوك، رينيه ويليك، واوستن وارن)، اذ تم توحيد الشكلانية مع النقد الجديد. وتاخرت فرنسا عن هذا النشاط حتى الستينات رغم جهود (مالارميه وبول فاليري) السابقة بظهور جماعة (tel quel) والبنيويين امثال (ليفي شتراوس وجاكبسون وبن فنست) وكتابات (موريس بلانشو) الفلسفية، والذين اثروا على اللسانيات والانثولوجيا (علم دراسة عادات وتقاليد الشعوب). اذ برز للوجود علم جديد سمي: علم النص (textologie) وبالذات مع (جوليا كريستيفا، رولان بارت، امبرتو ايكو وغريماس)، ويقول (ت. تودوروف ودوكرو) في قاموسهما الموسوعي الهام في الشعر وعلوم اللغة: ان المختص في مجال الشعرية، لايهتم بمقولات الخطاب الادبي بل بالنموذج الادبي للعصر"، لان الشعرية هي بناء ميتانصي (ما وراء النص)، يستمد شرعيتهُ من الاستراتيجيات المعرفية، كما يقول (جون ماري شيفر) في كتابة: (ماهو الجنس الادبي؟).

ابتداء علينا التخلص من اللغة الارسطية الثلاثية: (الملحمي-الغنائي-الدرامي) فيما يتعلق بتقسيم الاثر الادبي، "لانها نمذجة مزعجة" حسب كتاب (ماهو الجنس الادبي؟)، لكي نفكر في عمق الشعرية العربية نفسها لصياغة اسئلتنا الجديدة، لان انعدام وجود الدراما عندنا ليس مرجعه الترجمة السيئة لكتاب (ارسطو) عن الشعر، بل لعدم حاجتنا لها اصلا، حيث تعودنا على اشكال اخرى للتعبير عن شخصيتنا، مثل التعازي ومسرح الظل ومجالس السمر والحلقة وغيرها. النص عند العرب يختلف مصدره عن النص في الغرب، فهو عندهم من اللاتينية (textus) التي تشير الى النسيج والخياطة، بينما تشير عندنا الى العلو والارتفاع والظهور والبروز اضافة الى حصره فيما يتعلق بالكتاب والسنة عند المسلمين منهم، يقول (ابن منظور) في لسان العرب: "النص هو رفعك الشيء، نص الحديث نصا، اي رفعه". قال (عمرو بن دينار): "ما رايت رجلا انص للحديث من (الزهري)"، اي ارفع له واسند ومنه المنصة التي هي المرتفع الذي يقف عليه الخطيب، ويرى الفقهاء ان نص الحديث او الاية يعني ما هو ظاهر اللفظ من احكام. وقد ارتبط النص في النقد العربي القديم بالشعر والنثر فالشعر هو: "ديوان العرب وعلمهم وعمدة ادبهم وجامعُ اخبارهم وحافظ انسابهم ونظام فخارهم" الخ. ويقول (ابن رشيق) في كتابه (العمدة): "انما الشعر ماطرب وهز النفوس وحرك الطباع.." ويرى (حازم القرطاجني) في: (منهاج البلغاء وسراج الادباء)، "ان الشعر هو الكلام الموزون المقفى الذي يحبب الى النفوس ماقصد تحبيبه ويكره اليها ماقصد ذلك". لكن (الجاحظ) يعتقد ان "الوزن والقافية وجودة السبك وسهولة المخرج وكثرة الماء وصحة الطبع، كل هذا وغيره صناعة، انما الشعر صناعة وضرب من النسج وجنس من التصوير". وهو يقترب من المدارس الحديثة في هذا الشان، خاصة اراء (تودوروف ودوكرو).

ان عيب جماعتنا في فهم المدارس الغربية الحديثة يكمن في استنساخهم وتقليدهم لها، دون تفكر او اعادة نظر، لان تاصيل المفاهيم والحركات الابداعية يتطلب ايجاد بيئة مناسبة لها وبدون ذلك سيكون الجهد المبذول هباء منثورا، ان الحداثة وما بعد الحداثة في الغرب يملكان تراثا يمتد الى عصر النهضة، اي مايقارب تسعة قرون متتالية وغير منقطعة، وتتعرض الحداثة بما بعدها اليوم الى هزات في الوسط الذي نشات فيه بالذات، فهل ننقل ازماتهما الى عالمنا المازوم اصلا؟؟.

كانت الحداثة في اوربا قد تخلت عن قيم ماقبل الحداثة وكل ماهو روحي ومعنوي ومقدس في الحضارة الغربية، اما ما بعد الحداثة فتبدو انها اعادة نظر لما جرى اثناء فترة الحداثة نفسها، مع اهتمام خاص بالحضارات غير الاوربية، اي تفحص الجانب الروحي للحضارات ثانية، وكلاهما تتهم الاخرى باللاعقلانية. فالحداثة تنظر الى ما بعد الحداثة كحركة معادية لانجازات الفكر الاوربي وداعية لاحياء الغرائز والمشاعر البدائية، بينما تنتقد مابعد الحداثة ، كونها قد الغت المشاعر والانفعالات الانسانية من قاموسها واعتمدت على العقل والمنطق الرياضي الذي تشك في مقدرته في التعامل مع الاحداث والظواهر بحصافة وتدعم فكرتها هذه بالحروب التي قامت بين الاوربيين خلال القرن العشرين وما قبله، وترى في اخلاق بعض الشعوب البدائية ما هو ارقى وانبل فيما يتعلق بالايثار والتعاون والتضامن البشري، عكس المجتمعات الغربية المتفككة والمتفسخة من هذه الناحية. وحسب (مدرسة فرانكفورت) فان العقل الغربي قد شيّأ الانسان وحوله الى آلة او بضاعة عكس الحضارات الاخرى التي بعثت الروح في الاشياء.

في رواية (امبرتو ايكو)، اسم الوردة يسمم احد رجال الدين كتاب (ارسطو): الكوميديا، ليقتل كل من يطلع عليه من رجال الدير الذي يعيشون فيه، حتى لاتنتشر السخرية بينهم وبالتالي بين الناس، لان انتشارها يعني بالنسبة اليه التخلص من الخوف وعندما يتخلص الانسان من الخوف، فانه يبدأ بنقد القيم والاخلاق فيضعف ايمانه واحترامه للتقليد والدين والمقدسات والدولة والقانون. فينهار المجتمع. واستطيع القول بان معظم مبدعي البشرية وثوارها يحملون في مشاريعهم المميزة مسحة من السخرية والتهكم، لان تغيير ماهو قائم يحتاج الى تسفيه، حتى تتم القناعة بضرورة التغيير.

هذه المقدمة الطويلة نسبيا تفيدنا في معالجة اعمال شاعر بقامة (عبد الكريم كاصد) ومعاينة نتاجه الاخير (قفا نبك) وهي لاتغنينا قطعا عن مراجعة اعماله السابقة، حتى يكون الفهم افضل والفائدة اعم، انه يتذكر ويستلهم مواضيعه وهو خارج المكان والزمان، خارج بلاده وخارج زمان الاحداث والاشخاص، لكنه يربطها في خيط واضح، لانها تراثه الذي يتكيء عليه وهو كتاب مفتوح للذي يدرك غناه وثراءه العميق، وابتداء من (حكايات من الحمراء) نرى الشاعر يمزج المرارة والخسارة الحالية بتلك التي كانت ويضيف لها مسحة السخرية القاسية وكانه يقول كالمتنبي: "انه ضحك كالبكا"، منهيا تساؤله لابي عبد الله، اخر ملوك الطوائف في الاندلس، بالجملة التالية: "اين نمضي بهذه التركة يابا عبد الله؟". هل يطرح الشاعر سؤاله علينا نحن الذين سلمنا كل شيء؟! اما في (الحكاية الاولى) فانه يعترف لنا بعد كل هذا العناء والتعب، كونه "افقر خلق الله" وتاتي (الحكاية الثانية) لتفضح نموذجا للدون كيخوتية متنكبا رمحه للطعان امام هذا الانهيار العام وعجزا يشبه عجزنا الحالي في مواجهة المحن "من المحيط الهادر الى الخليج الثائر!" و (الحكاية الثالثة) تصف (ابن خلدون) بدموعه التي لم يبق سواها بعد ان تخلى عنه الاقربون وتوالت عليه النكبات، مع مابذله هذا العبقري من خدمات واضافات للفكر الانساني المتنور. اعمال الشاعر عموما تمتليء بالمفارقات والاسئلة والتهكم المرير من الواقع، متخذا مادة التاريخ وتشابه المواضيع مساند، وهو في حنينه المر والمه لضياع الامال في اندلسياته، يذكرنا باندلسية (شوقي) الرائعة التي مطلعها:

يانائح الطلح اشباه عوادينا

نشجى لواديك ام ناسى لوادينا

ماذا تقص علينا غير ان يداً

قصت جناحك جالت في حواشينا

لمّا ترقرق في دمع السماء دما
هاج البكا فخضبنا الارض باكينا
نفس الالم والحسرة والمرارة نراها في (الحكاية الرابعة) حيث يقول:
"مَن برج الحمراء
تسمع غرناطة في الريح انينا
وقع حوافر تنأى
وهدير لمياه يصبغها الدم
غرناطة تبكي"

ليس كالمبدع من يدرك الخسارة و(عبد الكريم كاصد) قد عاشها خطوة خطوة ولحظة لحظة، غربة وعوزا وضياع احلام وامال وقيم وانقلاب ومبادىء، جحودا ونكرانا وتجاهل رفاق الدرب والاصحاب والاهل والخلان، وهذا واضح في معظم اعماله الشعرية المنشورة، التي اخذ يغلب عليها التامل والتفكير والحكمة والسخرية المرة..

فرسان، عشاق، مفكرون، ثوار، شعراء، علماء، رجال دين، فقهاء ومؤرخون، هم مادة الديوان، هل كانت غرناطة امل الشاعر الذي ضاع ونجمه الذي افل؟ بعد تتبع مضن وطويل مسحورا بحلم لم يتحقق بعد، هل هي بغداد ام البصرة؟ ام العراق كله!، فالقصائد تحمل دلالات واسئلة محرقة ورموزا لها صلة بالواقع الحالي لمحنتنا، انها اشارات موحية بدلالاتها المتعددة: اخلاقية، سياسية، اجتماعية. ففي (جنون ابن الهيثم) يتساءل الشاعر عن الذي دفع ابن الهيثم للعودة الى مصر ثانية؟ وهو البصري المغترب مثله! وفي (حكاية من الاندلس) يستذكر زوجة (ابن ابي نسعة عثمان)، الذي تركت جثته نهبا للنسور، اذ تقاد من قبل جنود الخليفة الى دمشق، لانه رفض الاغارة على جاره المسيحي (الكونت اود) متسائلا: "كيف ترى يغزو جارا".

تعالج (سيدي الطبري) و (محنة ابن حنبل)، الضمير وازمته ومتطلبات السياسة وصدق العارف والمؤمن المبتلى، اما في (سلاجقة) فنراه يتهكم على ما الت اليه الامور وهزال الاحوال وتطرطرها. والنهاية التراجيدية لفرسان الفتح الاسلامي في شمال افريقيا (موسى بن نصير وطارق بن زياد)، نجدها في (هتاف)، حيث لا امان للسلطة الجائرة حتى لو تسمت بالدين ولقب حاكمها بخليفة المسلمين او امير المؤمنين، فالغدر من صفاتها، اذ يسيل الدم من خلف الستارة وتتدحرج الرؤوس، في مؤامرات القصور وبين الغلمان والمخصيين والجواري والعبيد. وتكشف (واقعة شعرية)، التباس العلاقة بين الشاعر والسلطان، بين المبدع والسياسي، من خلال (المعتضد بالله) والشاعر (ابن زيدون) في تبادلها الانخاب، فيما راس ابن (المعتضد) البكر يتدلى من شجرة، كانه مشهد اشوري، يتكرر في زمن اخر ولايزال يطالعنا حتى هذه الساعة في بقاع عدة من بلادنا العربية وتكبر اسئلة الشاعر في (سؤال)، اذ يدفعنا في معظم قصائده تلك الى الحيرة والتمعن بصروف الزمان القديم-الحديث معا، حيرة في اختيار الموقع والثبات على المبدأ، كما انه يشير الى اشكاليات السياسي والفقهي والثقافي والاخلاقي. وربما كانت (بشارة) العمل الوحيد في الديوان الذي ينم عن تفاؤل، لكنه مشوب بعدم الثقة او التصديق، وقصيدة (الحذاء والملك) ترينا السخرية المرة واختلاط الحال، بعد ان يصبح الحذاء تاج راس الملك بينما ياخذنا الشاعر الى عالم السحر والالغاز والتضادات والغموض في (شواهد المعري) و (في بلاد العجائب)، هل يحذرنا الشاعر من مغبة الامتثال الاعمى لما هو قائم؟ هل يدعونا للخروج على اسس العالم الذي يحيط بنا؟ هل يسخر منا؟ كل هذا مرهون بقدرة المتلقي

وحساسيته ووعيه او موقفه:

"خلف كلمات التبجيل
ثمة شيء هش"

....

"كل شيء ورق
النجوم والسماء
الحدائق والاطيار
الجنود والملكة
القصيدة والشاعر
كل شيء
كل شيء.."

تاتي قصائد الاحلام ككوابيس بديلا للاماني والامال، انها التجربة المرة التي تركزت بين يديه لا النجاحات. وفي (الواح)، يلتفت الشاعر الى ارثه الاقدم في حضارات وادي الرافدين التي تعد مصدر كل ماجرى بعد ذلك للمنطقة من امور، واظن ان ذلك انعطاف نحو الجذور سيلعب في اعمال الشاعر القادمة دورا عميق الاهمية، فاعمال مثل: (السفيه)، (صوت)، (اوتنابشتم)، او (الجوقة)، لايمكن ان تقرا بدون احالات او تاويل بعيد الدلالة والمغزى، بينما نجد في: (قراءة في كتاب الجواهري)، عودة لما الفناه منه في قصائده السابقة، لكنها لاتخلو ايضا من اشكاليات الفترة وتبتعد عن هدف الشاعر في المجموعة، يقول في (رؤيا):

"ياأبت
ابصر فوق عمود الشعر
ظلالا تهتز
وحبلا يتدلى"

ولانه يتوجه الى الجواهري الذي يعرفه، كانت قطعة: (كلاسيك) من القطع المثيرة في لوعتها، وقد خاطب "رب الشعر مهدي الجواهري" كما نعته مرة الشاعر (معروف الرصافي)، فجاءت موزونة ومقفاة، كما يحب (الجواهري):

"أنبيك اني بدار ليس ساكنها
الا الحثالة من مكذوبة النسب
يبكون منفى وفي المنفى لهم وطن
يفدونه برخيص الروح والنشب
انبيك ان بغاث الطير قد نطقت
وان جل خيول القوم من قصب

....

لله كيف استحال المرتجى اجلا
وكيف اضحت فتات غاية الارب".

مذكرا (الجواهري) ومذكرنا بدجلة الخير، اذ يقول فيها (الجواهري):

يادجلة الخير قد هانت مطامحنا حتى لادنى طماح غير مضمون

في عمله الشعري الاخير: (قفا نبــك)، ناتي على نهاية الديوان، فهذه القــصيدة تحــيلنا الى محاولات سابقة لشعراء عرب واجانب، واذا كان (شوقي) قد حــاكى (البــوصيري) في نهج البردة والف مسرحية شعرية للعشاق والمحبين، و(يوسف الصايغ) كتب (اعترافات مالك بــن الريب)، مستلهما قصيدته الشهيرة، فان (عبد الكريم كاصد) ذهب الى المعلقات، التي تقترب من القداسة لدى البعض، اذ تكمن صعوبة التناول وحساسية الاختيار.

قد تبدو هذه القطعة الشعرية لدى بعض القراء عملا شيوانيا بالمعنى الرخيص، وهذا مايبــدو للوهلة الاولى، وعلينا ان نؤكد ان المرسل (امرأ القــيس) كان يروي لنا، نحــن المرســل الينا (المستمعين والقــراء) من خلال الرســالة (النص)، ازمنة مختلفة واماكن متنوعة في فترات متباعدة، فيها الماضي والحاضر، وليس عملا قد تم القيام به في وقت واحد، فهو يتكلم عن حياة طويلة، انه يقوم باعترافات، ومن هنا يبدو اختيار الشاعر (عبــد الكريم كاصد) مهما لهذا النص بالذات، وهو ما اود التطرق اليه في هذه المقــالة المتواضعة والتي لاتفي النص حقــه قــطعا. ساحاول التحدث عن الشعرية ودلالات النص وسردياته، ففي القــصيدة متضادات وتوافقــات عديدة، اضافة الى تنوع الذوات والامكنة والحركات والاشــياء ولكل هذه العناصر مســتواها الخاص وعلاقتها بالمستويات الاخرى، كما اننا نلاحظ السلبي والايجابي ايضا، دون ان ننسى اختلاف الشاعر الاول عن الشاعر الثاني الذي اعاد صياغة النص بلغته الخاصة. تبدأ القصيدة عند الشاعر (عبد الكريم) كما يلي:

"قفا نبك من منزل لحبيب

، عفته الرياح"

فلم يقل "قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل" كما في القصيدة الاصلية، وهي بداية موفقــة لانها تشير الى الاصل وتكسر استمرارية هيمنته لصالح النص الجديد، تنعدم الذكرى هنا من المقطع لتحل الرياح بدلا عنها، لتؤكد على الذاكرة، ومنذ البداية تظهر المفردات الحــزينة والسلبــية: قفا=عدم التحرك/نبك=الالام/ عفته الرياح=الهجران والتخلي/ وتتوالى الاحزان في المقــطع الاول: ففي الصفحة الاولى نجد اربع جمل توحي بالحزن والانكسار:

قفا نبك في الاولى/ دمعي شــفائي في الثانية/ فاض دمعي في الثالثة/ ســال على النحــر في الرابعة. كما ان الشاعر في اعتباره الدمع شفاء والديار الخالية انيســا له، يؤكد وضعه الراهن (الحاضر)، في المقطع التالي نجد الحالة قد تبدلت واصبحت تناقض الحالة الاولى، فالشــاعر يحكي لنا عن متعته الخاصة بحــرية تامة(العودة الى الماضي) وبــوصف من يحــب وكيفية ممارسة الحب معه وباوضاع مختلفة: فوق الراحلة/ دخل خدر/ على ظهر الرمل، ثم المخاطرة والمجازفة بالحياة، ومن الوصال والتودد والمناشدة بتقليل التدلل، ينتقل الشــاعر الى مناخ اخر للوصف والتغني بجمال معشوقته: "ياللصبا وهي تحمل ضوعك اني التفت/ اضوعك ام هو ريا القرنفل/ تمايلت بيضاء ضامرة الخصر/ هفهافة/ مصقولة انت/ كالدر ابــيض اصفر/ جيدك، جيد المهاة هو الحلي دون حلي". وهكذا تتدرج الصور وتتعدد مستويات السرد وتنمو القــصيدة في احضان اللغة فتتشكل شخصية المفردات داخل بناء العمل. ولاينسى الشاعر النص الاصلي بين مقاطع نصه الجديد وهي محاولة اقرب الى التغريب عند بريشت التي توقــظ في المتلقــي احساسه باختلاف النصين، قبل ان يستغرق في النص الجديد وبالمقابل فان هذا التشــكيل يعطي النص ماتعطيه العناصر المختلفة التي تستعمل في الفنون الاخرى(رســم/ نحــت/ موسيقــى/ مسرح/ ادب/ سينما.. الخ). واذا تطرقنا للحوار داخل النص، فاننا نلاحــظ مســتويات مختلفة

ايضا، فهناك حوار الابيض والاسود على الورق (الحروف وبياض الورقة)/ حوار الكلمات (الدمع-سال)/ حوار الصوت (كلام-صمت)/ حوار العين (الكتابة-البصر)/ حوار الاحاسيس (جرأة-خوف)/ حوار العاشق والمعشوق (فقالت لك الويل/ فقلت وقد مال هودجها وادنى الرحال: سيري وارخي الزمام/ افاطم مهلا اقلي التدلل/ هسست وهي مبهورة: مالنا حيلة عنك) الخ/ حوار الزمان (الليل-الصبح-العشي-الضحى-الماضي-الحاضر)/ حوار المكان (الديار-الغدير-الخدر-الرمل-العشب)/ حوار الحركة (حركة الحصان-حركة اجساد المحبين اثناء عمليات الحب-حركة النسيم-حركة الشاعر مع الحصان والمعشوقة مع الناقة).

يقول (باختن): "الشاعر مقيد بفكرة لغة واحدة ونادرة ولفظ مغلق على حواره الداخلي.. على الشاعر ان يملك طريقة سير وسط تعدد لساني قائم.. عليه ان يملك لغته ويتحمل مسؤوليته كاملة عن جميع مظاهرها وعليه ان يخلص اللغة من نوايا الاخرين" فالشاعر مطلوب منه ان يوظف اللغة حسب نبرة صوته وطريقة الالقاء وتركيب اللغة وتعدد الاصوات ومرونة السرد، هذا يذكرنا (بالجاحظ)، رغم احادية الصوت في الغالب، وهو مانراه في هذا العمل الجميل.

مع الاسف لا نجد في انتاج الشعر العربي الحديث مايوازي السرديات الهامة في اشعار الشعوب الاخرى واذا استثنينا شعراء معدودين، فاننا نلاحظ هذا الفقر الواضح. شخصيا لا اعتبر نفسي قادرا حقا على ذكر الاسماء اللامعة في هذا المجال، نظرا لحساسية غالبية الشعراء وربما يكون اختياري اقرب الى ذائقتي الخاصة وتواضع معلوماتي وفقر اطلاعي على نتاج الشعري الحديث، وهذا يقلل ويضعف حجتي فلا يعتد بها، لكني استطيع القول ان هؤلاء الشعراء القلائل في شعرنا العراقي خصوصا، قد اغنوا المقاصد الجمالية التي تتناسب مع تطور ونمو النص الشعري عندنا ابتداء من السياب. ان ما تم انجازه يعتبر نقلة نوعية من النموذج الغنائي الممل والضيق الى فضاءات جديدة تتحقق فيها ابعد مايريد الشاعر ايصاله واعمق مايستطيع المتلقي التوصل اليه، اما القصيدة، فهي تشكل حواريتها الخاصة داخل نسيج النص وحسب حاجتها اليها، فكل نص، مهما انغمر بذاتيته، فهو يحمل حواريته الخاصة التي ترتبط بالنصوص التي قبله والنصوص المعاصرة له،فهناك دائما(تهجين)لغوي مستمرو(تعالق) قائم بين النصوص كما يقول(باختن) في اطروحته الهامة: (جماليات الرواية ونظريتها) والتي تحدث فيها عن الشعر ايضاو علينا ان لاننسى بأن للنص مظاهر هي:

المظهر اللفظي(v e r b a l):يتشكل عن طريق الوحدات اللسانية/الجمل/النحو/الصوت/المظهر التركيبي(syntaxique):ويشمل العلاقات بين الوحدات النصبية والجمل.

-المظهر الدلالي(semantique):وهو حصيلة مركبة من مضمون الوحدات اللسانية دلاليا.

الواقع ان النص يحمل دلالات متنوعة اذ ان لكل شخص تأويله الخاص وربما تأويلاته المتنوعة للنص الواحد حسب الحالة التي هو فيها، وربما يجد نفسه مضطرا الى تبني دلالات متناقضة احيانا لنفس النص.(قفا نبك)،تشكل مع سائر القصائد اطار الديوان رغم مغايرتها لروح القصائد الاخرى،فهي ترنيمة للذات،فيها من الخيال والصور ما يختلف مع رائعة(أمرئ القيس) وفيها ما يلتقي معها، حوار داخلي ووصف لعلاقات وذكرى غرام مضى وتنهدات العمل الجميل واستذكارات لما كان وكان. في هذا العمل يستعيد الشاعر صباباته واحلام الشباب، عالمه الذي لم يعد الاصورا بعيدة، مبهمة، فلم يجد الشاعر اجمل من معلقة (الملك الشاعر ذو القروح)، ليعالج بها ما يعتريه من تباريح، بها تنتهي المجموعة،وترتبط ايضا مع اول القصائد

وبأبي عبد الله بالذات،حيث الوجد والمجد الضائع والعواطف المشوشة والتوتر والاحاسيس المتناقضة،اخر الكأس التي افضت الى الانتهاء، رحيق الازهار الذي اشرف على الزوال، الايام الرخية،مواعيد الحب البعيدة والباقية كعلامات على صدر العاشق المنكسر والخسران،اختلاس الفرص الهاربة،الترقب،الحذر،الخوف،الاثارة، ولذة المغامرة، الخجل والبراءة والخوف من الفضائح وخرق التقاليد والمحرمات. ان مجموعة الشاعر الاخيرة، الغاصة بالمرارة والحسرة، هي وثيقة هامة من وثائق الفترة التي نعيشها، وشهادة صادقة عن ايامنا الحالكة واماالنا الضائعة،التي دمرها دهاقنة السياسة عندنا والانقلابيون وقيادات الاحزاب الفاشلة والحركات المنفلتة من عقالها والتي تريد ان تقود الوطن بالادعية والحروز والشعوذة والخرافات والارهاب.

وفي الختام. هذا عرض سريع للمجموعة،لاتفي الحاجة ولا تلامس العمق، استطعت ان احصي فيها اكثر من(٢٧١) مفردة توحي بالحزن والخسارة والالم والفقدان او الموت والدم والتدهور،في (٦٥) قصيدة اغلبها قصيرة، وهو ما يحتاج الى المعالجة تعتمد على التفكيك والبناء وعلم نفس اللغة مع الاعتماد على مجموعات الشاعر الاخرى،متمنيا ان يتصدى لها من هو مختص بالنقد الادبي حقا فيوليها العناية التي تستحقها.

قفا نبك

رشيد الخيون

في مجموعة الشاعر عبد الكريم كاصد(قفا نبك) توالت الازمنة وتناثرت الامكنة،واصطدم عصر الجاهلية بعصر الحنابلة والموجات الصليبية، وتخاصم(ابن حنبل) مع محمد بن جرير(الطبري) وتصالحا في المحنة ذاتها، وتنزه(عبد الرحمن بن خلدون) من سيئات السياسة واغتسل بماء رحلاته وانكساراته،وتحدث الشاعر نيابة عن(فريد الدين العطار) بلسان الطير.

قصائد كلفت قائلها رحلة في الماضي،ربما كان عزاؤه من حاضر ليس فيه ما يسر،او ما يلفت النظر، فداهم ابا العلاء(المعرّي) في صومعته، والطبري وهو يحمل جنازته هاربا من شغب الحنابلة باحثا عن قبر يرقد فيه رقدته الابدية. وقفة امام اطلال الاندلس قادت الشاعر الى مناجاة اخر ملوك الطوائف المكنى بأبي عبد الله:

يا ابا عبد الله
الطريق الذي قادني اليك
قادك الى السفح
حيث السماء تجلس باكية
والقمران
حولها يسهران.

وكتب لغرناطة والامام الملقب بالقرطبي ولمن مات تحت اسوار غرناطة وقد عاشت زمنا محاصرا بين فاتح ومحرر،وليس بين الاثنين غير توالي الايام،يوم لهذا ويوم لذاك.

من برج في الحمراء
تسمع غرناطة في الريح انينا
وقع حوافر تنأى

وهديرا لمياه يصبغها الدم

غرناطة تبكي

غرناطة من برج في الحمراء.

الحسن بن الهيثم(ورد اسمه في كتب التراجم مرة بمحمد بن الحسن بن الهيثم،ومرة بالحسن بن الحسن بن الهيثم) مكتشف سقوط الضوء من الاجسام على العيون،فغير بهذا الاكتشاف ما كان سائدا في شأن فيزياء الضياء،فقال الشاعر على لسان العالم:

في يوم اسود

عاد ابن الحسن بن الهيثم

من اعلى النيل

الى اسفله

يتبع شمسا بيضاء

ويرى ظله مشنوقا

يتدلى من اعلى السقف

فأرتج..

وقام الى ظله مرتعدا

يبكي.

وابن الهيثم عالم بصري عاش بمصر في العصر الفاطمي، ذلك العصر الذي بنى القاهرة وازهرها، لكن العسكر المتمثل بصلاح الدين الايوبي اطفأ العصر الفاطمي وعين ابن الهيثم، وان حمل صليب كنيسة القدس الى بغداد، ووضعه امام بوابة دار الخليفة العباسي تأكيدا لولائه لاهل السنة عبر دار الخلافة، فاستلهمت سلطة بغداد التجربة فوضعت صورة كبيرة لجورج بوش تداس بأحذية نزلاء فندق الرشيد، وصلاح الدين لم يحرص على صد الصليبيين حرص الفاطميين والاسماعيليين،ومع ذلك لم يعف الايوبي من قتل السهروردي ولا غلق باب الازهر، وفي الامر اسرار ستفتح بعد حين.

قال الشاعر البصري عبد الكريم كاصد مناشدا جده ابن الهيثم:

ياجدي البصري

ترى من قادك ثانية

منطفئ العينين

الى مصر

والقى ظلك في اعلى النيل؟

****

ياسيدي الطبري

أعوان ابن حنبل

اسرجوا جنأ اليك

وغادروا دار الامامة خلفهم حجرا

ودارك

من سيحرسها؟

بدأت محنة محمد بن جرير الطبري (وهو من اعلام القرنين الثالث والرابع الهجريين) مع كتابه " الفقيه والمتفقه" ففي هذا الكتاب كتب،وهو المؤرخ والمفسر، ان ابن حنبل ليس فقيها وانما كان محدثا، فشيخ الحنابلة كما ورد عنه انه يفتخر بجمع الف الف حديث نبوي، اي جامع المليون حديث، فما له والفقه؟ وهو لايقبل الحوار والمناظرة ويرفض علم الكلام والجدل.

وكم كان الطبري محقا برأيه هذا حول ابن حنبل، فالمذهب الحنبلي لم يتبلور الا بعد فتاوى ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية، مع ان شيخ الاشاعرة ابا الحسن الاشعري اتخذ من ابن حنبل اماما في تحوله عن الاعتزال فقط ،مع انه شافعي الهوى.

وحجارة الحنابلة حبست الطبري عشر سنوات في داره، وكم حاول حوارهم لكنهم لا يحضرون المجلس، وامتدت محنته الى محاصرة جنازته فدفن ليلا.

******

وكأن الشاعر قصد الموازنة،بين المحنتين، محنة ابن حنبل ومحنة الطبري بابن حنبل. وقال:

ياأحمد الفقراء

ما شايعتُ فقهك مرة

او زرتُ قبرك

او مشيتُ وراء مَنْ صلوا عليك

وان اردتَ الصدق

ما منيت نفسي باصطحابك

بين اتباع حنابلةٍ.

بدات محنة ابن حنبل مع مقالة خلق القران، والرجل ما كان رافضها لو اتت مؤيّدة بقرآن او حديث نبوي، ولم تكفه الآية تأبيدا: (إنّا جعلناه قرآناً عربياً). وبشهادة اتباعه وولده صالح انه ضُربَ لحد الاغماء، وبشهادة خصومه ومنهم الجاحظ في رسالة خلق القران،انه لم يضرب غيره عدة اسواط لينة، لكنه الضرب هو الضرب ان كان مبرحا او شديدا، وقبر ابن حنبل ذهب بفيضان من فيضانات بغداد على الارجح فيضان ٦١٤ هـ، ففيها اختلطت رؤوس واطراف ائمتها من المدفونين في مقبر (ابن حنبل) لتتوحد في قاع دجلة.

***

ولرسالة الغفران حضور في مجموعة عبد الكريم كاصد،قال:

استحلفك بالله يااباالعلاء

ان تقول لرضوان أن يفتح الباب

ليحمل عني هذه العصا

-وان شاء- هذا الكلب

الى صاحبي الحطيئة

فقد وردتني اخبار

عن وحشته في الجنة.

وابو العلاء لازال لغز يحيّر الالباب، فمرة هو الملحد الذي حاول الصعود الى طور سـيناء، ولما لم يجد احد يكلمه كما حظى موسى بكلمات الله قال:

لقد اسمعت لو ناديت حيا

- ولكن لاحياة لمن تنادي

ولو نار نفخت بها أضاءت

ولكن انت تنفخ في الرماد" ١"

ومرة يؤمن بعمق وكأنه معروف الكرخي، لذا قال عنه الحنابـلة على لسـان شـيخهم ابـن عقيل: انه الملحد البارد، وان غفروا له لزومياته فلن يغفروا له رسالة الغفران، والتي تلقفها دانتي في ملهاته وجحيمه.

****

وفي الحكاية الثالثة يتحسس الشاعر كاصد دموع ابن خلدون وهو (ينحني فوق ايامه الباقيات، وقد خانه الاقربون)..

ولاادري لماذا نفرت انا من(ابن خلدون) مثلما نفرت من(عباس محـمود العقـاد)، نفرت من الاول لكثرة سعيه في السياسة،وقلة وقته، في كتابة مقدمته، ونفرت من الثاني لمللي من حروفه وافكاره وجموده وتجنيه على العراق في اكثر من مناسبة،فهو يحصر كره ابي نواس لمصر انه اشتياق الى الاباحية بالعراق، ولم يغفر له قوله بمصر:

ان تكن من فرعون فيكم خصاصة

فعصا موسى بيد خصيب(*)

وخصيب هو والي مصر العباسي

وان خصص ابن خلدون كل عمره للمؤامرات سلما وحربا،خصص لمقدمته وتاريخه العبـر ستة اشهر، اعتزل خلالها في حصن بقلعة قصية، وقوله انه كتب مقدمته بستة اشهر فتح العيون عليه، ليكتشف انه انتحل الدورة الاجتماعية وما ورد في مقدمته حول الجماد والنبات والحيوان والانسان والدولة من رسائل اخوان الصفا، ولم يذكر هذه الجماعة لا بالاسـم ولا بالاشـارة، ويكفي القارئ او الباحث ان يشك في امر ابن خلدون الاختلاف الكبير بين المقدمة والتاريخ مع انها جزء من تاريخه. ولعله لم يعلم بما كتبه ابو حيان التوحيدي في الامتاع والمؤانسـة، ذاكرا الجماعة التي ابـدعتها، ولازالت المذاهب تنسـب هذه الرسـائل المفخرة الى ائمتها، فالاسماعيليون يقولون انها من بنات افكار الإمام المستور، وإماميون يقـولون انها من بـنات افكار جعفر الصادق، وابن خلدون شيد عرشه بستة اشهر، ومع ذلك فالرجل اعطته السياسـة واخذت منه لينتهي مصافحا تيمورلنك.

****

المجموعة الشعرية ذكرت بالسلاجقة والصليبيين وقصر الحمراء وحدائق قرطبـة وشـمس الاندلس، وانتهت بقفا نبك، فالشاعر وقف يسمع همس اطلاله، التي لم يبرحها امرؤ القـيس ولا ابو العلاء المعري، فتراه جالسا مع الجواهري "وهو يشعل الحرائق كلها حطبا" ليتامل محنته:

هاأنت تخاطبك الاشباح

وحيدا

لايسكنها الناس

ولايقربها
حتى الشعراء.

قفا نبك وغياب الشاهد

عبد الكريم كاصد

لم يكن التراث غائبا عن مجموعاتي الشعرية السابقة، فقد احتوت هذه المجموعات على قصائد استوحت (الف ليلة وليلة)، وكتابات المتصوفة، وابن خلدون، وابي العلاء المعري، واحداثا كعام الفيل، ومدنا غابرة، حقيقية او متوهَمة، وامتدت لتستوحي اشخاصا ونصوصا من تراث الانسانية، فقد كتبت عن طاغور والاوبانيشاد، وتشيخوف في (سيدة الكلب الصغير)، ودستويفسكي في (الزوج الابدي)، وبولغاكوف في (المعلم ومارغريتا)، ورامبو، وكامو في (مقصلته)، ولويس كارول في (الس في بلاد العجائب)، وجلال الدين الرومي، وهاملت، وماكبث، وغوته، واخرين، في قصائد تعاملت فيها مع هذا التراث من خلال التجربة الشخصية وليس من خلال التجريد والمعرفة وحدهما. في قصيدة (الصلب) مثلا وهي من مجموعة (نزهة الالام) استوحيت رواية (المعلم ومرغريتا) لبولغاكوف التي اتخذت من شارع اربات في موسكو مسرحا لها، وشغلت قصة صلب المسيح جزءا كبيرا منها، ولم يكن هذا الاستيحاء وليد رغبة معرفية، بل كان وليد ظرف خاص وجدتني فيه، مرة، سائرا في شارع (اربات)، اثناء استشفائي، وقد استحضرت عالم الرواية وكانني اشهد صلب المسيح ثانية في عالم تتداعى اشياؤه حوالي وفي داخلي، فلم اعد ارى في حاضر اربات الا طريق الجلجلة وهو يوصلني الى هذا المشهد:

عند اربات
رأيت الله يدعوني فاقبلت عليه
ثم لم ابصره
كان الورق اليابس يساقط
والريح تمر
وعلى الشارع
بحر هائج من سقط الناس
واربات بأحجاره لم يهرع الى الصلب
ومحكمون يمضون الى الصلب
وجندٌ خائفون
قلتُ لو كلمني الله
لو ان الشجر الصامت لم ينعق
وهذي الشمس لم تدن من الارض
لو انّ الرب
اطرقت قليلا
ثم ناديت على السائر خلف الموكب اللاهث

في القيظ على السفح:
"يهوذا ايها الخائن"
فأرتجّ الصدى الغابر في الافق:
"يهوذا..ا..ا..ا..ا.."
كان رأسي حاسرا
والناس يمضون ب"اربات"
وكان الشجر اليابس يسّاقط
والريح تمرّ

كذلك هو شاني في القصائد الاخرى المستوحاة من تراثنا وتراث الانسانية، ففي مقطع (القباء)من قصيدة (الف ليلة وليلة) في مجموعة (النقر على ابواب الطفولة)، خاطبت قمر الزمان الذي هام بصورة فتاة مرسومة على قباء اهداه سليمان الحكيم الى ابيه سيف الملوك:

انتحب فوق نقش القباء الجميل
حط كالطير في قفص
وانتفض
ناثرا ريشك الذهبيّ
في الرواق الطويل
بين صمت القباء وترديدك الانثوي
يابديع الزمان

ولكنني لم افكر يوما باصدار مجموعة اختصت اغلب قصائدها تقريبا في استلهام التراث، وما حدث هو نتيجة توجه شخصي متسائل بحركة وقلق يستعصي على التفسير احيانا. هذا الدافع افتقدته في قصائد عديدة في شعرنا العربي التي اتخذت من الاحداث والشخصيات انماطا لها تخلو من اي تساؤل حول هذه الشخصية او ذاك الحادث، بغض النظر عن الرؤية الخاصة للشاعر وجودة قصيدته، فالحلاج اصبح نمطا يتغنى باستشهاده الشعراء على اختلاف مشاربهم ومذاهبهم، وعاد القارىء يتساءل اين ترى ينعكس اختلاف رؤى الشعراء على موضوعاتهم ان كانت هذه الرؤى واحدة في تصوراتها. كذلك هي الحال بالنسبة الى الموضوعات الاخرى في التراث كثورة الزنج، وكأن الحلاج شخصية ذات بعد واحد وثورة كثورة الزنج بلا تناقضات بخلاف مانراه مثلا من رؤية شخصية عند ابي العلاء المعري الذي لم يسترع اهتمامه استشهاد الحلاج مثلا، بقدر ما استرعى اهتمامه موقفه الفكري، ورؤيته الصوفية وهذا الاهتمام وان كان سلبيا في نظرته الى الحلاج الا انه يعبر عن موقف متفرد لشخصية متفردة في مواقفها هي شخصية ابي العلاء المعري الكاره للتصوف رغم زهده، اي انني هنا لاابحث عما وراء الموقف من خطا او صواب بقدر ما ابحث عن الرؤية المتميزة المتسائلة التي تبحث عما هو ابعد من الخطا والصواب، فليس من المعقول ان يكون المتنبي، لدى كل من تناولوه من الشعراء، شخصية مكتملة بلا نقائض، لان مثل هذا التناول يفقر الشخصية ويحد من ابعادها ويجعلها مفارقة لعنصرها الانساني. مثلما يطمسها شعريا وقد خلت من التفاصيل التي هي مهمة الشعر ولاتنفع المطولات وخرائد الشعر في التعويض عن هذا الخلل الجوهري في كثير مما يطالعنا

من شعر يتناول التراث. فقد تكشف ابيات معدودة للشاعر عن جوهر موضوعه.

في قصيدة ابن حنبل وجدتني ازاء مشكلات شتى: موقفي المتعاطف مع ابن حنبل في صراعه مع السلطة واختلافي معه في مواقفه الفكرية، موقفي من الحنابلة الرافض لمواقفهم الفكرية والحياتية معاً، واخيراً موقفي من المعتزلة المتعاطف معهم فكريا والرافض لضلوعهم في السلطة.

كيف ترى يتاتى للقصيدة ان تحتوي كل ذلك في شبكتها على حد قول الشاعر الصيني من دون اي التباس قد يضر بها ويحيلها الى مجرد حبال بالية لشبكة مقطعة ملقاة على ساحل الشعر؟ لم تحضر هذه الاسئلة، عند كتابتي القصيدة، عبر الرؤية الفكرية وانما حضرت عبر رؤيتي الشعرية التي كان هاجسها تجسيد التجربة، تجربتي الروحية وتجربة ابن حنبل في آن واحد لتثير القصيدة اسئلتها الخاصة بها: هل نتعاطف مع الانسان في مواقفه ام افكاره؟ وما جدوى الافكار اذا ما افتقدت نبضها الانساني في الواقع العملي؟ الا نجد انفسنا احيانا متعاطفين مع من نختلف معهم في مواقف معينة، ومختلفين مع من نتعاطف معهم في مواقف اخرى؟ الا نجد مانفتقد احياناً من فضائل مجسدة في من نحبّهم، ونكره رذائل مجسدة في من نحبهم؟ كل هذه الاسئلة وغيرها يمكن ان تثيرها القصيدة ولكن ما يهم الشاعر ليس الافكار بالدرجة الاولى وانما تجسيد عالمه الشعري بكل تناقضاته وتفاصيله التي تتصارع لتولد وحدة القصيدة المكتفية بذاتها من دون احالات الى المصادر التي لاتقوم القصيدة من دون الاشارة اليها، لذلك وجدتني مسوقا الى تقديم القصائد بلا تفسيرات، كاسرا ما هو مالوف سواء اكان اشارة او احالة الى مصدر او مقولة شائعة. ما أكثر ما يتناهى الى سمعنا: "هذا حنبلي" ولكن شتان مابين هذا التصور وبين ابن حنبل الحقيقي. شتّان مابين ابن حنبل الذي سار خلف جنازته الالآف من الناس وهذا ما لم تشهده اية جنازة في تاريخ الاسلام كما يذكر ابو العلاء المعري في رسالته التي رد بها على ابن القارح، وابن حنبل الذي اشاعه الحنابلة. شتان مابين ابن حنبل المنطقي الذي اخرج المعتزلة في تفنيده حججهم حول خلق القرآن واتباعه المتعصبين من الحنابلة اعداء المنطق، الذين سجل التاريخ فعلتهم المشينة في الاعتداء على الطبري ورجمه بالحجارة وهو الشيخ الطاعن في السن، شتّان ما بين ابن حنبل المدافع عن فكره حتى الموت، وان اختلفت مع هذه الفكر، وتحمله العذاب الجسدي الرهيب وبين موقف المعتزلة المهادن للسلطة، شتان مابين ابن حنبل كما تراه القصيدة وبين ما هو متوهم أو حقيقي في التاريخ، وهذا لايعني ان الشعر بلا اوهام، فللقصيدة أوهامها ايضا، لكن مايهم الشاعر ليس تقديم حقيقة او توهمه بقدر مايهمه تقديم عالمه الشعري الذي يحتوي النقيضين بشكله القادر على التعبير عن شخصيته وموقفه الحياتي من المشكلات التي تطرحها القصيدة في تعاملها مع الواقع الحاضر أو التاريخي عبر حسية التفاصيل التي لايمكن للخطأ او الصواب ان يكونا مقياساً لها ابداً:

يا أحمد الفقراء
ماشيعتُ نعشك مرة
او زرتُ قبرك
او مشيتُ وراء من صلوا عليك
وان اردتَ الصدق
مامنيت نفسي بأصطحابك
بين اتباع حنابلةٍ

و اتباع تنابلةِ
و اتباع طغوا و استكبروا بالله
لكني بكيتك في طريق الشام
مغلولا الى جمل
تشيّعك المدائن
ام تحييك المدائن؟
مطرقاً
و النجم لايأتي
و شمسك لاتمرّ
و رنة الاصفاد تقطعها الحوافر
و الثغور كانها رجز الفرات تصيح:
"متْ جبلا
ليحيا الناس"
هل أبصرتهم يأتون..؟
موكبك الفقير يسير في عرض السماء
يقوده ملك
وتحرسه ملائكة
وريحك اقبلت ياأحمد الفقراء
انت اليّ اقرب من يد
تقضي بسيف العقل
انت الي اقرب من يدي اليمنى
و ابعد من حنابلةِ
و اتباع تنابلةِ
و اصحاب طغوا و استكبروا بالعقل
انت احب الي يا أبت

لقد سرني ان يعبر لي صديق يقيم في الدنمارك عن حبه لهذه القصيدة.. حبه الذي دفعه الى قراءة كل مايقع تحت يديه من كتب ودراسات عن ابن حنبل لتكتمل صورته لديه. وهذا في رايي اجمل تقريض للشعر ان تكون القصيدة حافزا لنصوص اخرى وليس العكس. هذا التغيير في المواقع هو مهمة القصيدة.

في تاريخنا يجري تبجيل الاشخاص وتعظيم الحوادث ولكن ليس هناك من يتساءل عن التفصيلات الحياتية لهؤلاء الاشخاص او الاسباب الحقيقية التي كمنت وراء الحادثة.

لقد امتد الهتاف للبطلين طارق بن زياد وموسى بن نصير من العصور حتى وقتنا الحاضر، ولكن ترى هل هناك من تساءل عن دم البطلين الذي سال من وراء الستارة في دمشق ولم يره احد وسط دوي هذا الهتاف الذي لم ينقطع بعد كل هذه السنين؟ هل هناك من تساءل عن رقة الشعراء التي يختفي وراءها قدر هائل من اللامبالاة وحب الذات والقسوة احيانا؟

فى قصيدة (واقعة شعرية) وهي ليست شعرية على الاطلاق يجلس الملك المعتضد بن عباد وشاعره ابن زيدون في حديقة غنّاء تزينها الجماجم. من بين هذه الجماجم جمجمة ابن العتضد الاكبر. هذا الشاعر تصوره كتب التاريخ الرسمي وغير الرسمي شاعرا رقيقا وعاشقا مستهاما لولادة بنت المستكفي، وهي التي كتبت عنه افحش الاشعار، وبطلا قوميا يمثل شخصه عبد الله غيث في واحدة من المسرحيات المصرية التي حصدت الكثير من الجوائز.

كم من الشعراء من يشبه ابن زيدون؟ او الصاحب بن عباد الذي يتلوى من اللذة امام مادحي نثره الرديء كما جاء في قصيدة (ما رواه ابو حيان)؟

لعلنا كلنا نعلم مقدار المحبة او البغض التي يحملها الكثيرون من متعصبي الملل والمذاهب لشخصية الزبير بن العوام ولكن هل تساءل احد من هؤلاء المحبين او المبغضين عن حيرة ابن العوام وهو يردد بعد عودته من معركة الجمل وقبل اغتياله بلحظات، ربما، على يد عابر طريق مبغض: "والله ماهذا بخيار يابن العوام" كما يروي الطبري في تاريخه.

لقد هزني أسفه هذا هزاً عندما قرأته لاول مرّة، ووجدته وكأنه ينطق بلسان اسفي. انا الذي لم تستهوني يوما شخصية الزبير بن العوام. كم من خيار لنا لن نرده قط، وكم من اخ شيعناه تحت شعارات صاخبة كانت موضع تساؤله هو قبل موته بلحظات، وربما بأعوام وكم وكم!. لقد جعلت هذا الاسف في قصيدة (حيرة ابن العوام) يردده ظل ابن العوام الذي حمله في الطريق.. لم يعد ابن العوام سوى ظل.. ظل بات قادرا على حمله، وهو يبكي اسفا عليه:

وجوه الجمال ملطخة بالدم
والهودج الذي اثقلته السهام يميل الى الارض
وفي البعيد
ثمة ظلّ
ظلّ اسود
يحمل فارسهُ
يبكي فارسهُ
ويردد:
"ما هذا بخيار يابن العوّام"

لم اتعامل مع التراث من زاوية ضيقة واحدة، وقد امتد رحباً امامي.. لقد تطلعتُ اليه، وفي نفسي شفقة عليه وعليّ، اسائله، استنطقه وارثيه حادثة واشخاصاً ومحناً. في قصيدة (سؤال) اتساءل مشفقا على المصير الذي آل اليه الشاعر (المعتمد بن عباد) بعد زوال ملكه، وفقر عائلته وذل بناته:

قلت للشاعر المعتمد بن عباد
كيف يحتفظ بالملك
من هو شاعر
وابناؤه شعراء؟

وفي قصيدة (حكاية من الاندلس) ابكتني فاجعة (ابن نسعة عثمان) الذي كان حاكما عند تخوم الافرنج، وعلى علاقة طيبة معهم حتى انه تزوج بنت جاره الحاكم (الكونت اود)، غير انه فوجيء ذات يوم بوصول كتاب من (عبد الرحمن الغافقي) يامره بغزو حميه الكونت وحين

رفض، و هذا مايفترض باي انسان ان يفعله في مثل موقفه هذا، كان الموت من نصيبه و السبي من نصيب زوجته الحسناء التي اقتيدت اسيرة الى دمشق لتصبح جارية عند بعض الاجلاف. اي مصير هذا؟ اية مراة هذه نتطلع فيها فنبصر ملامحنا وقد اصابها الهرم ورؤوسنا وقد غزاها الشيب؟

من بين ولاةُ الاندلس الالف
الثقفي، الاحوص، عذرة، يحيى الكلبيّ،
الى آخره..
يحضرني ابن أبي نسعه عثمان
الحاكم
-فيما بعد-
بثغر عند تخوم الافرنج
وصهر الكونت أود
حين أتاه الامر بغزو حميه،
كيف ترى يغزو جاراً
أو يخرق عهداً
(يابن ابي نسعة..
قبرك في بطن الطير
وطيرك في عنق الاخوة
يطوون شعاب الليل وراءك)
تحضرني زوجته الحسناء
تُساق بقافلةٍ في الصحراء
الى ارض دمشق

ولعل ماهو اشد من هذه المحنة غرابة هي محنة (ابن الهيثم) عالم البصريات البصري الذي ادّعى الجنون خوفا من بطش الخليفة الفاطمي (الحاكم بامر الله) اثر اخفاقه في تحقيق بناء سد على النيل ينظم ري مصر، أو كان مجنونا حقا ثم استعاد رشده فقفل عائداً الى بصرته، لكنه رجع الى مصر ثانية؟ مالذي دعاه الى الرجوع ثانية؟ ترانا سنعود يوماً الى منافينا نادمين جراء ما سنعانيه في الوطن مستقبلا، وقد تقاسمه الذين تقاسموا منفانا. ربما، وربما لا، غير ان المحنة تظل قائمة في الحالين.

اما قصيدة ابي العلاء المعري فهي شيء مختلف تماما. لم اطرح على نفسي السؤال التالي: من اين ابدا بابي العلاء المعري امن شعره ولزومياته بالتحديد ام من رسائله: رسالة الغفران، رسالة الملائكة، رسائله الاخرى، بل وجدتني اردد ابياته مشغوفا وكأن ابا العلاء خصّني بها وحدي:

ثعالة حاذر من امير وسوقةٍ
فمن لفظ صيدٍ جاء لفظ الصيأدن
ولاتتخذ من آل حوّاء صّاحبا

وغيرهم إنْ شئت فاصحب وخادن

ثم وجدتني مسوقا للترنم بابيات لاادري أأخص بها نفسي أم أخص بها ابا العلاء؟:

لا أمير و لا سوقة

ياثعالةَ

فاحذر

ان لي اخوة بين تلك الثعالب

لاسميعَ و لاسامعٌ

ياثعالة

فأنظرْ

اقبل الصائدون من كل جانب

هذا التردد بيني وبين ابي العلاء أصبح من الاختلاط مما يصعب تحديده: من المتحدث أنا أم المَعرّي؟ من منا مرآة الاخر؟ ام كلانا ترى أصبح مرآة للآخر؟

فاذا كان صوت ابي العلاء هو:

لاأميرَ و لا سوقة

ياثعالة

فاحذر

فان صداه هو صوتي الآخرْ

إنَّ لي أخوةً من بين تلك الثعالب

واذا كان المقطع التالي امتدادا لصوتي:

لاسميعَ ولا سامعٌ

ياثعالةُ

فانظرْ

فان صداه هو صوت ابي العلاء:

اقبل الصائدون من كل جانب

وهذا الاختلاط الذي يصبح فيه ثعالة انسانا والانسان ثعالة، وصوتي صدى صوت ابي العلاء، وصوت ابي العلاء صدى صوتي نبتدىء كتاب حيرتنا انا والمعري. وعندما نقلب الصفحة الثانية من القصيدة يطالعنا منظر الذئب الرائع بين الاغنام:

اوه ياأبا العلاء

كم تشير الى ذلك الذئب

وتقول:

"دعوه

ستهلكه صحبة الاغنام"

عندما نشرت هذه القصدة في جريدة الحياة رجعت الى البيت وكان معي العدد الذي نشرت فيه فصادفت قريباً جاء لزيارتي. ..ألني ان اقرأ له مقطعاً من القصيدة ليأخذ فكرة عنها وعن شعري، فقرأت له المقطع الصغير المذكور ثم تحدثنا عن المفارقة في هلاك الذئب في صحبته

الاغنام غير ماهو متوقع و مالوف في مثل هذه الحال. ثم جرّنا الحديث الى الامثلة الباعثة على الحيرة في من يصحب من هم اضعف منه، مستمدا من ضعفهم قوة لقوته ليستخدمها في اضعاف الآخرين، و ممارسة مايرغب في ممارسته، دون تحسب لما قد يسفر عنها من ضعف مهلك للشخص القوي نفسه.

اليس في صحبة الضعيف مايبعث على الضعف؟ كم من الشعراء المبدعين من اتخذ له مريدين تافهين لينصبّو هم اتباعا وشعراء و ارثين من بعدهم فكانت العاقبة خسارة هؤلاء المبدعين و اتباعهم معا؟ كم من قادة اتخذوا أعوانا لهم من اضعف الناس و اخسهم سلوكا ليقووا بهم فكانت النتيجة ضعف القادة الاقوياء انفسهم، و الامثلة على ذلك كثيرة في التاريخ. علق قريبي البسيط الذي لا علاقة له بالأدب، قبل ان نستطرد في الحديث عن الاقوياء و الضعفاء و الامثلة من التاريخ: "شلون معنى عميق ابن عمي" بينما سخر مثقف اخر في حديث له معي، من هذا المعنى الذي رآه قريبي البسيط عميقا.

لقد كشفت لي هذه الابيات المعنى الذي اردته وليس العكس أبدا، اي انني لم يكن لدي المعنى لكي أصوغهُ أبياتا، وكل مالديّ هي رؤياي الكامنة التي قادتني الى المعنى.

ولعل سائل يسأل لماذا الحيوان منطلقا لعالم المعرّي، والاجابة بسيطة هي أن أبا العلاء لم يانس للبشر مثلما انس للحيوان وحتى للوحشي منه يقول في واحدة من لزومياته:

اذود عن الفرائس ضاريات

واعلم ان غايتها افتراسي

اشار طه حسين في كتابه (تجديد ذكرى أبي العلاء المعرّي)، الى عالم الحيوان لدى المعري، مثلما ورَدت الاشارة ذاتها في كتاب العلايلي (المعرّي ذلك المجهول)، مضيفا ملاحظة جديرة بالاعتبار وهي "ان الجاحظ ملك المعري الى ابعد حد، ولاسيما في الحيوان الذي يشرح كثيرا من مبهمات المعري، وفي رسائله التي ادارها على السخرية الحادة اللاذعة" (ص٥٢). وللحيوان عموما اثره الواضح في شعرنا العربي ولاسيما الجاهلي منه والاموي، واخص بالذكر الشاعر ذا الرمة الذي اتخذ من الحيوان مرآة لروحه القلقة المعذبة، صادراً عن احساس عميق بالكون على حد تعبير الدكتور (شوقي ضيف) في كتابه عن الشعر الاموي. ولا نعدم هذا الاحساس أيضا في الشعر العالمي كشعر ريلكه وولت ويتمان وأودن وتيد هيوز واخرين كثيرين، ولعل ريلكه هو الوحيد من بينهم الذي يصدر ربما عن احساس كوني عميق في رؤيته للحيوان وموقعه من الكون ولاسيما في مرثيته الثامنة من (مراثي دوينو).

دخلت عالم الحيوان لدى المعرّي وتأملت بلذة مابعدها لذة قصائده التي يخاطب فيها ثعاله والديك والغراب والحمامة والذئب وسائر الحيوان ويملا بها رسائله ويناجيها ويشفق عليها محذرا بعد ان نُفض راحتيه من الناس ومفاسد عصره. وعندما قرات الديك في لزومياته كتبت بعدها مباشرة قصيدتي عن الديك. وقصيدة المعري هذه طويلة تبلغ سبعة واربعين بيتا سأورد منها الابيات التي انعكست في قصيدتي كلمات واخيلة:

أياديك عدت من اياديك صيحة

بعثتَ بها ميت الكرى وهو نائمُ

هتفتَ فقال الناس اوس بن مُعير

او ابن رباح، بالمحلة قائمُ

عليك ثيابٌ خاطها الله قادرا،

بها رئمتك العاطفات الروائمُ

وتاجك معقود، كانك هرمز،

يباهي بها املاكه، ويوائمُ

وعينك سقط، ماخبا عند قرّةٍ،

كلمعة برق، مالها الدهر، شائمُ

وما افتقرت يوماً الى موقد لها

اذا قرّبتْ، للموقدين، الهشائمُ

مثلما ساورد بعض ابياتها التي ينعى بها الانسان مفضلا عليه الديك:

لو كنت لي مالر هفت لك مدية

ولا رام افطارا، باكلك، صائم

ولم يُغلَ ماء كي تمزّق حلةٌ

حبتك باسناها العصور القدائم

ولاعمت في الخمر التي حال طعمها

كانك في غمر من السيل عائم

ولاقيت عندي الخير تحسب عيلا

ينافيك قول سيء وشاتم

فإن كتب الله الجرائم ساخطا

على الخلق لم تكتب عليك الجرائم

رأين فراري من زماني واهله

وقد غص شرا نجده والتهائم

هذه الابيات اتخذت لها لبوسا اخر في قصيدتي ناقلاً اياها من مدار هجائي للإنسان الى مدار أسطوري، وان شئت كوني، يغدو فيه الكون مسرحا للنجمة تصعد فيه كالنعامة وبريقاً لعيني الديك يتلألأ في السماء، وهو (اي الديك) وسط هذا الجلال الكوني هرمز الملك بثيابه السود والحمر، بينما تشحذ المدى وتشبّ المواقد، على مقربةٍ منه، لخنق صيحته المنبئة بالفجر، وانبعاث الميت.

اقول في قصيدتي:

صعدت نجمة كالنعامة

عيناك برقٌ

وهذي الثياب الجميلة

سود وحمرٌ

وكانك هرمز

اي المواقد شُبَتْ

واي المدى قربت

ايها الديك

ياملك المحصنات

و يا ابن أوس

و يابن رباح

و ياصيحتي.

حين ينبعث الميت في صيحتي

أهي مفارقة أخرى ان صيحتنا التي ذهبت ادراج الرياح تزعم انها قادرة على بعث الميت؟ أم هي مفارقة ان يصبح ديك ابى العلاء و هو الضرير صيحتي؟ و اين ابو العلاء من وحشه الشاعر الذي لا يجد خلاصة في انبعاث او اخرة؟.

في الصفحة الرابعة من كتابنا انا و ابي العلاء استحلفه وهو الروح التي شغفها العالم الاخر فانفتح لها في (رسالة الغفران) ان يشفع للحطيئة وأن يحمل له عصاه وكلبه اللذين افتقدهما في الجنة:

استحلفك يا أبا العلاء

ان تقول لرضو ان أن يفتح الباب

ليحمل عني هذي العصا

-و ان شاء- هذا الكلب

الى صاحبي الحطيئة

فقد وردتني أخبار

عن وحشته في الجنة

يرد ذكر الحطيئة في (رسالة الغفران) في المقطع التالي: "فيذهب، عرفه الله الغبطة في كل سبيل، فاذا هو ببيت في اقصى الجنة، كأنه حفشُ أمةٍ راعية، وفيه رجل ليس عليه نور سكان الجنة، و عنده شجرة قميئة ثمرها ليس بزاك، فيقول: ياعبد الله، لقد رضيت بحقير شفن. فيقول: و الله ماوصلت إليه الا بعد هياط و مياط، و عرق من شقاء، و شفاعة من قريش و ددت انها لم تكن، فيقول: انا الحطيئة العبسي". و اذا كان بيت الحطيئة في اقصى الجنة كما ورد في رسالة الغفران فهو عتبتي بالذات الى هذه الرسالة التي كان محورها (ابن القارح) و الى حكايته مع الزق بالذات حين راه من باب المسجد فوجأه اي طعنة وشقه. تبدا قصيدتي بحكاية يرويها (ابن القارح) نفسه بيهة بالحلم او بحلم يقظةٍ وربما كانت ادعاء محضا بطعن الزق الذي لم ينسكب خمره، غير ان الزق سرعان ماينقض حكاية ابن القارح حين يروي انه ابصر ابن القارح حين مرّ بباب المسجد مشيرا اليه ان يتبعه لكن ابن القارح لم يلمحه، ولو لمحه ونقض توبته، معبّراً عن ندامة تكذب توبته المزعومة و اتخاذهِ المسجد مكاناً لتوبته.

حاولت في هذه القصيدة-الحكاية ان الخّص موقف ابي العلاء من الادب و الادباء الذين يقول فيهم:

و ما العلماء و الجُهّال الا

قريب حين تنظر من قريب

ومن رياء عصره، و اخترت المسجد مسرحا جامعا فيه ما لايلتقي من الاضداد ابداً. اصل هذه الحكاية نجده في رسالة الغفران في مارواه المعري عن توبة ابن القارح التي "تسامعت بها المحافل" حتى شاع أمرها في الجنة عندما مات ناسك من اهل حلب فاخبر الحوريات بذلك- لاحظوا سخرية ابى العلاء المبطنة-"فسررن وابتهجن، و هنأهن جاراتهن" ثم يروي ابو العلاء

ان ابن القارح لزم المسجد بعد توبته، فاجتمع اليه "الشبان المقتبلون، والادباء المتكهلون" "يقتبسون من آدابه، ويصغون المسامع لخطابه". عندئذ يرد ذكر الخنجر ليتحول القص الى نقيضه، اذ يقول ابو العلاء: "واذا كان ذلك بتفضل الله، اعد معه خنجرا كخنجر ابن الرومي". ثم يستطرد: "فاذا قضى ان يمر بباب المسجد الكهل المرقب (اي الزق)، وثب اليه (يقصد ابن القارح) وثبة نمر، الى متخلفة وقر آمر (اي التي تتخلف من الحيوان في القطيع الكثير)، أو أمر اصحابه بالوثوب اليه، فوجأه بذلك الخنجر وجاة فانبعث بمثل الدم، او الخالص من الخالص من العندم، وقرا هذه الاية: " ان الحسنات يذهبن السيئات، ذلك ذكرى للذاكرين"، وكأن توبة ابن القارح ما هي الا مزحة طريفة لا تستحق كل ذلك العناء والنصب من قبل ابن القارح في تظاهره بالورع ولاسيما وان الحسنات يذهبن السيئات. هذا هو جوهر حكاية ابن القارح والزقّ واصل حكايتي وان حكايتي لحكاية ابي العلاء ذيو لا لا تعيننا كثيرا في اضاءة مانحن بصدده من تناص:

من باب المسجد
ابصرتُ الزقّ يمرّ
-قال ابن القارح-
فوجأته...
لكن لم ينسكب الخمر
قال الزقّ:
"من باب المسجد
ابصرت ابن القارح
فاشرت له ان يتبعني"
قال ابن القارح:
"ما أجهلني
لو صحّ الأمر"

اما مرثيتي لأبي العلاء فهي مرثية للمعرّة والناس مثلما هي مرثية لي ولمدني وناسي، فبعد اربعين عاما على رحيل ابي العلاء يدخل الصليبيون المعرة ويستبيحونها:

لم تنل راحة بجوار
فهل نلتها ميتا ياأبي
حين مرّوا
وضاقت بأعلامهم
جنبات الفضاء
ترى اهتزّ قبرك
وارتجفت في التراب عظامك؟
ام انتَ اصغيتَ
قلت: "القيامة حانتْ
وقد شقت الصرخات السماء

وشبّت نُذُر النار فى الطرقات
وسيق اليها الحجارة والناس
يا أبتِ!
هل رايت القيامة اتية
-في الحياة-
فآليت الا تجور على أحدٍ

وكأن القيامة قامت حقا فجاءت خلائق ابي العلاء ثانية تتقـدمها طيرهُ ووحوشـه، اشـجاره وافاعيه:

جاءت الخلائق:
الحمامة بلا طوق
الجمل دونما سنام
الاسد بجانحين
الغراب بشعر أشيب
الذئب بفروة حمل
الضبع برأس إمرأة
الفهد بوجه أنسيّ
الشجرة بصحبة افعى
الجبل بسنامين
جاءت الخلائق
واشتاقت الارض للسماء

هكذا تنتهي قصيدة ابي العلاء بقيامة حقيقة للخلائق.

(2)

للشاعر تاريخه ايضا ووقائعه المتخيلة التي يريدها ان تصبح تاريخا، لذا ينشيء الحـكايات التي ينسبها الى التاريخ ليعطيها ثقله وديمومته وهو في هذا الانشاء قد يستغني عن التاريخ كليا او يعتمد بعض اجزائه ليكمل صورته كما يراه، وقـد يجمع ما تناثر منه ليعيد للصورة حـياتها التي افتقدت، وهذا ماحاولت تحقيقه في حكايات لاسند لها من واقع غير ماتناثر من هذا الواقـع كما في قصائد (حكايات من غرناطة) والمقطع الخامس من قصيدة (احـلام)، الذي يتكيء في سرده على حكاية (الجني والملكين الاخوين وامرأة الصندوق) في (الف ليلة وليلة) ويشوشـها كعادة الاحلام، كذلك في هوامش هذه القصيدة، وقـد تتخذ لها صفة الوقـائع من دون أن يكون هناك واقع اصـلا، وهذا في تصميم لعبة الشعر الذي يُراد له دوما ان ينأى عن المراجع، كما في قصيدة (الملك والحذاء)، وكما في المقطع السادس من قصيدة (أحلام) حيث الشاعر يجلس الى بركةٍ ليصطاد، فلا يسحب في شبكته غير البركة نفسها على هيئة امرأة:

جلست الى بركة أصطاد
فاهتز الخيط
وانسحبت معه البركة

عارية بين يديّ
صحت بطفلي:
"انظر"
إمرأة من ماء
إمرأة من ماء"

ولعل موضوع السحر في قصيدة (شيء عن السحر) اقدر من غيره على اثارة تداعيات الماضي واحداثه التي يكتنفها الغموض وتتخللها المعجزات.. فمن منا لا يتذكر المدن والمرايا المسحورة في (الف ليلة وليلة)، والناس الذين تحولوا الى حجر، او الذين طاروا باجنحة في الهواء. في السحر يمتزج التاريخ بالخرافة والفولكلور، وتستدعى اعقد الحلول لما يبدو مستعصيا على الحل.

مالذي سيفعله البشر لو جلس حصان على العرش؟
مرّة جلس حصان على العرش
فأمر الخيول
ان تركب البشر
ناشراً الفزع بين الناس
وقد تشاوروا في الأمر
فلم يجدوا خلاصا الا في السحر
بعضهم صار حصاناً
والآخر فأراً
والثالث سمكة
وبعضهم فضّل الطيور
فهاجروا منفردا
او في سرب
والآخرون اجتنبوا الطريق
وسكنوا الاحجار
حتى خلت البلاد من الناس
وسادت الخيول
تركب
في نزهتها
الخيول

ومالذي سيفعله الإنسان لو وجد نفسه في مدينة لايسكنها غير ديكة وقد قدموا له حفنة قمح؟
في مدينة
لم يدخلها أحد
في قلب الصحراء
رايتُ ديكة

تنفخ في الأبواق
وأخرى تصدح فوق الابراجْ
ولا بشر هناك
ثم تقدم ديك
ودعاني
ان اتناول حفنة قمح
او وجد نفسه في مدينة مسحورة وقد زال عنه السحر وسط اناس من حجر؟
لو كنتُ في مدينةٍ مسحورة
وسط أناسٍ من حجر
وغيوم من حجر
وكلابٌ من حجر
ماذا ستفعل؟
ماذا ستفعل؟
ايها المسحور
وقد زال عنك السحر.

هذه الاسئلة وغيرها قد تجد اجابتها في السحر نفسه أو في إبطاله، وفي الحالتين قد يجد الانسان نفسه في محنة لا تماثلها محنة أبدا. واذا كان السحر اشدّ الموضوعات ارتباطاً بالتاريخ، فهل هناك ما هو اشدّ ارتباطا ايضاً بالتاريخ من الجواهري الذي خرق التاريخ بالواقع، والواقع بالتاريخ. وجعل من الفاظه نوافذ نطل منها على واقع وتاريخ دون ان يطمس احدهما الآخر، في تخفياتهما وجلائهما في ان واحد، وفي مايأتلفان فيه من حلم يستوحي ثانية ذلك التراث الحاضر ابداً.. تراثنا الشعبي في لعبة ساخرة لا حدود لها بين الحلم واليقظة.. بين الحلم والتاريخ:

حلم الشاعر يوماً
بوحوش كاسرةٍ
في اقفاص
تتطلع فيه
وحين أفاق من الحلم
رأى نفسه في قفص
فارتاع
وعاد الى احلامه ثانية
يبصر أقفاصا
ووحوشا كاسرة
تتطلع فيه

وقد يأتلف الواقع والتاريخ في المكان مثلما ائتلفا في الحلم:
الكوفة

التي حملها الجند في الصحراء
ولم تبلغ المدائن
الشاخصة ابدا الى السماء
وقد سال دم كثير .. كثير
على الأرض
الرملة
التي اوقفت القمرين
ليلتقيا
المسبيّة
القادمة بثياب الأسر
الى قبر في الشام
لتلقاك كما كنت
كما كنت
بهيّاً

لقد امتدت سنوات الجواهري حتى اصبحت تأريخاً، وتقلص التاريخ في شخص الجواهري وشعره حتى اصبح واقعاً، وكان في الاثنين الحاضر الغائب ابدا في شعرنا العربي، غير ان تاريخنا يتردد صداه حتى الان في واقعنا الفاجع يمتد الى اوروك عبر صوته النادب:

"انا ابن دجلة"
صانع السلال المطليّة بالقار
و القصائد التي حملت الرّب على البكاء
انا العابرُ الذي اقام المدينة
على كتفيه
وظلّ واقفاً
يرد عنها الطعنات
"انا ابن دجلة"
حامل القرابين
السائر بدوابي و أمتعتي.
انذر نفسي ذبيحة
اذا اعوزتني النذور.
ماذا فعلتُ
لتهجرني ايها الرب؟
في هذه البرية المقفره
برية الأمي

ان لم يكن غائراً في ماهو أبعد من أوروك.. في الكهوف المظلمة، كما في مقطع السير الى

الوراء في قصيدة (شيء عن السحر):

هذه الأيام
لااقرأ غير كتب السحر
حتى اعتدتُ السير الى الوراء
بعيداً عن الناس
والاشجار
والمدن
باتجاه كهوفٍ مظلمةٍ
وبراكين خامدةٍ
وعمالقةٍ
قالوا إنهم اجدادي
ثم رايتني
بين صخور هائلةٍ
فجلست
منتظرا
ان يعبر عالمُ آثارٍ

لعلنا لم نزل نقيم في تلك الكهوف المظلمة التي خيل لنا اننا اجتزناها منذ زمن، بسانتظار من يكتشفنا من علماء الاثار، ولعلنا قادمون الى تلك الكهوف في سيرنا الى الوراء من يدري؟

هبطت غابة
(كانت يوما خضراء)
حاملا تعاويذ لتحرسني
وطلاسم لاعلقها فوق الأشجار
لكن لم أر اثراً
لشجرة أو طائر
لحيوان أاو عشب
لقمر أو شمس
غير روح تتبعني
وتصيح:
"أخرج!
أخرج!
من مملكتي ايها الضال"

قريبا من تلك الروح في معراجها الصاعد باتجاه السماء في حركته المعاكسة لامتدادنا الارضي الى كهوفنا الغائرة، نقيم ممالكنا الوهمية، حيث الجميع، ابتداء من الديناصور المنقرض، الى (الس) الصبية الحالمة، مرورا بالخفاش الاعمى، والارنب المذعور، والدودة الزاحفة والثعلب الماكر والحية المراوغة، يسيرون الى بلاد العجائب. هناك يكتشف الشاعر ان

كل شيء من ورق:
في بلاد العجائب
كل شيء من ورق
النجوم و السماء
الحدائق و الاطيار
الجنود و الملكة
القصيدة و الشاعر
كل شيء..
كل شيء
ألا يستحق كل ذلك وقفة للبكاء؟
قفا نبك من منزلٍ لحبيب
عفته الرياح
و طافت بأرجائه الموحشات الظباء
كاني يوم الرحيل لدى شجر الحي ناقف حنظل
يقول صاحبي: "تجمل"
و أنىّ
ودمعي شفائي
و هذي الديار انيسي

(1) ابن نباتة: سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون، ص٤٦٦.
(*) البيت على وجهه الصحيح هو:
فإن يكُ فيكم إفكُ فرعون باقياً
فإن عصا موسى بلف خيب
(المحرر)

قصتي مع القصة

تجربتي الادبية

فهد الأسدي

سفر التكوين: في أصقاعنا لم يكن الناس يؤرخون تواريخ الميلاد سوى ساعات النحس، ففلان ولد يوم حريق (تكيلة) وهو حريق كانت قد أشعلته تلك الهيلاء فأكل نصف أكواخ القرية القصبية، وعلان ولد يوم الموج الأكبر الذي تطافت فيه مياه الفيضان حتى هددت سارية علم الحكومة يومذاك، لذا فحين سألت أمي عن تاريخ ميلادي قالت: أذكر جيدا انك ولدت بعد اليوم السابع لمقتل ملك. كانت لاتعرف اسم ذلك الملك، لكنها تتذكر ان البعض كانوا يندبون صائحين:

يالغسلت جسم الملك كلى اشلكيت صوابه

ضربة عمد لو هو تيل لو قنبلة من أصحابه

ومن ذلك النعاء علمت انني قد اكون من مواليد الثاني من نيسان عام ١٩٣٩، وربما ترك هذا الحديث بصمة مبكرة على ادراكي أو ألقت بي عواصفه مرغما على شواطىء التاريخ والقصة، فأتجه اهتمامي بالسؤال لماذا يعترك الانسان؟. كانت فاتحة ميلادي انسانا مصرع ملك، وفاتحة ميلادي كاتبا بعد أقل من عشرين مصرع ملك أيضا؟!!

* ولدت في بلدة الجبايش التي كانت وقتذاك جزرا منسية وسط أهوار وأحراش البردي والقصب الكثيفة، تلك البلدة كانت تظل مؤخرتها منقوعة في الماء عدة شهور من السنة. حين كانت جدتي الطيبة تهز مهدي القصبي وتهدهدني دفعت بي بهزة نشوة الى المياه، لم يبعدني عن الموت سوى صرخة نبهت جدتي الضريرة والآخرين، ومن ذلك اليوم تعلمت أنك كي تعيش لابد ان تطلق الصرخة بوجه الاختناق، وعرفت ان الكتابة ليست سوى نوع من الصراخ بوجه كابوس التراكمات التي تحاول أن تسد على الانسان دروب الخلاص!!..أنا مدين في كثير من صوري لذلك الهور العظيم المتخم بالمعاناة. مدين لأسراب الطيور الحذف والخضيري والبط الاسمر فيه. وأنا أرقب مواسم هجراتها للبحث عن الأمن والدفء والقوت وعن كل جديد. مدين لأسماكه وغيالمه وكواسجه وأفاعيه وهي تعلمني الحذر أثناء السباحة وسط التيار، وتدلني على الفكوك الفاغرة لألتهام الفرائيس.

مدين لعوالمه وأساطيره، منها اسطورة احفيظ وحكايات إنسانه الذي عايشته في طفولتي وهو يعيش في الكوخ السومري نفسه، ويستعمل القارب السومري نفسه، ويصيد بآلة الصيد نفسها، وان تبدلت صورة اليوم عن الأمس كثيرا، لقد أترع كأسي بصور معاناة ذاك الانسان وهو يواجه طبيعة قاسية ويقع في احبولة المرابين وتجار البواري، أو يسقط فريسة (الكنديرين) وهم متعهدو نقل عمال التمر الى جراديق البصرة، هذه البصمات المحفورة في ذاتي طبعت وشمها فظهرت في قصص (طعم للغيلم، أسعد طفل، نهر الجنوب). ذلك النهر الذي قلت ان على ضفافه الضحك حزن، واللذائذ حزن. والعمل حزن. ومع كل ذلك يصر على ان يجري.

* يؤكد بعض المجذفين القول: لافضل لاحد بصنع الارض هناك حتى للآلهة، فمن زبد المياه وثقل الاقطال وزند الانسان صُنعت الأوطان.

استقرت الدودة المتطورة، وظلت تواصل الكدح بإصرار عنيد. ولا ادري كيف يتأتى لي الصلف أن ادير ظهري عن الصور وألغي ما انطبع على ذاكرتي مُنها؟

(هذا الانسان الذي كنت أخشى عليه من الغرق ثم خشيت عليه من الظمأ).

* هناك حيث كان يفسح الفرات دموعه المتعبات على صدر أرض الهور، فتمتد بطاح وبطاح، وبرغم سماحة هذا الهور وهدوئه وسلامه تثور هذه البطائح المائية أحيانا فتزمجر أعاصيرها، فتفتح امواجها الاشداق بوجه السفن المتعبة وبوجه الملاحين التائهين، أو المغامرين، أو الحمقى منهم، فيلبّون نداء المجهول. يوما وأنا صغير ركبت هذه البحار المجهولة مغامراً. داهمني الأعصار فخفت فعلاً. ثم أدركت كم هو طويل طريق الخوف!. كدت أصير العوبة ذاك المجهول، لكنني تعلمت من تلك التجربة المريرة انه لكي تهزم الخوف من المجهول عليك أن تدجّنه بالكتابة – المواجهة. .لقد علمتني موجة عدوة هذا السر منذ صغري!.

"جسد يمتطي صهوة الريح" قصة ناقل البريد.

* عش في الجنوب بالذات. وفي أهوار الجنوب بالذات. وفي الجبايش بالذات وفي قصبة الزنوج بالذات عندها ستفهم قصتي. .وقصبة الزنوج تلك جزرة يتجمع عليها تضامن أكواخ قصب تضم اسراً من الملونين. يتجمع في أسواق عيونهم حزن العالم كله. فمع القهر والاستلاب كانت تحاصرهم لغة اللون. الناس هناك طيبون يشاطرون ناس قصبة الزنوج أفراحهم وأحزانهم احياناً، الا انهم ولفرط الجهل يمازحونهم فيطلقون على جزرتهم "جزرة العبيد" وكان الكثير من ناس الجزرة هذه يصدقون كونهم عبيداً رغم ان الكثير منهم بلا سادة. وهكذا وجدت ضمن تجربتي ان ماهو أقسى من العبودية أن يصدق المرء دوما كونه عبداً. ولذا فحين كتبت قصة "طيور السماء"، ثم رواية "الصليب حلب بن غريبة". وجدت شخوصاً واقعية ظلت تعيش ضمن القهر البطرياركي، وما كان عليّ سوى ان اخلق منها شخصية تركيبية، ضمنتها كل رؤاي فما تتركه لغة اللون من سخام في ضمير الانسان. لذا أقرّ بأنني خططت، فعلا في هذه التجربة، لأن يتبنى المستعبدون خلاصهم من خلال تجربة انسان استسلم كخروف للذبح بسبب تصديقه كونه عبداً وما درى أن خلاصه يجيء من خلال قطعه للسلسلة التي تقيده، وكفه عن مازوكيته وسوطه لذاته.

* كنت الولد الخامس بين سبعة لمستخدم في الحكومة ذي مرتب متواضع اضطر للنزوح الى الهور، هروبه من فصيل لجيش الانجليز آنذاك. كان مع جنود هنود تعلم منهم بضع جمل انكليزية وكلمات هندية، واورثوا له قرحة في المعدة نتيجة مشاركتهم أكلة الرقي بالفلفل الحار. قال لي يوما انه تحدى الضابط الانكليزي حين رمى (بالأكل الذي لم يستطعمه الا بالماء قائلا بأنه الرَوِيّ بالياني) وهي جملة هندية تعني العمل الذي قام به، وحين حاول الآمر صفعه دفعه الى الماء وهرب متخذاً الهور ستاراً. . وهكذا كتب على اسرته قدر العيش مع القسوة ثمنا لطبع فيه. . ربما أورثني هذا الأب بعضاً من ذلك العناد، وربما هو من أسس في ذاتي هاجس كتابتي لقصة معمرة عليّ، تلك المعمرة التي تبتلي بالكثير من المصائب والكوارث ومع ذلك يصرّ (علي) فيها على مواصلة الحياة. اضطرتني الحياة محاولا ان اخفف النير عن كاهل أبي للدرس والاشتغال. مارست خدمة البيوت وعرفت من أسرارها الكثير. شيء لايفيد سوى مزابل التاريخ، لكنه يصنع المادة الخام للكتابة، ويغني سقوط الذاكرة، وهكذا فحين أعطتني الحياة وحلها جهدت لأن احيل وحلها بكيمياء الفن ذهباً، وبقي هذا طموحي المشروع أبداً، لقد صيرت حواسي نتيجة تلك الممارسة الحياتية أذني حصان. وقد جهدت لأن اسجل من خلال واقعيتي بكارة وصدق ماسجلته حواسي، ولقد استبدلت حدث التاريخ بخيال القصة، ذلك لأنني اجد الفن بطموحه أبلغ صدقاً في التعبير عن آمال انسانا لافرداً، ترى أليست من مهام الفن الكبرى أن يظهر الانسان خالقاً للتاريخ لاضحية له؟ من هذه الرؤية حاولت اعادة انتاج الواقع في شكل وجوهر الحياة نفسها لابهيئتها الحسية. بل بكل ماوراء قشرتها البراقة الزائفة من صراع مرير.

* زاحمتني في طفولتي جيوش الاطفال والاسمال والبول الدموي. كانت لعبتنا المفضلة على شواطيء الانهار (مباراة البول الدموي) الفائز فيها من كان بوله أكثر دماً. ترى أية لعبة لعينة كانت تلك؟ لم تحفر تلك الصور أخاديد في تضاريس الروح. لقد قيل اعطني الانسان في السنوات الاولى من عمره، ولايهمني من يأخذه بعدي، لقد استلبني ذاك القدر الطفولي، فلون أيامي بالمرارة وعصرتني في شبيبتي المتناقضات الحادة التي عاشها مجتمعي، فتركت آثاراً من السخام في نفسي كالسخام الذي تركته الحرائق على الاكواخ التي قد تسلم من السنة اللهيب لكنها لاتسلم من الاصطباغ بالسواد.

* أول من فتح عيني على جدوى الفن معلم رومانسي، كان يحب الشعر والموسيقى. كنت على ما أذكر في الثالث الأبتدائي، وقد فوجئنا في صقع كهذا ان يحل انسان بيننا وهو يحمل كماناً!.. استعدت المدرسة يوماً لاستقبال قائد طراد بحري انكليزي كان يجري مناورات عسكرية في مياهنا، وقد كلفت الادارة هذا المعلم ان يهيء تلميذاً كي ينشد قصيدة أمام القائد، وقد كان قدري أن اكون ذاك التلميذ المختار، حفظني قصيدة لم أكن لأفهم من معانيها وقتذاك الكثير، لكن عدوى الحماسة سرت لي من معلمي ذاك المريض بحب كبير.. لم أجد لي من مهمة سوى ان اصرخ بالقصيدة بحماسة أشد.. فحنجرتي بكر، وحنجرة استاذي كانت قد اتلفتها شرور كثيرة، وهكذا علا صوتي أمام القائد الانكليزي، صادحاً بقصيدة اليازجي "تنبهوا واستفيقوا أيها العرب.. فقد طما الخطب حتى ضاقت الركب).. كان حماسي يعلو مع احتقان وجه القائد وكنت في ذروة الانفعال عندما صرخ القائد – ستوب!!.. وأكمل في رطانة موجها كلامه لمدير الناحية – نوت زين.. طفل يتعلم حماسة كثير.. لم أكتشف الا بعد الوعي.. ان حمرة انفعاله لم تكن سروراً، وان للفن قدرة فائقة على الاستفزاز وان للكلمة البدء في المقاومة.. ولذا تجدني أسخر من التنظير القائل ان الهم الاجتماعي لايضيف بعداً جماليا للفن، إذ ان تنظيراً كهذا، وفي رأيي المتواضع، ينطلق من فلسفة مثالية كرستها مدرسة الفن للفن. لقد آمنت ان القيمة الجمالية للفن تنبع من ارتباطه بالهم الانساني، وحتى مع الفن التجريدي، فانا اراه تعبيراً عن حاجة نفسية من خلال البحث عن عناصر التجانس والموائمة والانسجام بين الالوان والاشكال. ولذا لم أؤمن يوماً بأن هناك قيمة جمالية خالصة لوجه الجمال وحده، ثم ماهو مفهوم الجمال الخالص؟. انه أمر ضبابي مائع أعلن بلا خجل عدم استيعابي لوصاياه، وعدم التزامي به منهجاً لكتابة اذ يظل الجمال، وكما قال دوستوفسكي معركة يتصارع بها الله والشيطان ميدانها قلوب البشر، لست مع الشطحات الفلسفية التي تزعم ان للجمال وجوداً خارجياً موضوعياً، إذ ان ميدان الجمال هو العقل البشري، وتذوقه يمر من خلال هذا الموشور. لقد انتهجت الواقعية، لانها المدرسة التي لاتهرب من الهم الانساني، ولاترتفع عن مشكلاته، وقد تتلمذت على الاعمال الواقعية العظيمة، إذ وجدتها قمماً جمالية عالية في الفن، لقد قال غوته: من النفع الى الجمال من خلال الحقيقة.

* المعلمون الاوائل:

قبل أن افك الحرف جيداً فتح لي باب الفن القصصي معلمان، أحدهما مضمد صحي جاراً لنا كان (تشيخو في الاول). كان يمتعنا ليالي الشتاء بقصص وحكايات ألف ليلة وليلة، وعندما يؤديها أحيانا تمثيلا بصوته، وكان هذا انبهاري الاول في الفن. بعد ان بهرتني صخرة بلون الشذر الازرق جلبتها أمي بعد زيارة لها للمراقد المقدسة، وأطلقت عليها (صخرة العباس) واستعملتها تميمة لازالة الاوجاع!.

كنت اظن انه ليس للطابوق سوى لون واحد،لكنني وجدت وكذا الفنون الابداعية ان لها الوانا عدة، أما معلمي الثاني فهو آوتة اسرتنا سنين طوالاً. وكان يقوم لقاء اقامته بسرد الاساطير والحكايات لنا. ويجعل نفسه راوية أو مصفقاً لأشعار أبي الشعبية، ومؤرخاً لبطولته المتواضعة

مع (شعلان أبو الجون)، خلال ثورة العشرين، قبل نزوحه الى أرض الهور. حين بدات أفك الحروف جيداً كانت دائرة العلاقات البريطانية قد أسست مكتبة للدعاية. بناء هندسي جميل من قصب وسط حديقة على ضفة النهر. لقد ضمت تلك المكتبة كتباً عديدة، وبوسترات دعاية من نهاية الحرب العالمية الثانية. لازلت اذكر صورة غوبلز، وحبل يلتف حول عنقه، وثارت من خلال الصورة حتى من ذاك القائد الانكليزي، ومن كل من يطلق الرصاص على الثقافة كان قد عين في تلك المكتبة مرشد، كان يودّني فيزودني بالنشريات الملونة والمجلات والكتب الصغيرة، وكنت احب هذا الرجل، الا انه اختفى فجأة. وقيل وقتها انه كان ينظم خلايا في السر لحزب سياسي ممنوع وقد اعتقل. لقد كان ذلك مفاجأة لادارة المكتبة الانكليزية، وتساؤلاً وأسفاً بالنسبة لي. لماذا يعتقل انسان يخدم الثقافة، وهذا التساؤل ربما فتح باب القلق المنتج عندي. وفي خضم العشق للقراءة، واعتماداً على هوسي وفضولي في ان ارفع كل ورقة ساقطة في الشارع، وبعد ذلك وجدت طريقي بنفسي خاصة، بعد ان انتقلت الى مدينة الناصرية لاكمال دراستي الثانوية، ووجدت مكتبة عامرة فيها.

* كنت نادراً ما اتابع القصة العراقية، لذا لا استطيع الزعم بأنني تلميذ لها حتى ولو توفر معلمون فيها. الا ان القصة العالمية استهوتني كثيراً، لقد أسرتني في البداية شخوص (هيجو). وبهرني من الانكليز (توماس هاردي) في رائعته (تس، سليلة اسرة دربرفيل) وعجبت لخيال (ج، ويلز) في رائعته (بلد العميان). لم أمل لديكتر وسومرست كثيراً، أما عن شكسبير فقد كنت أحفظ مقاطع من (هملت) وظللت اردد دوماً مع نفسي "كلما زاد صفاء السماء كان منظر السحب أبشع).. ودون كيشوت من أخذ عليّ لبابي، كما احذ لبابي عباقرة القصة الروسية بكتابها كلهم. فقد ظلت نجوم مثل جوجول وتورجنيف وتشيخوف وليرمانتوف وتولستوي والشيخ دوستوفيسكي لامعة في فكري لحد الان. ورائعة (موبي ديك)، واندريه جيد، ومالروا وسانت اكزوبري لايمكن للذاكرة البشرية ان تنساهم، وفوكنر وشتاينبك في رائعته (عناقيد الغضب) وارسكين كالدوريل.

بداية النشر:

بدأت النشر عام ١٩٥٩ بمقالة نقد في مجلة (المثقف) العراقية، وبعد شهرين نشرت قصتي الاولى في المجلة نفسها، وكان فرحي غامراً حين سمعت ان الناقد (علي الشوك) كان قد أعلن بعد قرائته لقصتي على اسرة التحرير عن ولادة قاص عراقي.

كانت تلك شهادة أعتز بها الى جانب شهادات نقاد عراقيين وعرب واجانب عززو ثقتي بالكتابة. الا ان نقادي الاول كانوا قراءاً من الاصدقاء، دفعني احدهم لأن اصرح التهيب ولوج باب المجلات العربية، كانت مجلة (الاداب) قبلة لادباء عرب كثيرين، وفعلاً خلال شهر من ارسال قصتي لها نشرت القصة على صفحاتها. أقر بأن ذلك ملأني سروراً. منذ ذاك وضعت اقدامي على طريق الادب الشائك العسر. وحين أعلن احد زملائي يوماً عن تكفيني قاصاً كوني اصبحت محامياً ألهته المحاماة عن الادب على حد زعمه، وجدت في اعلانه استفزازاً للعمل والقول: ان المحاماة تظل زوجتي ولكن القصة عشيقتي قياساً مع الفارق. كما يقول المناطقة على قولة تشيخوف.

قصتي مع جيلي:

شاهد من هذا الجيل، ولجت مقاهي الادباء ومجالسهم في بغداد منتصف الستينات. كنت اظن ان بغداد آنذاك ستضيف لي لكنني فوجئت بعواصف التجريب التي كانت تعصف على القصة العراقية. (وصادف ان شاهدت رغماً سينمياً عن كاتب أمريكي من ارياف كنتاكي اكتشفه ناقد

ادبي كبير و هو يقلب اوراقا اثناء انتظاره لملء خزان سيارته من محطة لضخ البنزين يعمل بها ذلك الكاتب المغمور، اعجب الناقد بهذا فقدم قصته في احدى صحف الادب الشهيرة، فشهر الكاتب وجذبته اضواء نيويورك نجاحا إثر نجاح.: كان المشهد الاخير في حفلة دعا لها كاتبنا الثري هذا بمناسبة صدور كتابه الاخير، وكان الجميع ينتظرون رأي ذاك الناقد بالكتاب. ورفع الناقد صوته بلهجة ناصحة وقال:" عد الى قريتك في كنتاكي، فقد كانت قصتك الاولى هي الفضلى".. وجدت وكأن هذا القول يعنيني وآخرين مثلي أمام ركام الاعمال التجريبية آنذاك، ووجدتني وآخرين نراجع الذات. لقد كان تيار القصة الستينية قدرا تاريخيا لي في تظاهرة التجريب الصاخبة تلك، أعلن عن جيل بلا اساتذة، وهو عقوق مشروع لو كانت الازاحة تتم باحلال البديل الافضل المكمل للقصة الخمسينية التي ظلت اسيرة مضمونها، والذي كان ينبغي عليه ان يتحرك بأتجاه الواقع الجديد الذي أفرزته الثورة (وطبعا حتم علينا ان نستثنى منها ومحاولات جادة وانجازات في التجديد في الاسلوب استفادت من انجازات القصة العالمية، وحتم علينا ان نبرز انتمائيتها، وهما ما تخلفت عنه القصة الستينية في الغالب كثيرا. نقول كان المشروع يقدم البديل الثوري في الفن، الا ان تلك الشهوانية المستعرة والرغبات غير الهادفة في التجديد طرحا تجارب لم تنضج بعد مواليد خدجا اختنقت في انابيب الشكلية، كانت تلك الاعمال في الكثير منها تكنيكا غير مستوف شروطه يبحث عن مضمون، وبذلك فقد ولدت مخلوقات شوهاء تخالف طبيعة الفن القائمة على التطابق بين الشكل والمضمون، إذ لايمكن لأي مضمون ان يستورد شكلاً، ولا لأي شكل ان يفرض نفسه على أي مضمون، وهذا ربما اثبتته نظريات الادب ودراساته الجادة. اننا نستمتع بالعمل الادبي حين لانستطيع ان نميز في نسيجه اي شكل واي مضمون وهذا بعض من اخفاقات التجريبية الشكلية حين لم تحقق هذا الشرط الفني.

لقد ولد التيار التجريبي انعكاسا لخيبات عديدة منها انكفاء القاص الخمسيني وعدم القدرة على مواكبة الواقع بعد الثورة، مما حتم ملء الفراغ بفرسان جدد ذوي سيوف خشبية استفادوا من العلاقات في مؤسسات الادب والنشر آنذاك، وطبق البعض منهم سياسة (الدومنيك) اليابانية، فراحوا يغرقون السوق الادبية بالنتاجات، وهنا صار لكل من نشر كتيبا حق الادعاء كونه مبدعاً. لابل شيخ طريقة. وما على الاخرين سوى ان يفهموا ما يكتب، وقد عانت التجريبية من اشكال آخر يتمثل في الغموض والافتعال في اللغة والاسلوب، هذا الغموض تولد من عاملين وهما: نقص التجربة الفنية والحياتية من جهة لدى الكاتب، وعدم وضوح الرؤية للواقع آنذاك. ولأن الصدق الفني يجيء حتما من الصدق الموضوعي، لذا فحين لم يستلم وعي الكاتب الواقع استلاماً كاملاً فشل في ان يعبر عنه تعبيراً كاملاً.

ولذا فقد عانى التيار التجريبي حتى مع افتراض نبل طموحاته وتوجهه الثوري في الفن، عانى من قطيعة مع قارئه. ان ذلك الغموض المفتعل حتم زحمة المصطادين في تلك المياه العكرة، ذلك لأن الغموض قد يخفي كاتباً مبدعاً احياناً (وهو هنا غموض فني). الا انه في اكثر الاحيان يخفي الكاتب التافه، وكما قيل فالاعمال العظيمة بسيطة ابتداء من الانجيل وانتهاء بالشيخ والبحر. وهذا اخيراً وليس آخرا. لقد تحول بعض كتاب تلك الموجة الفاشلين الى كتّاب رقى وسحرية.

وثمة اخفاق آخر للتجريبية تمثل في تعاليها عن تقديم مضمون مقنع والغائها الشخصية. وكان البعض قد فهم خطأ آراء (اوكونوا) في فن القصة كونها فن البرجوازي الصغير وان على كاتبها ان يقدم مأساة من طبق فاصوليا او من اختيار ربطة عنق مثلا.

وان عالمها هو عالم الشخص المطحون المنسحق الذي قد يتعرض لمآسي كثيرة، قد تنجم من اشياء تافهة، ولا أدري كيف لم يتأت للتجريبية آنذاك ان تقدم المأساة. وقد كانت أمامها أطباق

من هموم انسانية أعمق ليست ترفا.

الا انه وبعد ان أنسحرت موجة التجريب، وتمت مراجعة الذات القاسية من قبل بعض الزملاء الذين واصلوا مسيرة الفن القصصي حتى تبلورت أعمال قصصية عراقية وجدت لها المكان اللائق في فن القصة. وظهرت اجيال تبشر بـأمكانات طيبة استفادت من دروس التجربة الستينية. بقي عليّ ان اشير الى ظاهرة اجدها في رأيي ماز الت من مخلفات التجريبية، إذ لايمكن ان نتصور ان ظاهرة ادبية ما مهما كانت نوعها لاتؤثر سلباً أو ايجاباً في مسيرة الادب. انني ارى ان التجريبية قد استمدت ملامحها في انجازات جديدة تمثلت في ظاهرة المعلوماتية التي سادت حتى في اعمال قاصين مبدعين بيننا في تلك الاعمال التي تقترب الى فن (المقالة)، أكثر من قربها الى فن القصة، حين نلمح من خلالها استعراضات لثقافة الكاتب. ومع ان من الاساسي ان يكون الفنان مثقفاً. الا انه ليس من المحتم ان يكون كل مثقف فناناً.. حتى مع تقنتنا بمستقبل العلم فأننا لانعتقد ان يكون (الكومبيوتر) كاتباً مبدعاً يوماً. ثمة حكمة هندية تقول: اياك والدخول من دبُرٍ واسع.. هذه تصدق في فن القصة كثيراً.. أحياناً أصعب مافي الامر ان نحاول الانتقاء من متجر الحياة الواسع موضوعاً لقصة.. ولأن هذه الحكمة ترتبط بحكاية استعيرها لحالة الكاتب المعلوماتي.. يُقال ان ثعلباً اراد ان يصادق فيلاً، ويقترب منه، فدخل من دبره الواسع الى جوفه، وهناك فوجيء بأحشاء الفيل الغنية فراح يلتهمها، التهم الكبد والاحشاء والقلب وغيرها، فامات الفيل، وظل الثعلب طامعاً بكنزه حتى تيبست اعضاء الفيل وانسدت مداخله عندها حار الثعلب في ان يجد طريقا له في الخلاص، فقيل له اياك والدخول من دبر واسع.

الا يصدق هذا على الكتّاب الذين يحاولون اتخام اعمالهم القصصية بالمعلوماتية وخاصة التاريخية فيثقل دمها. وكما قال تولستوي: ان اكبر صعوبة في عمل الكاتب هي اختيار احتمال واحد فقط من بين مليون احتمال. واضيف ان الكاتب الذي يهمل التكنيك الادبي أو اساليب التجديد في الفن ليس بمبدع الا من هو اسوأ منه.

ذلك الذي يتوه دوماً لاهثا في بحار التجريبية وراء قناعة هشة، ان عليه ان يطرح اسلوباً جديداً لاغير، مع كل عمل جديد له.

مفهومي عن الواقعية:

حاولت في قصصي أن اعرض العالم كما يتراءى لحواسي دون تزويق أو تزييف أو اهمال لأية كمية من الفرح أو السخط فيه. ووجدت ان عليّ الا انكر الوجود وقسوته على انساني، عليّ ان اعيش فيه واتجرع كؤوسه حد الثمالة كيما اعرفه جيداً.. ولأجعلن من هذه المعرفة سلاحاً يعيش انساني على الخلاص من قسوة الوجود، ترى هل نجحت؟ هل حققت طموحي؟. هل كتبت قصتي الام؟ اجوبة مازالت لا امتلك شجاعة على البوح بها حتى لنفسي..أين مكان هذه التجربة المتواضعة أمام تجارب الادب العظمى؟. وشيء لايمكنني ان أقيس به، إذ هل يُقاس البحر بقدح ضئيل، وبالقدر الذي اشفق به على انتاجي من معاول الهدم أشفق عليه من بخور النفاق!!.

شاعرراحل يرثي شاعراً رحل قبله

قصيدة الى الغريب

شعر: عبد الخالق محمود

تقديم: جاسم العايف

بعد الرحيل، المفجع، للشاعر الصديق "مصطفى عبد الله"، وصلني كتاب، عنه، وله، بعنوان "الأجنبي الجميل" من اصدار رابطة الكتاب والصحفيين والفنانين الديمقراطيين العراقيين.. كان الكتاب، بمثابة ذكرى ووفاء لمصطفى.. بدأت أسرب، الكتاب سرا الى كل الاصدقاء، الادباء، والمثقفين، حتى انه، وصل الى (الناصرية) - مدينة الشطرة تحديدا، ومن الاصدقاء الذين اطلعوا على هذا الكتاب، صديقنا الشاعر (عبد الخالق محمود)..

بعد فترة أسرّني عبد الخالق، وكنا ليلاً، في حديقة اتحاد الادباء - البصرة - انه كتب قصيدة رثاء في ذكرى مصطفى عبد الله وانه لايستطيع نشر القصيدة، وهي مهداة الى (مصطفى) داخل العراق، كما لايمكن نشر القصيدة، خارج العراق وهي باسم (عبد الخالق) ضحكنا بمرارة، من هذه المفارقة، ثم قرأ القصيدة، ولاحظت سواتر الخوف، المطبقة عليه، مع انه استبدل الاجنبي، بالغريب الجميل، ثم علق انه يأمل نشرها في الوقت المناسب، والمكان المناسب. كذلك مرة وصلتني مجلة (الثقافة الجديدة) ومعها ديوان شعر صغير للصديق الشاعر عواد ناصر، الان لا اذكر محتويات العدد، ولكنني اذكر الافتتاحية، وكانت بقلم الرفيق (عبد الرزاق الصافي) رئيس التحرير آنذاك، واذكر عبارته "ان العثور على هذه المجلة لدى احد أبناء شعبنا داخل الوطن كاف لأن يقوده الى غرفة الاعدام"، ومع ذلك تسرب العدد، الى عدد محدود جداً من الأصدقاء.. كان من بينهم (عبد الخالق) وبعد ان اعاد العدد المذكور وجدت بداخله قصيدته، عن (مصطفى)، عرفت ما الذي يفكر به (عبد الخالق) واحتفظت بالقصيدة لديّ.

بدأت صحة عبد الخالق بالتدهور.. داهمه مرض (الكبد) اللعين، بذل الاطباء جهداً، لمساعدته، دون جدوى، قال له الطبيب:

- لم يبق من كبدك شيء.. الا انني اثق، انك لو التزمت، بما اقوله لك، سوف يعود كبدك أو جزء منه، على الاقل الى سابق عهده..

سأله عبد الخالق:

- كم سأعيش، بما تبقى لي من كبدي؟

أجاب الطبيب:

- ربما سنة أو اكثر قليلاً..

رد عليه عبد الخالق، بصفاء عجيب مملوء بالدهشة:

- سنة؟.. انها كثيرة جدا يادكتور..؟

أصر (عبد الخالق) على السير، بإرادته نحو الحافة الاخيرة للحياة، سافر، ثم عاد سريعا، واخيرا تمكن منه المرض تماما..

غاب التماع عينيه.. تهدم بناء قامته.. ازدادت الرعشة في يديه، تناوب المرض، و الحصار في الاكل من جرفه، شيئاً فشيئاً، الا انه بقي، على ولعه بالنكتة، كان رواي طرائف من طراز فريد.. لا بل كان صانع طرائف.. ثم نقل الى (المستشفى التعليمي) وهناك رحل.. ثم ثوي في مقبرة (الحسن البصري) بالزبير.

الان وبعد، انكفاء، نظام البعثيين القتلة، عادت (الثقافة الجديدة) تسير في شوارع البصرة.. ارى ان المكان المناسب قد توفر لنشر القصيدة.. في ذكرى المرثي الغالي (مصطفى عبد الله)، والراثي الراحل (عبد الخالق محمود) الشاعر الذي ولد عام ١٩٤٨ في البصرة وتوفي فيها قبل عامين مخلفاً ديوان شعر مطبوع بعنوان (مراثي الشمس) وبضعة دواوين مخطوطة.

قصيدة الى الغريب

في ذكرى: مصطفى عبد الله

عبد الخالق محمود

قبل عشرين عاماً عرفتك،
كنت فتىً أخضر الشاربين.
قبل عشرين عاماً عرفتك،
كانت نجوم المساء
فوقنا، غابة من ضياءْ
وسماءُ الجنوب الخفيضة نلمسها باليدين
قبل عشرين عاماً عرفتك،
أذكر:
ان السماء
هبطت وردة تستظلّ بنا،
وردة تحت قمصائنا نستظل بها،
وبها مابنا:
عطش وارتواء.
قبل عشرين عاماً،
بدأنا الطريق الذي ضمّنا،
ومن المهد، قُلنا، الى اللحّدِ:

نبقى، معاً، سائرين

* * *

بعد عشرين عاماً،
أنا، الآن، وحدي،
أنت وصلت الى آخر الدرب،
بَينما بقيت انا في العراء
ضائعاً..
المدى ظلمةٌ وعويلْ
فالمدينةُ، حولي، مفجوعةٌ بفتاها القتيل
والفتى عائدٌ كالحسين
فوق مهرتهِ،
ظامىء الشفتين
دون رأس،
يُسائل عن وردة إسمها كربلاء
أهذا الحبيب
بعد عشرين عاماً تجيء..؟
لقد شاب رأس الفتى،
والليالي تكرّ،
الليالي التي لاتفرُّ،
ولم يبق في العمر الا القليل
وسماء الجنوب البعيدة مطفأة،
وانا سائر، وفؤادي الدليل
أيهذا الغريب
ألنا العائدُ، اليوم، أم أنت،
أم أننا، قبل عشرين عاماً قُتلنا،
وصيرنا حبنا شهداء؟
أيهذا "الغريب الجميل"
كيف داهمنا الموت
والحب، لما يزل، دورةً في الدماء؟؟

البصرة: ١٩٩٢/٦/١٧

إرحلوا عن وطني

شعر: يحيى السماوي

هذه الأرضُ التي نعشقُ
لا تُنبِتُ وردَ الياسمينْ
للغزاةِ الطامعينْ
والفراتُ الفحلُ
لا ينجبُ زيتوناً وتفّاحاً وتينْ
في ظلال المارقين
فأرحلوا عن وطني المذبوحِ شعباً..
وينابيع .. وطينْ
فاتركونا بسلامٍ آمنينْ
نحنُ لانستبدل الخنزير بالذئبِ
ولا الطاعون بالسل
وموتاً بالجذام
فأرحلوا عن وطني..
هذه الخوذةُ
لايمكن أن تصبح عشّاً للحمامْ
فارحلوا عن وطني..
والدمُ المسفوحُ
لن يصبحَ أزهارَ خُزامْ
فأرحلوا عن وطني..
والبساتين التي غادرها النبعُ
وما مرّ عليها – منذ جيلين – الغمامْ
تصرخ الآن: ارحلوا عن وطني
وارفعوا – قبل العقوباتِ – أياديكم
عن الشعب المُضام
حرروونا منكم الآنْ
ومن زيفِ الشعاراتِ..
وتُجّارِ حروب..النفط والشفط..
وأصحاب حوانيت النضالْ
سارقي أرغفة الشعب
أدلاء جيوش الاحتلالْ
فارحلوا عن وطني..
واشربوا نخب انتصارِ القائد السجّان
في الحرب على الشعب السجين
نحن مهزومون من قبل ابتداء
الحربِ:
نخلٌ يشحذ التمرَ
حقولٌ تشحذُ القمحَ..
وطينْ
سال منهُ الدمُ من بوّابةِ القصر
الى محراب ربّ العالمين
فارحلوا عن وطني..
وامنحونا فرصةَ الدفن لموتانا
وان نخرج من تحت الركام
جُثثاً مابلغتْ عمر الفطامْ
فارحلوا
من قبل ان ينتفض النخل العراقيُّ
ويستلّ سيوف الانتقامْ

الزاويـــة الاخــرى

وفاء عبد الرزاق

خُذ ما أخاف أن أضيع بهِ
خذهُ لسكنةٍ تعتريك
لينتهي الأبيض واقفا
ونسافر
أنا المتعطشة لتوبتك
كي اعيدك
أخطّ كونا مرعبا
أيها الزاوية الأخرى من الخوف
أستعدّ لظلام الرب
وفي وجنة الخطيئة أدخلُ
بأمركَ آدخلُ لأزرق آلهتك
عليك ان تكون الندى
لانكسار الورد
وجحيم ورقة في انتماء الغصن
أن تغلق القيامة
وتفتح باباً توهمني
وكوّنني الثانية
كوّنيّ الاولى
قوّسْ فسحة لستُ فيها
فأنا لشدةِ ما أخافني التكوين
كوّنتك
وكنتَ المحرمَ الذي أعتصمُ به
إحلب ترابي واقتدرْ
ليحرس آخرنا الأولُ
وأولنا المنسي بفاتحةٍ وحشية

كن ذنبي
لأطوفَ غرقانة بالأمل السري
فكيف تحبُ من أنتَ به
وتُلغي انتزاغ نبيٍّ من قبلة القلب؟
كن ذنبي
ربما لحظة .. لا أدري
بأني المولودة فيك
فيأتي الليل نصف خجول
كي أنام على نجمة الدمع..
كن ذنبي
مالهذا المذهب فيك
لاتتكسر فيه الربّات
وتأخذ شكلي!

النهر ٣١/٣/٦٥

شعر: د.حسن البياتي

رغم انحسار النور عن عيني أراكْ
نوراً يبدد كل أوهام الظلامْ
ماكنت يوماً محض رقم في مداكْ
بل نهر عشق يرتوي من نبعه كل الأنامْ
إلا حثالات الأنام
ياأيها النهر العراقي الاصيلْ
طوقت جيد وجودنا لما ابيتْ
إلا زيارة كل مزرعة ومصنعة وبيتْ
يرنو لمقدمك الجميلْ
ياأيها النهر العراقي الأصيل
كم حاول الأعداء-لكنْ ما آستطاعوا
تعكير منهلك الفراتي النقاءْ
كم حاولوا
أن يقتلوا
تيارك المتدفق المعطاء-لكن ماآستطاعوا
ركبوا رؤوسهمو،خزل بها الخواء،
شربوا مياه البحر، فآنتفخوا وقاء وا،
مضغوا رمال البيد ماشاءت وشاءوا
رفسوا-غباءً-كل أعمدة الضياءْ
رجموا قناديل الفضاءْ،
صفعوا جبين الشمس
فآهترت أكفهمو-وما آنزاح الشعاع،
لعنوا نجوم الليل والقمر المضاء،
سحبوا خيوط الفجر-لكن ماآستطاعوا فتسلقوا، متقافزين
-فعل القرود-على طواحين الهواءْ
دارت بهم دوراتها،
دارت بهم.. حتى هووا متناثرينْ
في جوف جب لا قرار له
سوى قاع الجحيمْ
وبقيت، ياكنزي العظيم،
نهراً
يعانق نبعه الأبدي
آلاف الينابيع المضيئة

صنعاء ١٩٩٩/٣/٣١

ذلك المواطن

مهدي محمد علي



سَموّه قديماً زيد الخيلْ
وسمّاهُ رسولُ اللهِ بزيد الخير
لكني عايشتُ الزّيْرَ المقصود لديّ
في القرن الحادي والعشرينْ
باسم يومي هو (زيد صباح ياسمين)!
عايشتُ الزّيْدَ فتىً بالمعنى الأموي
كتوماً لايستغلق
يألفُ عتمتهُ إذ هو نورٌ في ذاتهِ
يجعلُ أغنية في المذياعِ الالكتروني
لكي تغنيه عن الدندنة
بلا سبب
في المكتب!
يجعل في (الثلاجة) خبزاً
جبناً
وخياراً – ماءً
والماءْ
وهو يجوعُ ولاندري!
يسهرُ حتى الفجر ولاندري!
ويفيقُ الفجر..
يباشر اعمالاً من هذا الفجر
الى الفجر الاتي
دون كلالٍ
مثل فتى أموي
لاحقّ له في (ليلى)
أو (لبنى)
فيظل كتوماً، لكنْ لايستغلقُ
يألف عتمته
في عتمة أغنيةٍ في المذياع الالكتروني
لكي تغنيه عن الدندنة بلا سببٍ
في المكتبْ
ليظل الى أبدٍ زيد الخيل
وزيد الخير!

بصرة حلب
2003/10/6

قصة قصيرة

البحث عن الضفاف

عبد الحسين العامر

برتابة متواصلة، بدأ المطر في الخارج ناقرا بحبباته على زجاج النافذة منذ بواكير هذا الصباح، مثيرا بداخلها هدوءا قلقا.

وقبالتها في الغرفة كانت ألسنة صغيرة من النار الزرقاء تتراءى لها من خلال زجاجة دائرية أسفل اسطوانة رصاصية اللون توسطت المكان غامرة إيّاه بالدفء.

في حين هي مستغرقة باستلقائها على السرير تنظر بتأمل للتشكيلات التي ترسمها قطرات المطر على الزجاج، والتي كانت تبدو لها، أو هكذا أوحت لها:

أعلاما تحملها سواعد تلاحمت أجسادها على جياد غائرة باتجاه صحراء مفتوحة، وهي تدوس بحوافرها طحالب ونباتات صغيرة مخربة بعض الفتحات لحيوانات برية - نافذتها الوحيدة - لمعرفة قدوم مساءات هذا الفضاء الشاسع موعد نزهتها الليلية.

تفرّست جيداً:

في الاعلام، وفي الوجوه المتشابهة كلحاء الاشجار، العيون، الاذرع المرفوعة، عيون الجياد المفتوحة نحو البعيد، رغم كثافة الغبار.

كانت تحس بخصلات شعرها تتحرك بفعل رفيف الاعلام، ورائحة الغبار المتطاير الممزوجة برائحة الاجسام المزدحمة.

تراءت لها عوالم كثيرة:

أصوات حادة، أجسام تتدافع، صهيل جياد تكبو، واخرى تنهض، أذرع متشابكة، ضجيج كفيل أن يبقى صداه مترددا لسنين طويلة في هذا الفضاء الواسع.. وتاهت في لهثات الخيول وكأن الارض تمتد الى مالانهاية تحت أرجلها، فتفصدت بلورات من العرق الناعم سائحة على وجهها كحبات المطر على الزجاج!

التفتت الى جانب وسادتها:

كان طيفاً هائماً في صباحات لم تشرق بعد!

نهضت وصوت ذلك الطيف يتردد بداخلها:

- "انتظريني مساء هذا اليوم"..

توشح وجهها فرحاً وهي تتجه نحو نافذة الغرفة

نظرت للشارع، كان المطر متواصلاً التفتت الى مرآة بقربها.. كانت خصلة شعر متدلية..

في أكثر الاحيان، كان هو يعدّل ترتيبها بين مجموعة الخصل على حافة وجهها، وتنهدت:

- لا أعتقد انك تنسى هذا، ولا انا أيضا، فليس لدينا مايشغل البال سوى أن نلتقي، عندها سيكون أي مساء جميل هذا.. آه لو أنت معي!

ابتسمت، عندما نظرت نحو مزراب البيت المقابل ،الذي كان يتدلى منه خيط من ماء المطر تألق في عينيها الفرح ثانية، عندما داهمها احساس بأنها ستراه قادما فعلا

وراحت تجر ساعات النهار، منتظرة دنو المساء -كم هي ثقيلة وبطيئة، تلك الساعات؟

قالت هذا وهي تداري ذلك التألق بارتباك.

وتكاثف النقر ... نقر حبات المطر على زجاج النافذة.

أثارت انتباهها حركة خفيفة خلف باب الغرفة، وبدا يندفع ببطء

تسمرت في مكانها.

اتسعت حدقتا عينيها محتوية كل ما خلف الباب من وجود!

وردد ذات الصوت:

-سأكون عندك.. فلا تقلقي

– ومن يستطيع أن يُمسك بخيط القلق ياترى، وكيف ينسج منه مساحة ولو صغيرة من الطمأنينة؟

اتسعت شقة الباب قليلاً.

شعرت بتصاعد انفاسها المتلاحقة

اندفع الباب أكثر

كادت أن تشهق!

فدخلت قطة بيضاء، تنفض ماعلق بأرجلها من ماء المطر متجهة نحو مصدر الدفء وسط الغرفة!

لم تحتمل الدوار الذي انتابها، وتنفست بصعوبة، بعد أن كادت تترنح كبندول الساعة الجدارية المعلقة قبالتها.

اقتربت من القطة المتكورة، ومسحت جوانب بطنها المنتفخة عن رذاذ الماء الذي بلل شعرها، وهي تنظر من خلال الباب المفتوح لفناء البيت الذي بدأ يمتلىء بماء المطر والفقاعات شيئاً فشيئاً.

فقاعات هنا تتحرك ببطء واخرى هناك تتجه نحو فتحة تصريف الماء وسط باحة الحوش، بعضها ينفجر منتصف المسافة وبعضها يواصل انحداره فتبتلعها سريعاً على التعاقب.

تكاثرت الفقاعات، لم تبق أية مساحة صغيرة من باحة الحوش الا وامتلأت بالفقاعات البلورية الناصعة البياض وهي تتدافع مع بعضها متزاحمة في انحدارها نحو البالوعة. وعلى سطوحها اللينة يسيح الرذاذ الناعم المتطاير في الهواء كما تسيح قطرات الماء على زجاج النافذة امامها، وكما ساحت أيضاً حبات العرق على صفحة وجهها وهي في لهاثها وراء الخيول!.

وعلى امتداد حوافه باحة الحوش يمتد شريط من الرغو، أشبه بتجمعات الرغو على سواحل البحار والخلجان والبحيرات بفعل حركة الامواج التي تدفعها الرياح.

لحظتها اندهشت، عندما رأت فقاعة كبيرة شفافة بيضاء كالقبة وسط تلك القباب الصغيرة.

تخيّلت نفسها متقرفصة داخلها!

فسمعت لقطرة الماء التي تسقط بالقرب من حافة قبتها الكبيرة صوتاً هائلاً يُضاف الى اصوات الفقاعات المنفجرة، وكيف تصعد هذه على الفقاعة الاصغر منها، وكيف تحتمي تلك بأخرى خوف التبلل من المطر، أو خوف الوصول الى فتحة الابتلاع، فتظل تدور حول الفوهة منتظرة دورها، وكم انتهت فقاعات ارتجافا من المطر!

كان لانحدار الماء من اطراف باحة الحوش وتسربه السريع في الفتحة، على شكل سورة سريعة الدوران، ساحبة معها بعنف عشرات الفقاعات، مئات الفقاعات، صوتاً أقرب للدوي، ومن خلاله تسمع أنين الفقاعات وهي في فم البالوعة، كلوعة وأنين العصافير في فم الأفعى!.

وأحيانا يكون ذلك الصوت، أقرب الى الصفير، بفعل الهواء المحصور بين عنق البالوعة

وجوفها، يشبه صفير الرياح في الغابات، أو البنايات المهجورة آخر الليل!.

شعرت بهاجس أقرب الى الخوف يغلف روحها، وهي تنظر لتكاثر الفقاعات البيض تملأ باحة البيت، كالطيور البيض التي تملأ الفضاءات الواسعة في مواسم الهجرة، وهي في رحلتها نحو المدن البعيدة على سواحل الخليج، أو الى مدن اخرى عبر البحار، فتخرج النسوة في قرى الجنوب وفي عيونهن الاسى لهذا الحشد من الطيور المرتحلة مسرعات الى ايقاد أحجار البخور، ليتصاعد خيوطاً ويعلق بأجنحتها لتستدل به المكان أثناء العودة!

تماما مثلما يفعلن لأولادهن، قبل الرحيل الى الجندية، عندما يوقدن أعواد واحجار البخور في المجامر، ويذرن فوقها الملح وبذور نباتات الحرمل، ومن ثم يوسعن من اطراف ثياب الاولاد اثناء قفزهم على تلك المجامر، ليتسرب من خلالها عبق الدخان بين فرقعة بلورات الملح، فتسري الفرحة على وجوه الامهات مطمئنة بعودة الاولاد من الجندية برداً وسلاماً!..

استدراك:

من خلال تقرير اخباري سمعت:

ان ٩٠ مليون من الفراشات الملكية العجيبة الالوان، لاقت حتفها في غابات المكسيك، بعد ان قطعت رحلة امتدت الاف الكيلومترات عبر المحيط من استراليا، إثر موجة برد مفاجئة وامطار غزيرة.."

وتساءلت بما يشبه النزيف:

أبهذه السهولة يُغتال الجمال، ويتكدس تلالا من الالوان المبهجة تحت الاشجار وقرب منابع المياه!؟

وأية مقبرة جماعية، تستطيع ان تخفي جريمة اغتيال الملايين..ملايين من جثث الفراشات؟.

-2-

مع دنو المساء، خرجت باتجاه محطة القطار، والمطر ما أنفك يهطل بغزارة، تدفعه الرياح بقوة، معرقلاً سير المركبات في الشوارع والمارة على الارصفة، وهم يتراكضون خلف بعضهم قرب حافات البنايات، وتحت الاشجار، عبثاً متحاشين ذلك الرشق.

فتذكرت كيف كانت تحتمي من المطر بجدران البيوت عبر الازقة في الصباحات المبكرة، وهي في طريقها مع صاحباتها بقمصانهن البيض مسرعات نحو المدرسة وهن يكركرن بتعليقات مرحة، كسرب من بجعات – تشكايكوسكي – في طريقها نحو البحيرة!.

ورددت من حواراته معها:

– "عندما نلتقي، سأحدثك في الطريق، وأنت تحت معطفي، عن حكايات كثيرة.."

عندما دخلت من البوابة الرئيسية، كانت ثيابها مبللة تماماً بماء المطر.

فأندسّت بين ضجيج حركة المسافرين المتوزعين طوابير أمام شبـاك التذاكر، وفي صالات الانتظار، الواقفين حلقات في الممرات، وفي غرف الموظفين، عمال المحطة المشغولون بتهيئة عرباتهم الصغيرة لنقل الحقائب والصناديق المرزومة، عمال آخرون يحملون فوانيس الاشارات للقطارات المسافرة، للقطارات القادمة.

وسط كل هذا يواصل مذياع المحطة بث الاغنيات الهادئة أو ذات الايقاعات الراقصة، لتبدد في دواخل المسافر الاجواء الموحشة والشعور بالغربة والقلق..القلق موزع بين الرحيل وعشق المكان والوجوه، والضجيج الهائل في الدواخل، في الحقائب، في الثياب، تحت الثياب، تحت الجلد، تحاول ان تمتصه الاحاديث الجانبية والعيون المنشغلة بالترقب والهدوء والقلق، كهدوء

العربات المرمية على الجانب البعيد من رصيف بعض المحطات التي تمر بها القطارات سريعاً عبر المدن والبراري..

كيف تنظر تلك العربات المرمية، الفارغة من المقاعد، الفارغة من الرفوف والحقائب، وضوء المصابيح، والمواسير التي تشكو العطش وسط تلك البراري، فأصبحت عالماً معتماً، بعد ان كانت ضاجة بالحياة والحركة، متحولة الى توابيت..توابيت حديدية، يمر بها مفتشو المحطات ليسحبوا منها تاشيرة الصلاحية للخدمة والسفر!

كيف تنظر تلك العربات المرمية، للعربات التي تخطف أمامها والممتلئة مقاعدها بالمسافرين، ورفوفها بالحقائب، ونوافذها بضوء المصابيح.. ياترى؟

..أعلن مذياع المحطة:

بعد قليل سيصل قطار الرحلة رقم ٢ مرحّبا بالجميع.

أحسّت أنها معنية هي أيضا بهذا النداء، وكأنه هو الذي يعلن بداخلها:

"انتظريني مساء هذا اليوم"

ارتبكت عيناها باتجاه قدوم القطار.

عادت الأغنيات، وواصلت دواخلها الاحتفال المربك.. بالانتظار.

ازداد ضجيج المحطة بالمسافرين والمستقبلين، وحركة الحقائب، واصوات الصبية الذين يحملون بأيديهم الصحف والمجلات القديمة، باعة السكائر، السندويتش، المتسولون، الجنود،مراقبو التفتيش، عمال عربات المحطة، العمال الذين يحملون فوانيس الاشارات المضاءة.

هي لاتعرف بماذا أحسّت!

تداخل عندها الزمن، زمن هذا المساء، بزمن مساءات العمر الذي مر، مجمعة في داخلها كل عذابات الانتظار!

وصل بعرباته التي هدّها التعب كما يبدو، تعب المسافات.. والماء يقطر من جوانبها، تماماً كالخيول التي خرجت تواً من شواطىء البحر بعد ان تعبت من السباحة.

تاهت بين الضجيج، لم تعرف أين تستقر عيناها، وهي تحث الخطى بين الناس، والحقائب، وحزم الافرشة، والطيور الملونة المرتبكة في الاقفاص.

ركضت بأتجاه معاكس لسير العربات، تلصق عينيها في الوجوه المطلة والايادي التي تؤشر من خلال زجاج النوافذ والاجساد المزدحمة في أبواب العربات المفتوحة.

– حتماً سأرى وجهه يملأ كل النوافذ على سعتها.

مرّت العربة الاولى..الثانية، وكأنهما خاليتان تماماً رغم حشد الوجوه على النوافذ!

العربة الرابعة..السادسة..العاشرة.

نسيَتْ البرد وثيابها الرطبة عندما ازداد قلقها وهي تركض نحو أبواب العربات، مثلما كانت وراء الخيول!.

توقف القطار، نظرت بلا عناء الى حشد الوجوه النازلة.. فقد كان واضح الملامح.

خف الزحام قليلاً، شعرت بقلق، عادت راكضة مرة اخرى نحو العربات، الاولى..الثالثة..الخامسة.

بدأت تلصق عينيها القلقتين بعنف هذه المرة بما تبقى من الوجوه في المحطة، بعد ان كادت تفرغ العربات.

عن بُعد رأت آخر من نزل، كان يحمل حقيبة صغيرة ومعطفاً على ساعد يده الاخرى.

– "انتظريني، وعندما نلتقي وأنت تحت معطفي، سأحدثك عن حكايات كثيرة..".

ابتسمت، تطايرت نتفاً من البهجة ملأت أجواء المحطة.

ابتسم هو الآخر عن بُعد!.

أسرعت باتجاهه.. نحو العربة الإخيرة.. هذه ماتبقى لها.

– واصطخب في دنيا روحها الفرح، كاصطخاب نقر حبات المطر على زجاج النوافذ.

– كم أتبعني انتظارك.

الا ان فرحها بدأ يتضاءل كلما اقتربت منه!

طمأنت نفسها:

– ربما لمتاعب السفر، وقلق الأيام، ذبلت بعض ملامحه.

وعندما اقترب أكثر.. لم يكن هو الذي تنتظر!.

كان جندياً متعب الوجه، نظر لها بخيبة، لأنها لم تكن هي الوجه الذي تمنّاه بداخله هو الآخر.. ومضى!!

شعرت بوحشة المحطة الفارغة، وبرودة ملابسها الرطبة..هي لم تتذكر انها شعرت بالدفء يوماً!

حدثت جارتها ذات مساء:

– هل تعرفين بماذا يحس الانسان عندما يشعر انه يعيش وحيداً؟

وهل تعرفين بماذا يحس وهو مثقل بالعذابات وحده، حاملاً رجليه بلا مودعين، ما عدا ظله الذابل؟!

أنا الآن كالساعة الجدارية القديمة التي يعلو صندوقها وزجاجها الغبار، تلك الساعة التي يتحرك على مينائها بارتجاف، سهم واحد، فضاعت منه كل المواقع..مواقع الضفاف والزمن!.

وساد الصمت بينهما، كصمت القرى الجنوبية آخر الليل.

حملت ثقل الانتظار الطويل بخطوات بطيئة، وهي تهم بالخروج من المحطة بين تكاثف الليل، وصوت الاغنيات المبتعد، وانشغال المطر برتابة هطوله.

توقفت عند البوابة الخارجية.

التفتت الى الوراء.

لا أحد.

كما في كل مرّة.. لا أحد.

سوى عامل التنظيف، وآخر يحمل فانوس الاشارات المنطفيء، يتحرك بينهما وهو منحن بتعب آخر من تبقى من المتسولين يلملم أعقاب السكائر أمام جريدة قديمة متدلية من أحد مقاعد الانتظار الفارغة:

– هؤلاء في كل مرة.

أبو الخصيب
كانون الثاني ٢٠٠٣

القرابين

الأهداء

الى استاذي الفاضل: عبد المالك.. المحترم.

معلمي في الصف الأول الأبتدائي للعام الدراسي ١٩٦٦-١٩٦٧

الذي مات ولم يبقى ما يذكرني به سوى ما تعلمتهُ منه، من لفظ صحيح، واعتدال في الرأي، واستقامة في التصرف وفي السلوك، وبقايا من ركام جدران مدرسة إجميلة القديمة، التي انهارت ودُفنتْ تحت انقاضها أحلامْ صبايْ، وكل اشيائي الجميلة.. وسارية العلم..

أهدي قصتي.. القرابين..مع حبي وتقديري، وبالغ من الحزن والأسى...

خميس صالح الجميلي
2003/7/25

عندما تشتد العواصف، تترع الرحمة، من عفاريت الارض، وملائكة السماء، فتسقط الاخلاق، وتُخنق الأصول، وتنتحر القيم الجيدة، فيصبح الأخ جلاد أخيه والجاسوس عليه..

فتجف بحور الشعر، وتغيب الذاكرة، وتختفي المواهب، ويكون من أصعب الامور كتابة ولو جملة مفيدة..

وهل ترجو ممن يلفظ انفاسه الاخيرة ويحتضر أن يقول كلمات مفهومة وذات معنى؟ فكر معي وفسّر ما تشاء..

حاولتِ جاهداً أن أجمع أفكاري المشتتة تحت وطأة الحرب وعويل البسارجات وانفجارات الصواريخ، ودخان نفطي كثيف يُغطي مساحات كبيرة من سماء المنطقة، ممزوج بلون دموي يثير الحزن، والرعب في النفوس..

ولأول مرة، اكتشفت بأنه مُحال تحقيق المساواة، الا في حالة تعرضنا لغارات جوية، فيأخذ كل منا نصيبه من الخوف والارباك ..والقلق..

نحن نعيش وسط أرض محروقة، وبالقرب من أبار النفط المستهدفة والتي سُخرت وارداتها لأغراض مخلة بالشرف الوطني، والتي لم يكن لنا نصيب منها نحن البؤساء سوى حمايتها لنكون لها قرابين.

آه.. لو كان للشعر شيطان كما يدّعي البعض لكان حضر ومدّ ليَ يد العون والمساعدة الشيطانية وصقل بي الموهبة التي أصرّت على الرحيل منذ زمن بعيد.

قُل شيئاً.. أي شيء.. وإن كان ضبابياً وفيه الكثير من الغموض.. هل تستطيع؟..

أعترف أني غير قادر على فعل أي شيء، ولا أتمكن من كتابة ولو مطلع قصيدة.، بالرغم من محاولات كثيرة، جميعها باءت بالفشل، ولا أنكر بأني أصبحت عاجزاً تماماً عن مجرد التفكير بكيفية ملء الفراغات ووضع الكلمة الصحيحة في مكانها المناسب.

وأقر أنيّ لا أستطيع حل أبسط مشكلة عائلية تواجهني في حياتي اليومية التي مُلِئَتْ قهراً..

وقد أكون في أكثر الأحيان أنا السبب بوقوعها، بل اني في أحيان كثيرة أكون مصدر إزعاج لمن هم حولي كوني لم أوفق في الوصول الى معرفة لغز اللغة التي يمكن أن أتفاهم بها معهم،

كوني مصابا بخيبة أمل..

قد تكون تلك الغرفة الطينية التي تغفو على ضفاف نهر دجلة والتي شُيدتْ بطريقة بدائية وبدون اعتناء، والتي تشبه في تكوينها وبطريقة بناءها، بخراج مليء قيما تكاد تنفجر على من فيها، والعزلة، التي فرضتها الممنوعات هما السبب في تكوين تلك العقد المستوطنة والمسيطرة تماما على أفكاري، مما أدى بي الى ان أكون شخصاً غير مرغوب فيه، وليس مالوفاً من قِبَلْ الآخرين...

وقد أكون مرفوضاً حتى من قِبَلْ تلك الغرفة التي ثبت بما لا يقبل الشك انها لاتصلح للأستخدام البشري لكثرة مافيها من عناكب سامة، وصراصر مزعجة في الصوت والصورة، وقوارض تمارس نشاطها سرا وعلانية، وعقارب تقضي على الضحايا بطريقة الخطف، وزواحف تتسلل الى أهدافها بغفلة لتحقق نواياها الخبيثة، والتي كُتِبَ عليّ رغم أنفي أن أولد، وأعيش، وأموت، وأبعثُ منها..

خطٌ ضبابي تكاد الرؤيا تنعدم فيه، ممتد صوب الشرق أو هكذا توهمت، بأتجاه نهر دجلة لاتستطيع أن تفرز ماهو بداخل أو خارج ذلك الخط، مهما دققت النظر أو بذلت من جهود..فإذا كنت تريد الوصول الى الشاطيء فعليك أن تسير وفق ذلك الخط، وأعلم أن الاسماك تكون قريبة منه في مثل هكذا أنواء جوية مضطربة وغير مستقرة..وذئب الجوع ينهش أحشاءك الخاوية والتي لم تهضم سوى المبادىء والشعارات منذ فترة طويلة..

وإن فكرت بتغيير الاتجاه ولو قليلا ستزل قدمك وتسقط غريقاً وإن حاولت العوم بهدف النجاة فإنك ستكون من نصيب تلك الفكوك السمكية المفترسة..، والتي تنتظر بشوق على من حاولوا الابتعاد عن الطرق الضبابية، ولم يألفوا السير فيها وضمن مداها..فإنها سوف تخليك مرغماً من القهر بأتجاه (حويجة علي السنو) المطوقة بمياه النهر من أربع جهات والتي يسميها علم الجغرافيا بالجزيرة المائية، والتي كأنها وجدت أصلاً لتكون وطناً لتلك الحيوانات المتوحشة، وأنت فيها..لاحول لك ولاقوة..

أنت فيها بين الهزيمة والانكسار، والاحباط والفشل، أنت فيها عبارة عن كتلة هموم، ومجموعة شكوك، بين الخوف من معلوم معلن مبطن، ومجهول مخف مغلف...

سر بحذر وتعامل مع من فيها بحلم وتأن، وان كنت على يقين من انك مهما حاولت لن تفلح في مسعاك..

وإذا سمعت أصوات انفجارات ألق بنفسك في أقرب مخبأ صنعته مخالب كلب سائب علك تنجو من موت محقق، أو إصابة بليغة على اقل تقدير.

وأعلم انك إن نجوت منها اليوم ستنال منك لاحقاً لامحالة..فالمعركة مستمرة، وكلما توقعنا انها هدأت قالوا ستبدأ من جديد..ويبدو لي انها لن تنتهي..كيف تنجو وأنت تسير وسط ضباب كثيف ومحاصر بهدير طائرات مزعج ومخيف، يمزق السماء وانفجارات تحرق الأرض، وقنابل عنقودية تقتل من فيها وماعليها، وصواريخ تأتي من عدة جهات، معلومة وغير معلومة، ودون سابق انذار ولأسباب غير مفهومة، وأنت أعزل ومجرد من أي شيء، لاتملك سوى ماتعلمته من الاستاذ "عبد المالك" رحمه الله، معلم الصف الاول الابتدائي، وبقية انفاس متقطعة ومخنوقة وغير منتظمة قد تخسرها هي الاخرى في أية لحظة وبدون تبرير، كون الرئة التي تتنفس من خلالها أصبحت عاطلة عن أداء أبسط واجباتها.

ولن يبكي عليك أحد،.. ولن تنعيك حتى جدران غرفتك الطينية النتنة والتي ستبقى ملاذاً آمناً

لرمي غائط المارة من بعدك.

فإن كانت نهايتك كذلك فلا تحزن عليها و لا تاسف، نحن نسير على خُطاك وبنفس الاتجاه، شئنا أم أبينا، لافرق، نهايتنا آتية عن قريب وسوف نرحل و لاندري لماذا..

سنموت بنفس الاسلوب إن لم يكن موتنا أشد قسوة، على العموم، موتنا واحد وإن اختلفت طرق الوصول اليه، و همنا واحد وإن اختلفنا في الاديان و المذاهب و القوميات، يجمعنا الشقاء سيد الهلاكات، محكوم علينا بالموت الجماعي المؤجل، ليتهم يستعجلون، فحياتنا ويل و ألم، ليتنا نمضي سريعاً و نخلص، بئسَ الأمنية والطموح..

تلك كانت هواجس: يوسف علاوي وعالمه المليْ بالاخفاقات، محاط ومحاصر، بعالم مشوّش..ينوء بالازدواجية و التناقضات و أنت فيه، بين مطرقة التكنولوجيا..وسندان التخلف..مطالب بأزدواجية الشخصية، فأنك إن لم تكن مصاباً بها فعلا، فأنت تعاني منها وتعيش حالة مرضية مزمنة استفحلت ونالت من الجميع خارج الارادة.

وبقرار تعسفي، و اجراءات كيدية، لايمكن إنكارها، أو التخلص منها، فاننا إن لم نكن مصابين فيها فنحن مضطرون على التظاهر بها لكي نعيش ولو على الهامش مرغمين، وأعلم..، إنك لو تمكنت من ولوج هذا العالم الذي نسميه نشازاً ستكون مالوفا إن لم أقل من قبل الجميع فأنك سوف تحضى بأحترام الأغلبية..وأعلم..أنك إن بقيت بعزلتك فإن البحث جاد ومستمر على أمثالك أينما وجدوا من أجل القضاء عليهم، أو وضعهم في الحجر الصحي، وتحت المراقبة المشددة، خشية إلحاق أذى بآخرين..

فالعزلة..مجرد العزلة..كافية لإثارة الشكوك حولك ووضعك في قائمة المحذور منهم، وهي دليل على اتهامك بفقدان التوازن و الصواب و أثبات عدم سلامتك الفكرية..

وأعلم..ان طرق التعليم قد اختلفت عما كانت عليه منذ رحيل معلمنا، عبد المالك: ففي القراءةالخلدونية..كان في.."زنبيل نبيل فول" في أحد دروسها بهدف اتقان لفظ وكتابة صرف اللام من خلال تكراره في مواقع مختلفة من المفردات، هكذا كان يقول لنا استاذنا عبد المالك..، ذلك الرجل الذي علمنا أبجديات القراءة و الكتابة بجهد وعناء والذي كان يهتم بدراسة الاخلاقية، أكثر بكثير من اهتمامه بدرسي القراءة الخلدونية والحساب، كان يركز ..رحمه الله .. على الاخلاق ومشتقاتها التي قضت نحبها أو تكاد.. وأصبحنا نعيش زمن اللاتربية و اللاتعليم..

رحم الله، عبد المالك،..الذي مات ولم يبق مايذكرني به سوى ماتعلمته منه من لفظ صحيح، واعتدال في الرأي، واستقامة في التصرف وفي السلوك، وبقايا من ركام مدرسة أ جميلة القديمة التي انهارت ودُفِنَتْ تحت أنقاضها، أحلامُ صِبايْ، وكل أشيائي الجميلة، وسارية العلم..

ولكن هل يمكن لقوة قاهرة أن تمحو ذكريات الطفولة، وأحلام الصبا..؟؟

وإن كانت قد مُلِئَتْ زنبيلُ نبيل رماناً في القراءة الحديثة بدلاً من الفول..، كانوا يقولون: لابد من التغيير..فقد مر بنا زمن لايجيز بقاء الحال على ماهو عليه، خاصة بعد مرور فترة طويلة على إعداد معلمين جُدد ومناهج حديثة.

والا لماذا أصبح في الزنبيل رماناً عوضاً عن الفول؟

أليست من أجل النهوض بجيل جديد لايعاني من سوء التغذية ولو على سبيل الوهم، والخيال، يتقن التصفيق ولعبة كرة القدم والضغط على الزناد؟؟؟..

وليذهب الى الجحيم صرف اللام، والفول، وعبد المالك معاً.. هكذا كانوا هم يقولون.. انها المنجزات اللقيطة والمكاسب الوهمية والتي كان الغرض منها الضحك على الذقون وتجميد

العقول..

تلك كانت هموم .. يوسف علاوي.. التي افرزتها مكابدات عمرها أكثر من ثلاثين عاما..

ودع: يوسف علاوي..وطنه الصغير "قرية أجميلة" مضطرا الى حيث هناك، ترافقه غربته التي أدمن عليها، وهم كبير مادا خطاه بأقصى مايمكن، مطلقا للريح عنان ساقيه عله يصل الى مبتغاه بأقصر وقت ممكن، وكان كلما ظن انه أقترب من مقصده اضطرته التواءات المسار لأن يكون أكثر قربا من حافة النهر وزادته بُعدا عن الغاية، فذلك المسار الضبابي الذي رسمته حوافر الحيوانات لم يكن يألف السير فيه ولايحسن التعامل معه كما يجب، فكلما هم نفسه وحث خُطاه غالبه هاجس شك مخيف يوحي انه صار بعيداً عن سيرته والمألوف فيها وان قرار خروجه غير مدروس، ناتج عن تعرضه لضغوطات خارجة عن ارادته، وان المفاجئات، والمنغصات..التي زادت من قلقه لم تكن ضمن حساباته، ولاح في الأفق يقين ينذر بأستحالة الوصول لمعرفة مايدور أو يجري هناك...

وعليه أن يبحث عن أقصر السبل بقصد النهاية بغض النظر عن النتائج، وبينما هو منشغل بالتفكير لايجاد عملية إنقاذ سريع ولو بشكل مؤقت بهدف الخروج من المأزق الذي هو فيه، قرر أن تكون خطاه محسوبة.. تذكر ان عملية العد قد تغيرت هي الاخرى وفق المنهاج المرسوم حديثا والذي شمل الحساب والتحسيبات ولم يتوقف عند حدود درسي القراءة الخلدونية، والاخلاقية..واثناء ترتيبه للأرقام حسب الطريقة التي صارت مالوفة ومعمولا بها، ألقى بأحدى ساقيه وبدلا من ان تستقر على ارض صلبة ليخطو خطوته الثانية لوحت في الهواء واذا به يهوي من حافة النهر الى قاعه، ولم يحاول فعل أي شيء لانقاذ نفسه مستسلماً لقدره الذي قاده الى تلك النهاية التي كانت متوقعة.

اختفى "يوسف علاوي" تماما..ولم تظهر منه سوى فقاعات هوائية طفت على سطح ماء النهر كونتها عمليتي الشهيق والزفير، من أسفل الى أعلى، سرعان ما اختفت هي أيضا، يرافقها خيط أحمر يميل الى البُني قليلاً امتزج بماء نهر دجلة، منسابا وفق مارسم لمجراها، ابتلعته دهاليز دجلة مثلما هو الحال لكثير من قبله وسوف تبتلع المزيد.. ذلك هو "يوسف علاوي" الذي ولد غريبا..وعاش غريبا...ومات غريبا.. ومن يدري قد يُبعث غريب..

قال لي الهدهد: ان يدا ..خفية، وراء مصرع يوسف علاوي وعبثا تحاول اقتفاء اثره، فأنها محاولة ميئوس منها، كون أسماك نهر دجلة ألفت أكل لحوم البشر..

وكان اختفاءه إثر تخطيط محكم، مع سبق الاصرار والترصد خارج ثورة الغضب، مثلما اختفى ذلك الخيط الدموي الذي أفرزته جراحاته، حيث ذاب وتلاشى بماء نهر دجلة الذي أوشك هو كذلك، أن يجف ويختفي ذات يوم فهو مهدد بالانقراض شأنه شأن تاريخ..يوسف علاوي..الذي اضحى ذكريات، مجرد ذكريات..فقد غاب الى الابد، غاب ولن يعود..مثلما غابت ذاكرة الشعراء وأصبحت الكلمة بلا ذوق ولاطعم ولارائحة..

هكذا قال لي الهدهد، وعهدي به صادق ولايكذب، ولا ادري ان كان قد تغير هو الآخر، وأصبح على غفلة مني يعمل لحساب جهات اخرى، فأنا لا أضمن حتى نفسي..وهناك، امبراطوريات انقرضت..ودول عظمى انهارت.. وشعوب لاتُقهر هُزمت!..

الشرقاط/ اجميلة

عبــور البحيــرات

كريم عباس زامل

قبل اسبوع من هذا التاريخ، ابتدأت ادوّن في دفتر قديم وجدته صدفة، بعضاً من مذكراتي التي تبدو ساذجة لي الان، وتمنيت ان امزقها حيث أصبحت تؤرقني، في كل يوم احاول ان احـصر جزءاً من رحلتي التي استمرت لعدة أشهر، هل فعلاً ان هذه الايام التي قضيتها هنا هي حياة حقيقية أم انها نوع من حالات الضياع التي تمنيت أن أحياها في يوم من الأيام؟ هذا هو مفتاح اللغز الذي دمر حياتي وجعلني أخسر مكانتي بين اساتذتي في (كلية الطب، جامعة بغداد)، الوقت أصبح هنا سيامياً أو ربما سائلاً أحس به بين أصابعي لزجاً أحاول أن أتهجّى مقاطع من حروفه، كأنني نفس ذلك الطفل المدلل في الصفوف الاولى، يوم كان المعلم يختارني لأقرأ نشيدي بين الطلاب، وحين كان يأخذني ويرفع يدي في الساحة المزدحمة بالوجوه كنت احس بالنشوة وكأن الارض أصبحت في كفي مثل تفاحة، عرفت هنا من أبي كل شيء، فقرار الحكم أصبح نهائياً، ولابد من اني سأواجه مصيري هل سأحيا لأسبوع آخر؟ فهذا أصبح لغزاً يحيرني يُضاف الى اللغز القديم، فأسمي أصبح الان (طه ياسين جبر) والصحيح هو (سعدون ناجي)، كل المحاولات باءت بالفشل ومصيري سوف يكون فوق "آلة الموت الفرنسية" كلما حاولت أن اتخيل مصيري أصابُ بالهوس الذي يضجرني فأتناسى ولو بقليل من الحيل التي ابتدعتها واقنع نفسي بأني سوف أحيا لعشر سنوات جديدة، الأحلام ابتدأت تُغيّر حياتي، رموز وحيل وصور متكررة من أيام طفولتي وأنا صغير في منطقة "أم الدجاج" ومن أيام العطل الصيفية حيث كنت أذهب مع أهلي إلى القرى الجنوبية، تلك كانت هي جنتي الأولى وأيام شبابي في المدارس التي أتذكرها الآن وكانها جحيم دانتي، والصور الكثيرة المزدحمة في واجهات السينمات، حيث كانت تلوث ذاكرتي فأبدوا معتوها، كنت أحفظ الأغاني الهندية من دون أن أعرف معناها، كل شيء أصبح عندي مجرد وهم، أبي ابتدأ يتملكني حيث لا أرى الا صورة وجهه المكفهرة تطاردني وأنا فاقد الوعي تتلبسني (رؤيا الشر)، قرأت في مقهى (منكاش) قصة (المحاكمة) لفرانز كافكا، وها هي الآن تتمالكني تماماً، أحيا بنفس الشوارع الضيقة التي تسير بها شخصيات القصة، أنا أصبحت البطل، كلما حاولت أن أصل الى نهايتي المزدوجة، وجدت نفسي أرجع مرة أخرى الى خطواتي الأولى، والغموض يغلفني وكأنني ذلك الرجل الضبابي الذي عشته في القصة قبل عشرين سنة، وها هو الآن يصبح "أنا آخر" يتلبسني ويزدوج معي في خطواتي، في الشارع أنزع أحياناً قميصي، لأبدو بقميصه المشجر، وفي نهاية اليوم حيث ينطفيء الضوء في العاشرة ليلاً أبقى متوحداً مع "وجه كافكا"، مرة في محاكمة غامضة، ومرة داخل قلعته الحجرية المبهمة، وفي نهار مشرق تحولت الى جثة كبيرة مملوءة بالقش حيث كان يهمني أن أعرف نهاية لعبة الصمت القذرة التي كنت ألعبها، وفي المشهد الأخير هناك أشخاص غير معروفين وامامهم شخص يدعي انه حاول الهرب الى جهة مجهولة، الملامح تبدو غامضة، كل شيء هنا عكس ما أريد، وفي نهاية القصة يتملكني الرعب، الغراب صاحب الانف المعقوف والفك المتهدل الى الاسفل يطاردني بظله وكأنه الماضي النحس الذي حاولت أن اهرب منه.

وفي الاسبوع الثاني عثرت بين أوراقي على قصة جديدة وجدتها صدفة في جريدة مسائية (قداس الموتى الالمان) "خورخي لويس بورخس" عرفت ان حياتي محصورة بين هذه العقدة ونهايتها، فمنذ طلوع الفجر كنت أمسك هذه القصة كي أقرأها بصمت وبصوت عالٍ أحياناً حيث حفظتها كلها، انه نفس مصيري الذي انتظرته وكأنها قد كُتِبَتْ عنّي وفي المقدمة ثمة مقطع من "العهد القديم"، (بالرغم من انه يقتلني سوف أظل أثق به)، انهارت أعصابي تحت تصاعد ضغط الدم في عروق بطل القصة، وهو ينتظر مصيره الذي أصبح مؤكداً وعبر الكلمات كانت أنفاسي تتصاعد وكان قلبي سوف يتوقف بعد لحظات، وجدت نفسي تحت أقدام كائنات خيالية ومصير محتوم هو نفس مصير (أوتو ديتريتش آل لندة)، كنت أصرخ بين الجدران الخاوية والأشياء ابتدأت تتملكني بذاكرة الحجر وهو يطبق فوق صدري، الأبواب التي أمامي هي مجرد ثقوب داخل ذاكرتي، أصوات خيالية عبر بادية الغجر الجنوبية كنت اسمعها عبر المسافات المتوغلة بالعمق وأنا ادخل قلعة الموت" وكانني بأقصى الشمال الأفريقي، هل إني اواجه الآن الوجه الدائري وهو يتلو قراره الاخير فوق رأسي الذي ابتدأت أفقد السيطرة عليه، كنت أرى "وجه أمي" هنا مندسا بين الوجوه، و "وجه أبي" وكأنه ذلك الوجه الذي كنت انتظره قبل ثلاثين سنة وكانه رأس سيارة مدببة تخترق الأفق لتخرج ذاكرتي من مصاطب الزمن، لم أتصور إني سوف اواجه صديقي الذي التقيته في منطقة (النهيرات) وقد اخبرني في "...................." قرأ قصة "قداس الموتى الألمان" وعرف نهاية (أتو ديتريتش آل كندة) فبالرغم من انه سلم صديقي "ثامر عبد الحميد" الا اني سلمت نفسي له وتركت مصيري بين يديه.

في الشهر الأخيرة أصبحت كائنا آخر بعد ان عرفت اني سوف أكون فوق "الكرسي الهزاز، قد خسرت مكانتي بين اساتذتي واتهموني بالجنون المطبق بعدما خلعت ثيابي في "غرفة المدير العام" وسلموني مخفوراً الى أهلي ومعي التقارير الطبية (نوبات هستيرية حادة، جنون وفصام شيزوفريني حاد) وأمام طاولة المحقق كان أبي يجمع التقارير في اضبارتي الشخصية:

(عيادة الدكتور فاضل زيا شمعون – العشار – سعدون ناجي – فصام شخصية وجنون عظمة تتناوبه حالات من الأسى الدفين/ صدمات كهربائية بالجهاز printer - Auto لمدة ستة أشهر متوالية).كان هذا ماجلبه أبي بعد أن عرف بأني سأواجه حكماً بالموت، المحنة الغريبة التي انتابتني هنا هي تقمصي لشخصية أبي، أصبحت مجنوناً بأبي، كنت ادوّن في دفتر جيب صغير بعض الملاحظات (الكلمة الاغريقية "اللوغوس" فعلت فعلها في نفسي وأصبحت اعاني من "عشو الكلمات"، أصبحت مجنونا باللازورد).

الجلسات تتوالى والاشخاص غريبو الملامح يأخذون بصمات اصابعي فوق اوراقهم وهذا اصبح لا يعنيني كثيراً، انني متهم غير واع لجريمتي التي ادخلني بها أبي، بعد ثلاثة شهور أصبح كل شيء واضحاً أمامي، الرجل ذو اللحية الصفراء يتسلمني مجبراً كي يدوّن أقوالي وهي جمل غير مترابطة:

* هل مارست جريمتك منفرداً؟

– كلا

* كيف داهمتك الدورية؟

- عند المدخل في نهاية البحيرات الشرقية كان معي شخص اختفى فجأة.

* و أين الشخص الثالث الذي كان معكم؟

- لا أدري

* هل لديك اقوال اخرى؟

- لي ملاحظة أخيرة، ارجوا ان تبحثوا عن "وجه أبي" كي تضعوه مع صورتي التي تثبت فوق اضبارتي.

- ها ها ها ها ها ها ها ها ها ها.

انتهت الجلسة بضحكات عالية وصراخ هستيري حيث دونت ملاحظات لا أعرف معناها.

وفي يوم ١٩٩٥/٥/٢٦ دونت في دفتر ملاحظاتي الصغير مايلي:

(قسطنطين بالوغيوس بطل كازنتزاكي بحق، منذ اللحظة التي وضع بها التاج فوق رأسه في "ميسترا" كان لايعرف انه سوف يلبس الشوك على رأسه والى الأبد).

الجرمانيون يشوشون مخيلتي، القلاع تتحرك في الظلام وجثتي مرمية في الممر والحرس الليلي ينتبه الى صوت غريب وصور وكأنها لأشباح قادمة من عمق الظلام، سبعون ساعة واحدى وعشرون دقيقة وخمسون ثانية وبضعة لحظات تفصلني عن العالم الأخر، السلاسل تطوقني بحلزونها المزدوج، الوادي الصخري يختزلني ككلب سائب، "اسطة ناصر" عينان جاحظتان مع أنف بارز وفك متهدل، كان يسجل عنواني في دفتر صغير عنده (العمارات السكنية – التميمية – مخبز جواد – دار ١٧)، وقتها تمنيت ان ادخله معي الى "آلة الموت الفرنسية" لكني لم أره ثانية منذ كنا نعمل سوية في "مكابس التمور".

أخر مادونت هي سبع صفحات تمزقت واستطعت ان اقتطع ماتبقى منها بعد محاولتي الاخيرة للأنتحار واطلاق سراحي وكأن هذه المحاولة هي نوبة الجنون الاخيرة التي انتزعتني من الهاوية التي اراها مرسومة أمامي دائماً.

أوراق ممزقة وعلامات غير مفهومة كانت توحي وكأن سعدون ناجي حاول الانتحار سبع عشرة مرة واخرها كان محاولة ابتلاع موس حلاقة قديم، وفي كل مرة تكون الصدفة هي التي تنقذه، ومن الاوراق الباقية لخصت مايلي:

في ١٩٩٥/٥/٢٧ الارض تهتز تحت أقدامي بعنف وانا في مركزها مضمحلاً تتقاذفني أساطير الرومان فانتزع ذاكرتي من كينونة الزمن فأعاني من الهوس، "الان الاعلى" وكانه طائر الرعد يفسد الهدوء الروحي الذي حاولت ان اصطنعه، "أنا افكر اذن انا موجود" هذه العبارة الدكتارية كنت ابحث من خلالها وجودي فأحيا قلقاً متوحداً بزمني فتلتهمني العرافة التي سرقت مني تعاويذ الرجل الذي التقيته ايام كنت هارباً مع أبي وفي ٢٨ و ٢٩ و ١٩٩٥/٥/٣٠ وجدتها ممزقة روحي التي ابتليت بها وكأنني احملها حجراً فوق ظهري وفي الايام الاخيرة ثمة رجال ينزعون من فمي بقايا الحكمة التي تناسيتها وأنا في آخر ايام الرحلة التي تمنيت ان لاتطول، وعلى الباب كان الحرس يتلو القرار الاخير بأطلاق سراح المدعو "طه ياسين جبر" بعد ان اثبتت التقارير الطبية اصابته بالشيزوفرينيا الحادة.

العراق – البصرة

كوكب حمزة وزمن الفنان المسروق

فاضل السوداني

(لم أعد أمد ذراعي خفية لأقيس المدى بيني وبينك) .

سرجون بولص

لايتناسب زمن المثقف غير المتكيف وبـالذات الفنان المبـدع مع زمن البرابـرة، لأنه زمن يتعامل مع الجمال وعدم التباس الموقف السياسي والاجتماعي في الحياة. وما حدث في العراق كان ومازال استثناء تاريخيا، لذا فأن النظام عمد الى سرقة الفنان أولاً قبل أن يسرق زمن الناس الابداعي ليحولهم الى منفذين في آلة الحروب اللامجدية، ومن ثم سرقة ثروات العراق بما فيها ابداع علماؤه وشعراؤه وفنانيه، وسلب عراقيتهم بسن القوانين الاستثنائية متناسياً عدم فاعليتها امام المشاعر النبيلة والدافئة في الروح العراقية المتوهجة تواصلاً مع التراث الثقـافي والفني الانساني. وتدلل هذه القوانين والممنوعات على ان الفنان المبدع غير المتكيف، الملتزم بقضية شعبه، يخيف اولئك الذين احتلوا العراق، فأصالة وصدق الابداع الفني العراقي يخلق نوعاً من الحصانة الداخلية لدى الجمهور تساعده على التواصل سراً مع مبدعيه بحيث يتحول نتاجهم الى منشور سري.

لذا فأن تكريم الفنان العراقي في المنفى تقييم لتأريخه الفني، بعيداً عن سلطة الجهل، تصبـح مهمة جوهرية في الوقت الحاضر. ويعتبر تكريم فنان وموسيقار مبدع مثل (كوكب حـمزة) ذا أهمية كبيرة من قبل العراقيين في كوبنهاغن (بدعوة من البيت العراقي)، بسبب قيام النظام بمنع الناس من سماع أغانيه منذ نهاية السبعينات، لأنه فنان امتلك القدرة على التعبير موسيقـياً عن النشيج السري والحزن العراقي الخاص، وعن ذلك الفرح العراقي الذي يستشـعره الانسـان عندما تتفتح روحه في صباح ندي آمن. وكونه انبثق في بـداية السبـعينات من الالفية الثانية، كشعاع موسيقي ليلحن أغنية عراقية شعبية معبرة، هدفها مساعدة العراقي على تحمل وحشـية انظمة الاستثناء ورفضه لها في ذات الوقت، وانسانية أغانيه هذه دفعته الى تحـمل التهجوّل في المنافي ومعاناة شظف العيش أكثر من ربع قرن وحتى هذه اللحظة.

ولأن (كوكب حمزة) امتلك موقفاً من الحياة عموماً عبر عنه من خلال اغانيه الشعبية، ويتمثل هذا في:

* نقاء ونبل الموقف السياسي والاجتماعي والالتزام بقضية الانسـان العراقـي والانسـان عموماً.

* تمايز موسيقاه بكونها تعمق شفافية روح الانسان، وتهذب الحس والذوق الجمالي لديه بعيدا عن التطريب المرتكز على اللحـن السـاذج الذي يميز الكثير من الاغاني التي كانت تُبَث من الاذاعة آنذاك.

* الحرص على البحث الايقـاعي في هارمونية المفردة الموسيقـية لخلق موسيقـى واغنية شعبية عراقية.

ويكمن تفرد كوكب حمزة فنيا ايضاً في غنى روحه الموسيقـية، والمصدر الحقيقـي لهذا هو تنوع التراث الغنائي في مدن الجنوب العراقي، مدن الاساطير والتعاويذ والسحر، مدن مازالت

عبقة برائحة الاهوار واخرى بمسك مزاقدها المقدسة. مدن على امتداد شواطئها نسمع حنين صوت داخل حسن، وبين سعف نخيلها وضياع المشاحيف وتوهانها في غابات القصب والبردي تنقل الريح الانين الابدي لسلمان المنكوب كأنه صدى لحشرجات صوت الاله العراقي المذبوح تموز البابلي. إضافة الى أغاني الخشّابة والتراث البصري المتوزع بين الايقاع الافريقي العنيف والرقص الهندي السريع، وغناء بحّارة السفن المحملة بالمسك والكافور والعابرة يم المحيطات المجهولة يتحول عادة الى همس حزين على شواطيء البصرة حتى عودتها المفاجئة.

وكذلك الايقاع السريع والمركب لموسيقى الهيوه الراقصة ٠والمهمة الفنية التي تقع على كوكب حمزة وزملائه الفنانين الذين يمكن ان يجعلوا منها عالمية التقبل والاستيعاب).

وبالتأكيد فأن كل هذا لابد ان يشكل الحس الموسيقي الشعبي لديه ليخلق مفردة موسيقية وأغنية شعبية تؤثر في المدينة الحضرية قبل غيرها. إن لحن كوكب حمزة الموسيقي ليس له تاثير في وطنه وحسب وانما يمتد الى خارجه، لان موسيقاه تلتقي من خلال افقها الانساني وايقاعها الهارموني المركب، بالموسيقى الافريقية وموسيقى (الراي)، واغاني وموسيقى (ثيودوراكس) و (فيكتور جارا) أو تلتقي بشجنها مع الموسيقى الهندية الاصيلة، قبل ان تشوهها الافلام التجارية الرديئة، اما عراقيا فأنها متفردة عن جميع انواع الغناء العراقي الريفي أو المديني.

ويمكن ان يلمس المستمع في أغاني وموسيقى الفنان كوكب حمزة بعداً موسيقياً ومفردة موسيقية خاصة تجعل من مختلف سامعيه، حتى الذين لاينطقون العربية يتذوقونها، والسبب هو أن المفردة الموسيقية مشحونة بمشاعر فنان أصيل وصادق مع نفسه وعالمه المحيط. وهذه الاصالة والصدق الفني هما الذين يجعلانها تلتقي مع مشاعر الانسان في عالم الأخر. وعلينا ألا نخاف من ذكر مفردة العالمية عند الحديث عن غنى الغناء العراقي، لأن كل فن صادق وأصيل في شعبيته ويمتلك القدرة على تعميم المشكلة المحلية بما فيها صدق المشاعر واتساع افقها لعموم البشر، يكون فنا عالمي المنحى، كما هو الحال مع أغاني الراي المغاربية، والموسيقى والغناء اليوناني، وأغاني الغجر العالمية، والفلامنكو الأسباني، وموسيقى الزنوج. وما أغاني كوكب حمزة مثل (ياطيور الطايره)، (بنادم)، (شوك الحمام)، (محطات)، (هوى الناس)، (البنفسج)، و (مضيعني بالضباب) وغيرها، الا موسيقى شعبية اصيلة تدخل في أعماق الناس وتستوقفهم في الطريق وتحفزهم على التفكير الجدي بتهذيب مشاعرهم وجعلها أكثر دفئاً والتصاقاً بالجمال والخير.

والفنان كوكب حمزة بحسه الشعبي وتذوقه الشعري امتلك حساً دراميا حتم عليه التعامل مع نوع خاص من الشعر الذي تتميز مفردته بغنى في التأويل واتساع التاثير في مختلف حواس الانسان.

وقد توفر له شعراء يمتلكون احساساً خاصاً بالملحمية والتراجيديا العراقية وشمولية الرؤيا، مثل الشاعر (زهير الدجيلي)، و (رياض النعماني) و (ابو سرحان) الذي قتل في الحرب الأهلية اللبنانية بسبب عدم وجوّد من يدفع الفدية عنه ليفك أسره).

وعندما يمتزج الوعي الشعري – الدرامي واحساس الفجيعة العراقية، بهارمونية الايقاع الموسيقي لكوكب حمزة، تصبح أغانيه كانها صدى لمشاعر انسان تائه، ضاع عمره بين

المحطات، إنسان ملهوف يبحث عنه أهله دون جدوى فيشعر بالمرارة، لكنه انسان ملحـاح في اسـئلته، ليس فقـط من أجل ان يجد طريقـه الى الذين اضاعوه وضيعهم، وانما في اسـئلته المصيرية الاخرى التي تصل حد السؤال الوجودي المقلق، كما هو الحـال في أغنية (مضيعني بالضباب) لرياض النعماني وبنادم لأبي سرحان واغنية محطات. ولابد لهذا الانسـان التائه ان يجد طريقه أحياناً، ولكنه في أحيان كثيرة سيعيش مع قلقه الدائم.

وانحياز الفنان كوكب حمزة لمثل هذا الشعر هو نتيجة طبيعية لاختناقـه من غربـته الداخلية او لا، منذ كان في وطنه. لذا فأنه أكثر الملحنين العراقيين شعوراً بالغربـة والقـلق الدائم الذي لايسمح له ان يستقر على حال، سواء في تنوع ألحـانه أم في حـياته. ففي أغاني مثل بـنادم، محطات، هوى الناس، شوك الحمام، وياطيور الطايرة، وغيرها هناك تكثيف موسيقي للتعبـير عن الحزن والاحساس بالغربة العراقية، والتأكيد على ان شـغاف الروح تتسـلل كالهواء بـين الأصابع، والفرادة العراقية للتأسي على ذلك الفارس الذي سيأتي في يوم ما، أو رفيق الاحلام أو ذلك الصديق المنقذ (الطين الحرّي)، أو الحبيب الذي لم يحن طيفه بعد والذي يشـعرنا فراقـه بوحشة الطريق، كما في أغنية "شوك الحمام" لأبي سرحـان: (ذبـلن وعود العشك/بشـفافك وماتن/ وطيور حبنا رحلت/وي طيفك وتاهن/كل المهاجر رجع/وطيفك بعد ماحن).

ومن خلال هذه القصيد المتماسك يعبر كوكب حمزة عن الغربة العراقية التي تبدو أبدية، ومن جانب آخر ليس سهلا ان يكون، هوى الناس، قداح وشموس وعصافير، ولكن فنان مثل كوكب حمزة بشفافيته وصدقه وخياله اللحني قادر على التعبير عن كل هذا موسيقياً.

ان تنوع الايقاع والغنى الروحي لاغاني الفنان تعمقت نتيجة لتأثرها بـالتراث العاشـورائي والتعزية الحسينية، فعندما نتمعن في أغانيه شعراً ولحناً نكتشفها وكأنها تعاويذ الحبيبة في لحظة تمنياتها وانسياب احلامها وقت الغروب، أو تبـدو كدعاوى الامهات العراقـيات المبـاركات وتمنياتهن في تحقيق المراد بـعودة الغائب والمهاجر الى دكة بـيته. وصدى ايقـاع الزنجيل والتطبير واللطم العراقي الابدي وهفهفة شعر العذارى أثناء ردحهن في ليلة (عرس القاسم) في عاشوراء، يمكن ان نستشعرها ونستحضرها عندما نسمع أغنية مثل بنادم ومحطات، وبالرغم من محليتها الا ان هنالك احساساً بصداها الذي يعبر الى العالم الاخر. ولهذا فأن بعض الاغاني من اجل التعبير عن قلق الانسان العراقي ومحنته الدائمة تبدو كأنها احاسـيس موسيقـية عنيفة تغزو أعمق المشاعر في روح الانسان.

ومثل هذا الايقاع والبعد التراثي وغنى التأويل في الكلمة واللحـن أعطى لاغاني الفنان ومنذ الاولى منها مساهمة في تغير اسلوب سـماع الاغنية العراقـية لدى العراقـيين، لانها فرضت مفردة موسيقية وقصيد شعبي متميز، تمثل هذا بـفرض الايقـاع الهارموني المركب والمتعدد النغمات لتنوع الالات الموسيقية، اي انها فرضت مايسمى بلغة الموسيقى بالايقاع البوليفوني.

في الماضي من الزمن الرديء وفي غفلته حاولا سرقة الزمن الابداعي للفنان العراقي، وهم يحاولون الان سرقة منفانا، ولكننا نستطيع ان نحوله الى تاريخ ابـداعي فقـط من خلال نقـاء الموقف السياسي والاجتماعي غير المتكيف مع النظام، والعمل الابداعي المتواصل في شـتى مناحي الثقافة الذي يتميز بالوعي والعقل العراقي المتفرد.

شهادات

أوراق عراقية في زمن الحرب والأحتلال

تتشارك هذه الأوراق، جميعاً، في أنها تأثرت وتتأثر، مثل العراق، بما جرى ويجري، وفي أن كتابيها لم يكتبوها في الاصل لتنشر، بل ليصرخوا وكانوا بذلك يتحاشون خطر الانفجار، غضباً أو حزناً.

هي، إذن، محاولات قصصية، ويوميات، "وأي ميلات"، قدر لي ان اساهم فيها، أو أن اطلع عليها، بحكم علاقتي المباشرة بالشهود، أو عبر الاطلاع Forward ومن هنا تكتسب أهميتها كشهادات عراقيات وعراقيين في زمن الحرب والاحتلال.

ابراهيم الحريري

من يوميات عراقية مهاجرة في زمن الحرب والاحتلال

1- يرعبني فحيح الافاعي الطالع من شاشات تلفاز القرن الامريكي الجديد..فالعراق هو الفريسة شهية وحُبلى بفرات ونفطٍ وعسل..

2- أسير في شوارع مانهاتن..طبول الحرب تقرع في رأسي والناس من حولي يحملون أكياسا تطفح بالطعام والفاكهة وأكواب قهوة هائلة الحجم..والطبول المجنونة تقرع..

"حربكم أيها المتخمون قادمة على وطني الذي يئن تحت وحشية أثني عشر عاماً من الحصار والمياه الملوثة وسرطان الأطفال الذي أهدتنا اياه قنابلكم الذكية.."

3- التصق في مقعدي، أرقب شاشات القرن المريكي الجديد..قنبلة اخرى تسقط على جسد بغداد..ثم يظهر دجلة..حزاماً من بهاء مطرازاً بالنخيل..فأشم رائحة لحمي تختلط برائحة الخوف الطالعة من أكباد الأطفال....ومن قبل اليوم، لم أكن أعرف ان للخوف في أكباد الطفال رائحة تصل من شواطىء دجلة "التي كنا نمر عليها" الى قلب غرفتي في مانهاتن..

4- ثقيل قلب نيويورك على قلبي العراقي..أقفز من سريري في الثالثة ليلاً..أهرع الى التلفاز، فتطالعني الدبابات الامريكية، أفاع تزحف الهوينى في شارع السعدون، أنظر الى الشاشة وأغرق في لجة رعب بلا قرار..

قبل خمسة وعشرين عاما، وقبل عيد الفطر بيومين خرجت عائلتنا الصغيرة لتشتري حذاء العيد للأنه ابنتي ذات الخمس سنوات.. وفي زحام ماقبل العيد تاهت الصغيرة منا، وإذ بحثت عنها، كنت اختنق في لجنة رعب لاقرار لها.. حتى احتضنتها الى صدري...اترى هذا الرعب الذي يغرقني، وأنا أرى دبابات القرن الامريكي الجديد تزحف على شارع السعدون تشبه ذاك الرعب عندما تهات ابنتي. أم ترى الوطن أغلى من الولد؟

5- بالأمس..داست الدبابات على أجساد البصرة والنجف وكربلاء والحلة وسدة الهندية..

وهاهي اليوم تدوس على جسد شارع السعدون وبغداد أمامي، قريبة حتى لأكاد الثمها..نخيل في كل مكان، وسماء صافية، وقبة جامع فيروزية ومزينة حتى الترف...دبابات وجنود أصحاء

بعيون زرق وشعر أشقر..

6- سلطان النوم يأبى أن يمارس رحمته عليّ.... ستة وثلاثون ساعة لم أنم منها دقيقة واحدة، فلحمي يحترق، ولامهرب لي من وجع الحريق ولامن رائحة الخوف الطالعة من أكباد الأطفال..وتحتلني..كما تحتل الدبابات بلادي رغبة في الخلاص..الحياة هي الجحيم..أصرخ من لوعتي على الوطن..وأخرج الى بالكونة شقتي..وأنظر الى الشارع من تحتي..ويناديني الموت لحظة واحدة..ولايعود ثمة وطن، ولادبابات، ولا لجة رعب بلا قرار، ولادجلة، ولاجحيم..لكنك لاتملكين ترف الخلاص ياعراقية..

تقول الاخرى، وهي تقاوم بشراسة:

لكنك ياعراقية..عراقية..

فكيف تختارين ترف الخلاص وأنت بنت دجلة الخير ..أمّ البساتين؟!

7- من نسغ عظامي تقوم، مثل رخ، ذاكرتي الضاربة سبعة الاف سنة في ثرى التاريخ..تضربني دون هوادة ذاكرتي..فأستذكر سطور مسلة حمورابي وملحمة جلجامش واوراق شجر ذهبية تحتضن رقبة شبعاد..

دون هوادة تضربني ذاكرتي..تهتزني من ترف الرغبة في الخلاص..

فأستذكر سطور المتنبي، والجاحظ، وأبو نؤاس، والحلاج وأبو العلاء، والجواهري، وبدر..ونازك..بدون هوادة..تضربني ذاكرتي..فأستذكر الشهداء..اسما اسما، منذ ثورة العشرين، ولحين هذا اليوم. بدون هوادة..تضربني ذاكرتي..فأستذكر جدي لامي، البغدادي الاصيل، طويل القامة مثل نخلة، ونرجيلته، وكفه الملآن بالدخن، تأكل منها حمامة البيت حتى تشبع، فتطير الى عشها فوق النارنجة في وسط الدار.. بدون هوادة..تضربني ذاكرتي..فأستذكر غرفة نومي في بيتنا القديم في الكرادة..وصوت حكاية تحكي لنا قصة "لعّابة الصبر"..تصرخ في وجه صاحبتها.."إنتِ صَبُرْ ,,,وآني صبرْ...كم دوب كلبي يصطبر"..

وأدرك اليوم..أدرك أنني عراقية أكثر من أي وقت مضى..وأنني لا أملك ترف الخلاص..بل فريضة الصبر..وفريضة الاستمرار..وفريضة المقاومة..

ميسون مالك

نيويورك - مانهاتن

أواخر نيسان / أواسط أيار ٢٠٠٣

مأساة

22 حزيران/ يونيو ٢٠٠٣

هذا مثال بسيط لما جرى ويجري في بلدنا الحبيب، ولأن المرسل الأصلي للرسالة يريد ان نشاركه مأساته وان نروي قصته، فأنني أعممها عليكم:

أيها الأعزاء

أشعر بضرورة ان نتشارك معاً هذه الرسالة التي وصلتني من صديق عزيز في بغداد يقيم الآن في الامارات العربية المتحدة. لقد أخبرني تواً بوفاة والدته بضربة جوية أمريكية خلال الحرب.

لقد مستنا الحرب جميعاً بطرق مختلفة، لكن لاشيء يعدل أن يفقد المرء عزيزاً.

إن فرحتنا بنهاية الدكتاتورية البشعة لايمكن أن تُبرر ماحدث، فصور تلك الفرحة تمتزج بالصور والحكايات والمآسي التي خلفتها الحرب.

إن رعب تلك اللحظة سيظل يطاردنا ليذكرنا ببشاعة العنف، بكل صوره واشكاله.

لكن لماذا ينبغي ان يدفع الناس العاديون — دائماً — ثمن الحرب والدمار؟

عليكم السلام

الموضوع: ماساة

عزيزي عمر

كيف حالك يا أخي؟ وكيف حال العائلة في بغداد؟ آمل ان تكونوا جميعاً بخير.

أحمل لك أنباءً سيئة، بالأحرى سيئة جداً، عن عائلتي..

أخي العزيز..

لقد قُتِلتْ والدتي بصاروخ أمريكي في السابع من نيسان..انها لصدمة كبيرة وخسارة كبرى لنا جميعا..لا أستطيع، حتى الآن، ان اصدقها..

لقد حدث الأمر في المنصور قرب مطعم الساعة (إني واثق انك سمعت بالأمر) ولقد كانت أمي في السيارة ذلك الوقت، وهي واحدة من خمسة عشر شخصاً قُتلوا في ذلك الحادث..

أرجوكم أن تصلوا حتى تدخل والدتي الجنة..

أرجوك ان تطلع كل العراقيين والمريكان الطيبين حتى يصلوا من أجل أمي..إنكِ تعرفها..هي لم تؤذِ أحداً..إني أومن بالله وأومن انه اختارها الى جانبه لكي يخلصها من هذه الحياة الشقية..

أرجوك ياعمر ان تحكي لكل من تعرفه عن هذه "الحرب النظيفة"!! (كما يسمونها) وكيف قتلت الأمهات والأطفال..

لن تتوقف عيناي عن سكب الدموع ولن يتعافى قلبي..لقد جُرح قلبي، كما هي بغداد جريحة الآن..

عمر عمم هذه الرسالة على الجميع، أرجوك..

محمد

أين يداي

من رسالة:

...كندا ابريل/ نيسان ٢٠٠٣

تم "تحرير " العراق!!

(لانه) تُعاني من الكآبة في القاهرة، أختها كتبت لي انها ستعود الى بغداد لتفتح دكانا، و هي تعد بــأيام أفضل. أمها تعيش وحـــيدة في نيويورك تُعاين كيف يُغتصب بـــلدها على يد الجنود الامريكيين و البريطانيين.

"أنا أعيش في كندا أعاين كيف يُدَمَّر بلدي و اشم رائحة دماء كل أولئك الذين قصفتهم موجات الصدمة و الرعب (shock and awe).

إننا نتشارك جميعاً بالشعور ذاته..ان مهد الحضارة يتحول الى مقبرة. لياليناطويلة ونحــن مشلولون مصعوقون..

(لانه) تريد العودة الى بيتنا في "عرصات الهندية"... و ان تنام، ولو لمرة، على السطح..

(بانة) تريد العودة الى بغداد لتفتح دكانها الصغير..أمها تريد ان تشـتري ليلكاً أبـيض و ان تغرسه في حديقة بيتنا في (العرصات).. أنا اريد ان أغني اغنية عراقية قديمة..

(علي) * الراقد في سرير المستشفى ينظر الينا وكأنه يقول:و أنا من يعيد لي يديّ..

نسرين/تورنتو/اواخر ابريل/نيسان ٢٠٠٣

* علي: الطفل العراقي الذي خسر ١٣ من أفراد عائلته و يديه في غارة أمريكية.

مخلوقات تراقب الحياة

حسن الفرطوسي





في نهاية شهر مارس الماضي، خرج الفنان العراقي سعد الموسوي وهو يتزعم مخلوقاته في معرضه الاخير في احدى قاعات مدينة ميلبورن الاسترالية.. وكان المعرض يضم تشكيلة رائعة من اللوحات المنتمية الى مراحل واساليب متعددة من سيرة الفنان الموسوي وهذا بطبيعة الحال نابع من ارتباط الفنان بمراحله الفنية السابقة، دون المساس بالعلاقة الروحية بين هذه الاسلوبية الجديدة والاساليب السابقة. وانا اقف امام لوحة (كرنفال الماء) وهي لوحة لثلاث سمكات، الاولى تعزف على الناي والثانية تضرب على طبل صغير اما السمكة الثالثة فهي عروس قد اعدت بعناية لليلة زفافها، وهذا واضح من خلال القرط الانيق المتدلي من بين خصلات شعرها والمنقوش بنقوش شرقية، ومن خلال ملامح الخجل والغنج الواضحين على وجه العروسة "السمكة".. انتابني احساس غريب، بان هذه المشاعر وجميع المشاعر المتمثلة بالفرح والحزن والحب والكراهية هي ليست ارهاصات انسانية فحسب انما تشترك معنا فيها جميع المخلوقات، وهذا يذكرني بفلسفة " اخوان الصفا وخلان الوفا" في رسالتهم السادسة من باب النفسيات العقليات، فهم يقولون: "اعلم ياأخي ان محبة النساء للرجال وعشقها، فان ذلك في طباع اكثر الحيوانات التي لها سفاد. وانما جعلت تلك في طبائعها لا ليدعوها للاجتماع والفساد، بل ليكون منها الناتج، والغرض منها بقاء النسل وحفظ الصورة في الهيولي بالجنس والنوع". هناك جوانب كثيرة اجتمعت مع بعضها، لتتولد هذه الاسلوبية المتفردة للفنان سعد الموسوي، فبالاضافة الى امكانيته الحرفية من ناحية اللون وقدرته العالية على تجسيد الشكل الخارجي للاشياء ومن خلال خبرته بالعلاقة السايكيولوجية بين عين الانسان والتاثيرات اللونية، فهناك جانب اخر وهو جانب مهم جدا في بناء الفنان التشكيلي الا وهو مايحمله الفنان من ثقافة ورؤية خصبة وعميقة للاشياء وللحياة بكل تفاصيلها.. فالفنان الموسوي مرتبط بعمق بحضارته السومرية باعتباره من ابناء مدينة الناصرية، ولطالما ذكر لي من باب المداعبة بأن زقورة اور قد استحوذت على معظم خلايا الدفتريا في دماغه.. لذا فانه اختار اللون الازرق وعائلته كممثل شرعي لحضارته ويكاد ان يكون اللون الازرق هو العامل المشترك بين جميع لوحاته وحتى ان اسلوبيته الجديدة لاتخلو من هذا اللون، وكأنه عشق ابدي.. واكثر ماشدني من الفصيلة الزرقاء هي لوحة "توحد الكائنات" وقد نفذت بالزيت، وبقياس ١٢٠×١٠٠سم وقد نفذ العمل في سنة

١٩٩٣.. فكتلة الملك تستحوذ على اللوحة.. وهناك سمكة بشفتين لذيذتين تعزف على الناي وعينها تنزف شفافية وكانها مشط معقوف.. بينما الطائر يبدو مزهوا والتاج يعتلي راسه بلون ينم عن حوار طويل قد دار بينه وبين الملك الذي تخلى عن تاجه له مقابل بعض الريش للملك "الاله" لتنتصب الريشات على راس"الملك بلون لايختلف عن لون الطائر الازرق.. والسمكة مستمرة بالعزف على الناي دون توقف باصابع قصيرة جدا.. ويبدو ان اللحن كان جميلاً جدا، لان خلفية اللوحة مازالت تغني، لحن العدالة والانصاف عبر التدرج اللوني للازرق وضمائره.. والكل منسجم بهناء ورخاء.. رغم ان راس الملك يبدو شامخا بخطوط عمودية نحو الاسفل منحرفة ذات اليمين وذات اليسار لتعانق الطائر والسمكة على حد سواء بحنان الهي جميل!؟ مرة اخرى تظهر فلسفة ابن عربي في وحدة الكائنات وفلسفة (اخوان الصفا) في رسالتهم الثالثة حين يقولون: اعلم ياأخي ان العالم انسان كبير وقولهم ان الانسان عالم صغير، معنى ذلك ان العالم له جسم ونفس، يعنون به الفلك المحيط ومايحوي من سائر الموجودات من الجواهر والاعراض، وان حكم جسمه بجميع اجزائه البسيطة والمركبة والمولدة، يجري مجرى جسم انسان واحد.. او حيوان واحد، بجميع اعضاء بدنه المختلفة الصور، المفننة الاشكال. فالموجودات في العالم لها اصول، وتلك الاصول من اصول اخرى قبلها، الى ان تنتهي كلها كمثل شجرة واحدة لها عروق واغصان، وفي تلك الغصون اوراق.. تلك الدنيا.. اما في لوحة "ثلاثية الانسان المعاصر" فتبرز التجريدية هنا واسعة الافق من خلال التداعيات اللونية والعلاقة بين الكتلة واللون، فالظل هنا، هو سيد الموقف وهو المستودع الحقيقي لكل الاسرار والاحلام والهواجس الانسانية وهذا واضح من خلال اللون والرموز الموجودة في الظل.. بينما يبقى الجسد كتلة مظلمة غير واضحة المعالم بعد ان فرغت من الاحاسيس والاحلام.. فهذه الوسيلة-وسيلة الاختباء في الظل-هي من انجح الوسائل للحفاظ على الجسد من الهلاك وقطع الراس في هذا الزمن الذي يعاقب فيه الانسان على ما يحمل راسه من احلام ومن افكار.. وجعل الجسد هو الهدف الاول للعقاب، كما فعل النظام العراقي السابق، باجساد العراقيين وحول البلد كله الى مقبرة جماعية كبيرة.

ملبورن/ استراليا
2003 / 7 / 27

اصدارات وردتنا

حسن مطلك: قوة الضحـــك في اورا، رواية، الدون كيشـــوت للنشر والتوزيع، دمشق ٢٠٠٣.

عبد جعفر: سقوف المنازل، قصص قصيرة، دار الحكمة، لندن ٢٠٠٣.

خلف الزرزور: غريب يازمن!، قـــصص قـــصيرة، دمشـــق ٢٠٠٣.

دار الرواد للطباعة والنشر

